مزامير إبليس

رواية

محمد الجمل

الكتاب: مزامير إبليس / رواية

الكاتب: محمد الجمل / روائي مصر

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

الجمل، محمد

مزامير إبليس / محمد الجمل – الجيزة: وكالة الصحافة العربية.

تدمك: ٧ – ١٤٤ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

٠٠ ص ، ٠٠ سم. ١– الأدباء السودانيون

أ. العنوان ٩٢٩.١ رقم الإيداع / ١٠٢٠٥

مزامير إبليس

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تنويه

لا تجري أحداث هذه الرواية في بلد مقصود بذاته، أو في دولة بعينها، وإنما تنطلق الأحداث من خيال فني له طابع درامي لا ينفصل تماماً عن واقع الحياة المعاشة في زمن العولمة وحضارة السوق والإعلام المبرمج.. وهكذا يجمع البناء الفني للرواية بين ما هو واقعي، وما هو فوق الواقعي، بين ما هو معقول وما هو "لا معقول"، وقد يبدو من المناسب تقديم الاعتذار اللازم، إذا ما تشابهت عن غير قصد بعض أحداث هذه الرواية، مع بعض ما يجري في بلد من البلدان، لذا وجب التنويه ولزم الاعتذار.

المؤلف

لـم يكـن "طـارق زيـدان" مـن الأشـخاص الـذين يمكـن فهمهـم بـسهولة، وصـفه الـبعض بأنـه متبلـد المـشاعر، قليلاً ما تـراه مبتـسماً أو مـنفعلاً، فـسمات وجهـه تـوحي بأنها في وضع "بؤر" أبدي يصعب أن تعرف من صـديقه ومن عـدوه، يتعامل مع الجميع كأنهم "بيادق" يحركها فـوق رقعـة "شـطرنج"، يختـار مـن يتعامـل معهـم، بحيـث يتــوافر فــيهم ثلاثيــة الــذكاء والطاعــة العميــاء وإدمــان الامتيازات.

كان قد وصل إلى سن الخمسين عندما تألقت مواهبه، وأصبح المستـشار الأول لكبيـر أُمنـاء الحـزب الأوحـد الـذي يحكـم الـبلاد بطولها وعرضها منذ زمن طويل، كـان قـد اتبـع نظرية مدهـشة لحرمان الحـزب الحـاكم مـن منـافس حقيقـي ينجح في تـداول الـسلطة معـه، بطريقة سليمة أو غير سليمة كان أول من اختلف مع "ميكـافيلى" في

مقولته الشهيرة "الغاية تبرر الوسيلة"، قال إن المقولة الصحيحة هي أن الوسيلة تبرر الغاية، "فإذا كانت الغاية هي الحفاظ على كرسي الحكم، فإنه يمكن استخدام الوسائل المشروعة وغير المشروعة للحفاظ على الكرسي".

صارح "كبير الأمناء" بأن المشكلة العويصة التي تواجه الحزب هي مصطلح "التاريخ"، فعندما يعود الناس إلى زمن ما قبل حكم الحزب الأوحد يجدون ما يدفعهم إلى الغضب والاحتجاج والتمرد، والرغبة في التغيير، ومن هنا كلفه كبير الأُمناء برئاسة لجنة لإعادة كتابة التاريخ، لفت طارق نظره بأن هذا المصطلح "إعادة كتابة" التاريخ قد يثير الريب والشبهات، وأن المصطلح المناسب للجنة هو "لجنة تصحيح التاريخ".

هكذا استقر رأي كبير الأمناء بإصدار مرسوم بتكليف "طارق" بحق الإشراف على وزارات المعرفة.. ووزارات الثقافة والإعلام والتعليم والبحث العلمي، بحيث يمكن الاطمئنان إلى أن ما يصدر عنها من قرارات وإجراءات يؤكد مشروعية وسلامة الأوضاع، أثنى طارق على الفكرة واقترح تغيير أسماء هذه الوزارات، بحيث يصبح اسم وزارة الثقافة هو وزارة المعرفة، ووزارة الإعلام هو وزارة "الحقيقة"، ووزارة المالية هو وزارة "الوفر"، ووزارة الداخلية هو وزارة

"الحب"، ووزارة الدفاع هو وزارة "السلام"، ووزارة القوى العاملة هو وزارة "النصر".

انتهز أحد المرؤوسين "لطارق" فرصة الاجتماع في جلسة مغلقة مع أصدقاء مأمونين يخفون مآخذهم على الجزب في بضعة سنتيمترات مربعة من عقولهم، وقال بتهور قبل في تعريف الإنسان: "إنه حيوان ناطق" ثم تبين أن الببغاء تنطق.. وقيل إنه حيوان ضاحك، ثم تبين أن القرود تضحك.. وقيل إنه حيوان عاقل، ثم تبين أن الحيوانات تعقل مع اختلاف درجات التعقل، واضح أن "طارق زيدان" لا ينطق ولا يضحك، ويستخدم عقله بطريقة لا تسمح بالحوار أو المراجعة، تلّفت أحد الحاضرين في الجلسة السرية ونظر في ساعته ليمطئن على سلامة الجهاز الخفي، ثم قال لزميله باطمئنان: "نسيت تعريفاً آخر.. قيل إن الإنسان حيوان ذو تاريخ، بمعنى أنه يستفيد من تجارب أسلافه ومن تجاربه، فيتجنب زلاّتهم ويضيف إلى اكتشافاتهم، "بمعنى أنه يستوعب التاريخ"، ويستقضي من الحوادث عبرتها، فيدرك ما سوف يحدث ولا يمكن أن يعود، وهذا هو الفرق بين الإنسان الواعي وغير الواعي. غير الواعي لا يرى غير قطعة الجبن، والواعي يرى قطعة الجبن، ويرى المصيدة، "طارق" يدّعي أنه يصحح التاريخ، وهو في الحقيقة يمحو ذاكرة التاريخ.

وصل إلى طارق كل تفاصيل ما قيل في هذا الاجتماع، كانت له شبكة عنكبوتية تصل إلى المخادع ودورات المياه وما تحت الملابس الداخلية، قال للحاضرين في نهاية اجتماع موسع بعد أن أفاض من تعليمات وتوجيهات الحزب: "هناك من يشغلون أنفسهم بتعريف الإنسان.. هناك من يقول إن الإنسان حيوان له تاريخ.. والتاريخ في رأيي هو "ذاكرة الإنسانية".. وهذه الذاكرة تحفظ لنا الكثير من المآسي والحروب والشرور والكوارث التي أدمت تاريخ الإنسانية.. المطلوب هو تغييب هذه الذاكرة وتدميرها في عقول الأجيال القادمة، حتى تتحقق السعادة الكبرى في غياب الماضي الآثم الأليم، ارتبك بعض الحاضرين الذين أشار إليهم طارق بإصبع الاتهام، لم يكن لهم حق الرد أو التعليق كانوا يتحسسون مكاسبهم ويحلمون بحبل النجاة، حبل الإفلات من العقاب.

قليلاً ما كان "طارق" يجتمع بزوجته إيناس حافظ، كلاهما مشغول بعمله طوال النهار وبعض ساعات الليل تجمعهما مائدة طعام أو بعض برامج التليفزيون أو مكالمات سريعة مع الأبناء، "إيناس" تعلم بالمحاماة وترأس جمعية معطلة لحقوق الإنسان، تنادي بعناد متهور بثلاثية الحرية والعدالة والمساواة، وتطالب بشيوع المحبة بين الناس والمحبة التي أصبحت محرمة، تحكم قانوناً غير مكتوب وغير وارد في مواد، بدت المحبة في نظر الحزب مسألة غير أخلاقية تثير

الشكوك والشبهات وتعرض الأمن القومي للقلاقل والهزات وطمع الأعداء.

جمعت طارق وإيناس مائدة عشاء أمام حمام السباحة في فندق "شيراتون" ومشويات ومحمرات ومسلوقات وسلاطات تكفي وحدها كوجبة عشاء، اندمجا في تناول الطعام بلا حديث بلا تعليق بلا ابتسامة بلا استعادة ذكرى عزيزة على القلبين أصبحت علاقتهما باردة رتيبة تزوجا في زمن جميل، مضت عليه عقود، وهما الآن يعيشان في زمن فقدان الذاكرة، زمن السعادة الكبرى بلا ذاكرة وهو شعار ابتدعه طارق ضمن منظومة تصحيح التاريخ.

مازالت إيناس تحتفظ ببضع سنتيمترات مربعة داخل عقلها، تخفي فيها بركاناً من الغضب والنفور والاحتجاج على الأوضاع، حيث لم ينجح طارق في تدمير هذا الحيز الصغير داخل عقلها، علاقة محنطة لا نعرفها تعيشها بوعي مزدوج يحميها من السقوط أو الانهيار. فهناك أبناء بينهما، وهناك الخوف من الصدام مع طارق الذي لا تحمد عقباه، كان طارق يعي بالحيّز السري داخل عقلها ولم يفكر في اجتثاثه مادام لم يعلن عن نفسه، ثم إنه لا يحبذ انفجار مشكلة عائلية تؤثر على عمله، سألته إيناس وهي تقضم تفاحة وتنظر إلى حمام السباحة:

– أليس عندك ما تقوله؟

رمقها بنظرة باردة وهو يقشر إصبع موز، ودون أن ينطق بحرف عادت تسأله:

– هل مازلت راضياً عن عملك؟

صمت طويلاً، قال باستخفاف باهت وحس أطرش:

– إنني أقوم بعمل مهني بحت.. أنهمك في عملي حتى أنني أنسى معه نفسي.

– أنت مستشار.. والمستشار يقدم النصيحة.. والنصيحة تحتاج إلى مصارحة.. والمصارحة تتجاوز ضوابط العمل المهني.

لمحت في نظرته بوادر الغضب، فعادت تتجنب لحظة الصدام:

– هذا مجرد حديث.. حديث عفوي أثناء تناول طعام.

قال بحزم قاطع:

– دعينا من حديث العمل.

قالت وهي تسحب منديل ورق، بما يوحي بالرغبة في الانصراف:

– وهل عندنا حديث غيره؟

– هل ينقصك شيء يمنعك من العيش فوق السحاب؟

الفيلا.. الشاليه.. الشيفورليه..

عاد يقول وهو يتسلل إلى غضبها المكبوت.

- لا تفسدي سعادتك بالأوهام.. حرري عقلك من الحشائش الضارة.

- ماذا تقصد؟

- تعرفين ما أقصد!!

عاد يسألها بلهجة ذات مغزى:

- ما أخبار جمعيتك لحقوق الإنسان المعطلة؟

- مازالت تحت الحراسة.. أنت أول العارفين.

- يمكن رفع الحراسة.. بشرط أن تحرسيها بنفسك من الأفكار الضارة بالاستقرار.

علقت بسخرية خالية من الانفعال:

- تقصد الحشائش الضارة؟!

كان أكثر ما يؤرق "طارق زيدان" وهو يقوم بمهمة تصحيح التاريخ هو السيرة المزعجة للثائر المعارض "همام خاطر"، الذي كان من زعماء الحزب، ثم انقلب عليه باعتبار أن الحزب خان الأمانة، وتنكر لمطالب الشعب، اختفى "همام خاطر" ولم تختف انتقاداته للحزب، ومازال الناس يرددون شعارات برنامجه الإصلاحي، كان "طارق" يدرك – بوعيه السري – صحة وسلامة رؤى "همام" النهضوية، وكان من أنصارها ذات يوم عندما كان الحزب يتبناها،

ومطلوب منه الآن بشكل مهني بحت أن يلعب في ذاكرة الناس، ليجتث من عقولهم وقلوبهم ذكرى همام ومشورعه الواعد.. كان الأمن يقوم بتصفية أتباع همام ومريديه، باعتبارهم منقلبين على النظام والاستقرار، وكان عليه أن يقوم – إعلاميا – بتصفية ذاكرة الجمهور من الأفكار المزعجة لذاك التأثر المزعوم.

هكذا اجتمع بلجنة "تصحيح التاريخ" التي يرأسها وأخذ يطرح الشعارات التي يجب تداولها بدلاً من حق تداول السلطة، من هنا طالب اللجنة بإطلاق شعارات: المرتد، الخائن، عدو الشعب، العميل، المتعاون مع الأعداء، والمنقلب على الشرعية بجناحيها الإلهية والدستورية، وطالب بإطلاق هذه الشعارات على الخائن "همام خاطر" الناكر للجميل، طالب أيضاً بنشر إشاعة: ألا أحد يعرف إن كان همام مازال حياً أم ميتاً، أم أنه اختار الخلاص بالانتحار وألا أحد يعرف مكان اختبائه أو مكان قبره، وربما سلم نفسه لأعداء الوطن، طالب أيضاً بإعلان تليفزيوني – شبيه بإعلانات السلع – يذاع بانتظام بين الفقرات، للتنديد بجرائم "همام" في حق الوطن، واقترح تسمية هذه الفقرة باسم مثير هو: "دقيقتان للغضب"، على سبيل الإلحاح على العقول.

لم يعترض أحد من أعضاء اللجنة بل تسابق بعضهم في إظهار البراعة في فن غسل العقول وتمييع الأفكار، اقترح أحدهم إطلاق صفة "الأخ الملهم" على كبير أمناء الحزب، تماشياً مع قاعدة النقيض بالنقيض يعرف، وإن مصطلح العمل الصالح لا يعني غير وصف ما يقوم به وينجزه كبير الأمناء، وإن أي وصف لأي من أعماله بأنه غير صالح لا يعد تجريحاً فقط بل هو عبارة منافية للعقل والمنطق، قال عضو آخر في اللجنة يجب أن تتبع إدانة همام خاطر في البرامج الإعلامية، التأكيد على حكمة "الأخ الملهم" الذي لا بديل عنه في الحاضر والمستقبل، وضرورة استلهام رؤاه الخارقة على مر العصور.

لمح "طارق" وهو متمدد في سريره بجوار "إيناس" الأجندة الذهبية المعلقة في حجرة النوم، تذكر فجأة أن هذه الليلة هي الليلة المحددة في جدول أعماله لممارسة الجنس، لم تكن ممارسة الجنس ممنوعة في عرف الحزب، هي وفقاً لبرنامجه عملية بيولوجية بحتة، بهدف تحقيق رسالة التناسل والإنجاب وفق الشريعة الإلهية، وليكون هناك من يسلمون شريعة الحزب من جيل إلى جيل، كان الهدف الخفي هو القضاء على متعة الجنس، وضمان انعدام الجاذبية الجنسية بين طرفي العلاقة، كان توافر الجاذبية دليلاً على توافر مبدأ المحبة، والمحبة من وجهة نظر الحزب من أخطر الدوافع

التي تهدد الأمن القومي للبلاد، و"إيناس" مستوعبة تماماً لأيديولوجية الحزب التي يمثلها "طارق"، وقد تقبلت هذا الشكل المنفر من العلاقة الجنسية على عواهنه باعتباره أمراً واقعاً يتماشى مع تعليمات الحزب، وعلى أمل أن يحين الوقت المناسب لرفض هذا الذي تراه مسخاً وتدليساً للمشاعر الإنسانية، وكانت ترى – بحسها المتمرد والمكتوم – أن مثل هذا الحال لا يمكن أن يدوم.

اقترب منها طارق احتضنها بعصبية رتب على ظهرها بيد ثقيلة. أخذ يقبلها بشفاة جافة متيبسة لا تعرف كيف تتطابق مع شفتيها، أخذ يشد شعرها بعنف، تأمل بعض شعيرات رأسها المنزوعة في كفه، خلع ملابسها كأنه يسلخ جلدها، قفز من السرير ليخلع ملابسه بسرعة ميكانيكية، إنقض عليها كمن ينقض على فريسة كاد صدره المتهجم يخنق أنفاسها، ظل يصعد ويهبط ويروح ويجيء كأنما يتعامل مع هامدة خالية من أية حياة، تحكمت إيناس في صرخات مكتومة، كان عزاؤها أن هذه العملية لا تستغرق وقتاً طويلاً، حتى تحدث راحته، وهي أبداً لا ترتاح، حدثت راحته وأسرع في ارتداء ملابسه، تمدد في السرير بعد أن أعطاها ظهره، سمعت شخيره بعد لحظات، ظلت "إيناس" تبكي وقتاً طويلاً دون أن تعرف متى تنتهي هذه المحنة، ومتى تحل لحظة الرفض والغضب والاحتجاج، تعودت أن يجافيها النوم بعد كل عملية اغتصاب من هذا النوع، تعودت

أيضاً أن تهرب من شخيره وتلوذ بالحمام لتغتسل، لتغسل أدراناً نفسية لا تزول بماء وصابون بل حتى ولا بالكلور، تعودت أن ترقبه في الصباح وهو يتناول فطوره دون أن يشعر بوجودها، تمنت أن تلمح في عينيه وهو ذاهب إلى العمل بادرة شعور بالذنب يخفف من كراهيتها له ولنفسها دون أن تفوز بأية بادرة.

كانت "إيناس" على علاقة طيبة بالدكتور "وليد فايد" (رئيس قسم الأمراض العقلية والنفسية بالجامعة)، والذي يعمل مستشاراً لها في جمعية "الكرامة" لحقوق الإنسان التي ترأسها، علاقة أخوة وشراكة في عمل وطني، كان الدكتور "وليد" يقوم بدراسات نفسية ذات صبغة اجتماعية تبحث في مرض "الاكتئاب النفسى" الذي أصاب ٨٠% من الناس والذي أدى إلى الشعور بعدم الانتماء، فالتمركز حول الذات وفقدان الحماس للعمل وتفشي حالة "اللامبالاة"، وعلاقة مثل هذه السلبيات بحقوق الإنسان، وقد حاز مضمون هذه الدراسات جانباً لا بأس به من كل تقرير للجمعية وبعض التقارير الدولية.

كان الدكتور وليد يتابع بنفس الاهتما حالة الاكتئاب النفسي الحاد التي تمر بها "إيناس"، لم يكن يتابعها على سبيل الفضول أو الاهتمام الشخصي، وإنما كان يقوم بواجبه المهني حيال شخصية

مهتمة بحقوق الإنسان.. تلك الحقوق التي لا تنفصل عن مقتضيات الصحة النفسية التي هي من صميم علمه، كانت "إيناس" تفهم قصده بموضوعية ونية حسنة، حدثته كثيراً عن علاقتها العاطفية المحبطة مع زوجها "طارق"، ولا تعرف لماذ تفتقد الشجاعة في طلب الانفصال.

وعندما قال لها: "إن المرأة الشرقية تحرص على قوام الأسرة ومستقبل الأبناء أكثر من حرصها على حريتها وسعادتها الشخصية، اعترفت له بأن مثل هذا الحرص ليس وارداً في حساباتها، بل إن قرار الانفصال ربما يكون في صالح مستقبل الأبناء الذين دفعوا ثمناً باهظاً بسبب علاقتها الفاشلة مع "طارق"، وربما استطاعت بعد الانفصال أن تنقذهم من مصير غامض ومجهول، اعترف لها بأن تشخيص الحالة يعتمد على ضرورة تعرفه على "طارق" وفهم طريقة تفكيره ونوازعه الداخلية.

طلب "طارق" عقد جلسة عاجلة مع الأخ الملهم "كبير الأمناء"، بدا عليه القلق والتوتر وهو يجلس في مواجهة الكبير، ويقلب أوراقه المرتبة أمامه فوق المنضدة، قال بلا مقدمات: "إن التقارير التي تصله تشي بأن الناس بدأت تضيق بوحدانية الحزب

الذي يرفع شعار "ديمقراطية بلا حدود"، ويعتبر ديمقراطيته أعظم ديمقراطية في الإقليم وربما في العالم، قال: "إن الناس تحلم بتداول السلطة، وهذا حقهم علينا، بإعتبارنا حراس الديمقراطية...، تحكم الكبير في انزعاجه وسأله عن مغزى ما يقول، قال "طارق" إنه يقترح إصدار قانون يسمح بتعدد الأحزاب.. ولكن أية أحزاب؟ أحزاب ضعيفة هزيلة.. تعيش على دعم الدولة، ولا تقوى على منافسة حقيقية وتعطي انطباعاً مطلوباً لواجهة ديمقراطية، وتمتص المعارضات المشبوهة في الداخل والخارج، رمقه الكبير باستخفاف، وقال بارتياب: هل نسيت أن هناك قوى حقيقية معارضة ذات خطر، يمكن أن تفوز بالرهان؟

توقع "طارق" السؤال وقال بحكمة المحترف: "سوف تقوم الأحزاب الهزيلة باستنزاف قوى الأحزاب الواعدة، باستهلاك طاقتها في مناوشات ومنازعات، تحرمها من تحد حقيقي لبرنامج حزبنا، وتدفع قادتها إلى اليأس الذي يؤدي إلى الانسحاب.. سوف تسمح للأحزاب الهزيلة بنسبة لا بأس بها من المقاعد في البرلمان حتى تصبح قادرة على التشويش والتمييع.. هكذا نقوم بتصحيح التاريخ، ونقضي على السمعة السيئة لحكم الرجل الواحد.. نختار من الماضي ما يناسب الحاضر".

صمت الكبير طويلاً وهو مستغرق في التفكير، رمق طارق بإعجاب ممزوج بالارتياح وقال: "أنت تقوم بمهمة تصحيح التاريخ ببراعة نادرة سيظل الحزب مديناً لأفكارك أيها الجندي المجهول الذي يعمل في صمت، عاد يقول له على سبيل رد الجميل "حجزت لك"، فيلا فاخرة في المجمع السياحي الجديد بالساحل.. لا تشغل نفسك بأعباء السداد، لم يشك "طارق" لحظة في أنه تم تسجيل كل كلمة قيلت في هذا الاجتماع، كان يعي أنه مراقب بشدة مثل كل كبار العاملين والمشتغلين فهو يعرف أكثر من اللازم وأخطر من اللازم، وهناك دائماً ذاك التوقيت الحرج الذي يتم فيه الخلاص من أخلص الخلصاء بعد أن تحترق أوراقه وعندما تدعو الحاجة إلى الاستغناء عن خدماته.

لم تندهش "إيناس" في بداية الأمر، عندما قرر "طارق" أن ينام في غرفة مستقلة في جناح آخر من الفيلا الفسيحة، كانت لها مبرراتها في فهم هذا التصرف فهو لا يعنيه كثيراً دفء سرير الزوجية، ولا يغذي مثل هذا الدفء شبهة شعور طبيعي في داخله، ثم إنها تقبلت مبرراته لهذا التصرف، عندها أخبرها بأنه يريد أن يرحمها من شخيره، وتقلباته العصبية المزعجة طوال الليل، حريص على سماع البرنامج الموسيقى من الراديو الصغير الملتصق بأذنه

حتى بعد أن يستغرق في النوم، وهو لا يريد أن يؤرق منامها، ولا يريد أن يستعمل السماعة الكاتمة للصوت، لم تخف إيناس ارتياحها لهذا القرار، فلم تكن مجاورته لها في السرير تضيف إليها شيئاً مرغوباً، ثم إنه يحميها من توترات لا طائل من ورائها ومع الوقت تحول هذا الوضع إلى أمر واقع.

كانت الظروف تدفعها أحياناً إلى الاقتراب من غرفة نومه المستقلة، أو تمر أمامها أثناء الليل للذهاب إلى الحمام أو قضاء حاجة، بدأت تلاحظ أن نور الحجرة مضاء في الهزيع الأخير من الليل لاحظت مع الوقت أن الإضاءة تستمر وقتاً طويلاً بما يوحي بأنه يقرأ شيئاً، أو يكتب شيئاً، لم يكن من حقها أن تسأله أو حتى تطمئن عليه، ومع ذلك استبد بها الفضول لمعرفة ماذا يفعل، خمنت أنه ربما يكتب تقاريره السرية الملغومة لجهات حساسة، وقد تراجع هذا التخمين عندما تبينت أنه يقرأ أوراقه ويكتب تقاريره في غرفة مكتبه التي كان واثقاً من أنها مزروعة بأجهزة التصوير والتصنت التي لا ينجو منها أحد حتى من كبار المسؤولين.

أخذت ترجح أن هناك ما يتم عمله داخل غرفة نومه، يختلف تماماً عن المهام الرسمية التي يقوم بعملها داخل غرفة مكتبه، وربما لا يريد لما يقوم به في غرفة نومه أن يقع في دائرة سمع وبصر

الأجهزة المعنية، دفعها فضولها إلى تقصي الأمر، فقررت أن تقتحم غرفته في غيبته لعلها تعثر على شيء، الغرفة بها مكتب صغير وخزينة، الخزينة بطبيعة الحال مغلقة أدراج المكتب أيضاً مغلقة، هناك فوق المكتب بضعة أوراق بيضاء من غير سوء وبضعة أقلام وجهاز الراديو الصغير، وكاميرا صغيرة لم تر مثلها من قبل، وتبدو من أزرارها ومفاتيحها أنها شديدة التعقيد، وغالباً هي لازمة من لزوميات عمله، وربما يحمي بها نفسه من غوائل الغدر والزمن، لم يمنعها فضولها من دخول الغرفة من وقت لآخر، وتقليب محتوياتها لعله ينسى شيئاً ذات ليلة يكشف لها من ما يخبئه داخل عقله، لم تسمح لنفسها بأن تتوقع أنه يحتفظ بضعة سنتيميترات مربعة في عقله يخزن في داخلها نوازع معارضة أو احتجاج، يسقطها على الورق في جوف الليل ويخفيها داخل الخزينة، بدا لها هذا الاحتمال من تخاريف عقلها الباطن، أو أحد الهلاوس التي تستدرجها نحو الجنون، خمنت أنه ربما هو يكتب مذكراته الشخصية، لينشرها ذات يوم لتعود عليه بربح وفير.

استدعى كبير الأمناء مستشاره الأمين "طارق زيدان" إلى مكتبه، رفض أن يصافحه عندما مد له يده، بدا الكبير غاضباً إلى حد الانفجار، لم يجرؤ طارق على الجلوس إلا بعد إشارة من يد يفوح منها السخط، قال له الكبير بصوت جهوري خشن:

– لقد جلب لنا اقتراحك المشؤوم متاعب لا قبل لنا بها.

– تقصد تعددية الأحزاب؟

– أقصد تعددية الفوضى وعدم الالتزام.. تجرأت بعض الأحزاب وتعددت الخطوط الحمراء..

التراجع الآن سيؤدي إلى فضيحة، سيشكك في ديمقراطيتنا الرشيدة.

فكر طارق قليلاً وقال بهدوء واثق:

– غاب عن سيادتك أن الديمقراطية لها أنياب تعاقب من يخرج على قواعد اللعبة، هدأ الكبير قليلاً، وسأله بلهجة استخفاف تطلب الإيضاح:

– أين هذه الأنياب يا فالح؟

– القوانين.. القوانين تعطي الحق في مسائلة المتجاوزين والمستغلين للتسامح.

– وإذا كانت لا تعطي هذا الحق؟

– يمكن تطويعها بمرونة وذكاء.

– يمكن اتهام المتجاوزين بإثارة الفتنة الطائفية، أو المساس بالوحدة الوطنية، أو تعريض السلام الاجتماعي أو الأمن القومي للخطر.. هذه تجاوزات لا يسمح بها صلب القوانين.. لا تسمح بها الديمقراطية الواعية المستنيرة.

– القوانين أحياناً لا تسمح بوقف كل التجاوزات.
– يمكن إصدار قوانين جديدة وتعديلات دستورية إذا اقتضى الأمر.
– مثل ماذا؟

– العيب في الذات الجمهورية مثلاً.. تعطيل التنمية.. تعريض سمعة البلاد للخطر.. المساس بسمعة الشرفاء وانتهاك الأعراض.
– تصريحات الأحزاب وصحفها تثير البلبلة والشكوك ونهدد الاستقرار.
– دعهم يقولون.. ودعنا نفعل ما هو في الصالح من وجهة نظرنا.

قال الكبير بحيرة وانزعاج:
– كنا في غنى عن هذه الشوشرة.
– الديمقراطية لها ضرائبها ونحن حراس الديمقراطية.
قال الكبير بحزم ووعي:

– يجب أن يكون أيضاً للمعارضة ضرائبها.
– هي موجودة بالتأكيد.. إثارة الفتنة بين صفوفها، وقف نشاط الحزب المشاغب، إغلاق الصحيفة التي تتجاوز الخطوط الحمراء.. هناك تقييد الحريات وترويض العقول بالإيلام وجرح الكرامات.
– يجب إعادة التذكير بالخطوط الحمراء.
– هم يعرفونها أكثر منا.

قال الكبير بإعجاب وارتياح.

– أنت داهية مسيحة.. لا يوجد أخلص منك لمبادئ الحزب النبيلة، سوف تحتل مكاني في يوم من الأيام.

لم يستجب طارق لهذا الطعم الخبيث، وقال بتواضع:

– يكفيني أن أقوم بمهمتي المقدسة في تصحيح مسار التاريخ بفضل عطفك ورعايتك.

أعدت إيناس – على عجل – مائدة الإفطار، كانت في حاجة للذهاب إلى مكتبها لتأخذ أوراق القضية التي ستذهب بها إلى المحكمة لتدافع عن متهم، حظي بحب واحترام عمال الشركة التي يعمل بها، فاشتبه رجال الأمن في ميوله ونواياه، فقاموا بمرقبته وملاحقته.. ثم ألصقوا به تهمة تشكيل خلية إرهابية تعرض الأمن القومي للخطر، وتهز السلام الاجتماعي وتضرب عرش الديمقراطية في الصميم.

انتظرت حضور طارق لمائدة الإفطار بعض الوقت، لم يحضر في موعده المعتاد.. اضطرت للصعود إلى غرفة نومه، وجدته مازال نائماً في سريره على غير العادة، حاولت إيقاظه، تقلب في سريره دون أن يستجيب للنداء، انتابتها الدهشة، لم تتعود أن تراه مريضاً

أومجهداً، جلست عند طرف السرير وأخذت تهزه بطريقة آلية، لم تتعود أن تلاطفه أو تحنو عليه، فهذا غير وارد في قاموسه الدنيوي، ثم إنها لم تجد الصدى الذي يطيب خاطرها، اقترحت أن تستدعي الطبيب الخاص، تنمرت ملامح وجهه فجأة ورفض الاقتراح، كان يدرك أن الطبيب عندما يفحصه يكتب تقريراً خاصاً للجهة المعنية لا يضمن أن يكون في صالحه، عادت ملامح وجهه تشي بحزن عميق يكشف عن حالة اكتئاب مشبعة بالنفور والاشمئزاز والغثيان، سألته "إيناس" إن كان يمكن أن يقول شيئاً يطمئنها أفادها بأنه عانى من أرق حاد طوال ليلة أمس، أدار لها ظهره ليغريها بالإنصراف لمحت قلماً وورقة مكتوب عليها بضعة سطور فوق المائدة الصغيرة المجاورة للسرير ، قربت عينيها وألتهمت السطور التي تقول: "أقوم بمحو ذاكرة أمة.. وأعجز عن محو ذاكرتي الخاصة.. من المؤكد أن الأحوال لم تكن كذلك قبل أن يتولى الحزب الحكم مع أن الأخ الملهم الذي تبنى زمن الحرية والعدل والرخاء منذ عقود هو الذي يرأس الحزب الآن.. لا أتصور أن الأحوال الآن كانت دائماً كذلك، إذا كان شعور المرء بالتقزز منها قوياً إلى هذا الحد.. في الماضي كان الإنسان يحظى ببعض الخلوة ولا يخضع دائماً للمراقبة.. كان لا يزال هناك حب وصداقة.. لم تعد هناك الآن خلوة أو حب أوأصدقاء".

أمسكت "إيناس" برأسها بين كفيها، وقد غامت عيناها أوشكت أن تطلق صرخة مدوية لتفرغ شحنة عارمة من الذهول، تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن طارق هو الآخر يخفي بضعة سنتيميترات مربعة داخل رأسه يخزن فيها غضبه وتمرده واحتجاجه. شعرت بأنها تعرفت الآن على الوجه الآخر الخفي لشخصية طارق، الذي يعمل في قمة السلطة.

سمعت صوته يبلغها بأنه لا يعاني من أي ألم جسدي ليس هناك أكثر من صداع محتمل بسبب الأرق، وربما يذهب إلى عمله بعد ساعة أو ساعتين، دعاها للذهاب إلى عملها، سألها قبل أن تنصرف:

"ما أخبار قضاة المحاكم الآن؟"

أجابته باقتضاب:

- مازال بعضهم يحتكمون لضمائرهم.
- ألا يخشون العقاب؟
- يعتقدون أنهم يقومون بمغامرات محسوبة.
- وماذا لو نالهم العقاب؟
- السجون مملوءة بالمتهورين.. أصحاب الضمائر!
- وكيف سيواصلون حياتهم بعد طردهم من لجنة الحزب؟

– سيطلبون العمل في البلاد الناطقة.

عاد يقول بلهجة بدت فكاهية ساخرة:

– ألا تحميهم جمعيتك لحقوق الإنسان؟

عبرت باب الغرفة وهي تقول بلهجة لا تخلو من تلميح محبط:

– ولا حتى الجمعية العامة للأمم المتحدة.

تمكن الدكتور "وليد فايد" وبعد جهد جهيد من الحصول على موعد لمقابلة المستشار "طارق زيدان"، تأخر طارق في تحديد الموعد حتى يدرس بعناية الملف الشخصي لتفاصيل حياة ونشاط الدكتور وليد وحتى يقرأ بعناية أهم تقارير جمعية حقوق الإنسان التي ترأسها زوجته، والتي يشارك وليد في مجلس إدارتها، ويعتبر المستشار الأول لها، حرص في بداية اللقاء على قراءة سريعة لملامح "طارق" وتكوين انطباع مبدئى، بدا له طارق واعياً بما يفعله.. يعرف ماذا يقصد وكيف ينجز ما يقصد يحتفظ بهدوء لافت، خال من أي انفعال، هدوء من يعرف أكثر من اللازم، وأخطر من اللازم، بدأ وليد بتقديم نفسه، أوقفه طارق بإشارة من يده، نبهه بأنه يعرف عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه، لم يمهله هنيهة، وطلب منه أن يدخل في الموضوع مباشرة قال وليد على سبيل الشعور بالأمان إنه لا يمثل المعارضة الظاهرة أو الخفية وإنه حريص على تقديم

نصائحه للحزب بدافع وطني خالص، لا تشوبه شبهة تآمر أو انحياز، أبدى طارق ارتياحاً واضحاً، عبر عنه بابتسامة باردة وهو يقول: "هذه بداية طيبة.. المهم ألا تكون متعاطفاً مع التأثر الطائش المرتد "همام خاطر" وعصابته. أظنك تتابع حكماء الفكر اللذين يعتبرونه "عدو الشعب" ويتهمونه بالخيانة والتعاون من الأعداء".

علق وليد بوضوح حاسم: "أنا أستاذ أكاديمي لا أعمل بالسياسة وإن لم أكن بعيداً عن هموم الوطن.. أنا أضع دراساتي النفسية والاجتماعية في خدمة الوطن والمواطنين، وهذا في رأيي لا يتعارض من حقوق الإنسان ورسالة الحزب". قال طارق بمزيد من الارتياح: "الحزب يهمه بالتأكيد أن يستفيد من أبحاثك ودراساتك.. يمكنك أن تحدثني الآن عما توصلت إليه في أبحاثك". أسترخى وليد في مقعده وبدا يتحدث:- "كشفت استطلاعات الرأي الأخيرة عن أن ٨٠% من المواطنين يعانون من مرض "الاكتئاب النفسى"، وهذا المرض يؤدي إلى الشعور بعدم الانتماء، والتمركز حول الذات، وفقدان الحماس للعمل وتفشي حالة اللامبالاة .. ومثل هذه الأعراض السلبية تؤدي في النهاية إلى عواقب خطيرة، ليست في صالح الحزب، وإنما تصب في خانة الأعداء، ويستفيد منها أمثال "همام خاطر" وأتباعه المنتشرون في كل مكان". شعر وليد بأن حديثه يلقي اهتماماً واستجابة فأخذ يستفيض ويستفيض، وعندما

توقف عن الاسترسال قال له طارق:- "إن الحزب لم يغفل عن متابعة آمال وهموم رعاياه، فأنشأ المجلس القومي لحقوق الإنسان، الذي يقوم برصد تلك الظواهر التي تتحدث عنها، ويعتبر هذا المجلس شهادة دافعة للأعداء اللذين يشككون في الديمقراطية التي تنعم بها البلاد".

كان "وليد" يدرك تمام الإدراك أنه لا يملك حق النقد أو إبداء المآخذ على هذا المجلس، كان عليه أن يتحرك في طريق دائري فأبدى تأييده لنشاط المجلس، ولكنه عاد يقول إن الجمعيات الخاصة لحقوق الإنسان تعين وتؤازر المجلس القومي لحقوق الإنسان على القيام بمسؤولياته ومهامه الجسيمة، ولا تقلل من شأن رسالته، لم يعترض "طارق" على الفكرة، ولكنه أبدى أن الجمعيات الخاصة كثيراً ما تتجاوز الخطوط الحمراء وتتعدى هامش الديمقراطية وتثير شماتة الأعداء، بما يستوجب لصالح الوطن تعطيل أو تجميد نشاطها.. صالح الوطن هو قدس الأقداس.. الديمقراطية لا تعني الفوضى، الديمقراطية شيء والفوضى شيء آخر، أبدى وليد تفهمه لهذا القول ولكنه أبدى أيضاً أن مسألة الخطوط الحمراء مسألة نسبية تختلف من وجهة نظر لوجهة نظر أخرى، قاطعه طارق بحسم: "هناك إذن من يحدد مسافات الخطوط الحمراء"، صمت وليد قليلاً فعاد طارق يقول: "المطلوب إذن أن تمارس الجمعيات

الخاصة نشاطها بالتنسيق مع المجلس القومي لحقوق الإنسان، ومع أمانة الحزب، وهكذا لا تصبح هناك مشكلة". أدرك "وليد" أن "طارق" يريد واجهة براقة للديمقراطية ولا يسمح بتعددية حقيقية لتبادل الآراء، شعر بأن الحوار وصل إلى طريق مسدود فطلب مهلة للتفكير على أمل اللقاء في جلسة أخرى، واستأذن في الانصراف.

استوقفه طارق ليقول له:

– أنت طبعاً لا تتحدث باسم كل الجمعيات الخاصة لحقوق الإنسان.

– تحدثت عن مفهوم الديمقراطية من ناحية حقوق الإنسان.

– إذا كنت تتحدث عن الجهة التي تعمل أنت مستشاراً لها، فالأمر يختلف.

سأله وليد بدهشة واستغراب:

– كيف؟

أنا أشعر بعد لقائنا بطمأنينة تامة، بأنك تدرك بدقة مسافات الخطوط الحمراء.

– فيم يفيد ذلك؟

– أستطيع أن أعدك الآن وعلى الفور بوقف تجميد نشاط جمعيتك.

أدرك وليد ما يعنيه طارق، فسأله بلهجة مباشرة.

– وما المقابل؟

- أن يكون بيننا اتصال مباشر، بحيث يتم التنسيق وتبادل الرأي.

بدت المساومة واضحة لوليد.. لم يكن مستعداً لتوقيع عقد إذعان. قال بدبلوماسية:

دعني أفكر بعض الوقت.

قال له طارق وهو يودعه عند باب المكتب:

- يمكن للحزب أن يقدم تبرعاً مدهشاً لجمعيتك، يعنيك عن كل التبرعات.

لم يعلق وليد ، فعاد "طارق" يقول له:

- جميع صحف الحزب مفتوحة لمقالاتك، بمكافأت لا بأس بها.

انشغل "وليد" في نشاطه الأكاديمي بالجامعة، ومتابعة مرضاه المتزايدين في عيادته الخاصة، وتسجيل ملاحظاته على انشغال الجماهير الغفيرة بأمور الدين، ونجوم كرة القدم، والبرامج الإباحية المتسيبة في القنوات الفضائية والمقالات العديدة التي تناقش شرعية الحجاب وفوائد البنوك وتأشيرات الحج وفساد رغيف الخبز، إلى أن حل إجتماع مجلس إدارة جميعة "الكرامة" لحقوق الإنسان، تبادل "وليد" و "إيناس" التهنئة بمناسبة صدور قرار وقف تجميد نشاط الجمعية، فهمت إيناس بأن لقاء وليد بطارق كان السبب في صدور هذا القرار.

حذرها وليد من التمادي في التفاؤل، حيث كان القرار جزءاً من صفقة قدم من خلالها طارق شروطه، وطلب الكثير من التنازلات والإغراءات لتفريغ القرار من مضمونه.. الخطوط الحمراء، الاستئذان قبل التصريح، التغاضي عما يمس الكراسي الحساسة.. إلخ.

حانت الفرصة لتستفسر إيناس عن مدي فهم وليد لشخصية طارق، قال لها وهو جالس أمام مكتبها بعد انتهاء الاجتماع:

– طارق شخص نادر الذكاء.. يحكم عقله في غياب أي شعور إنساني أو شخصي، ينهمك في عمله انهماكاً ينسى معه نفسه.. يشعر بنشوى عارمة وهو يمارس فن غسيل العقول.. يشعر سامعه بأنه يكذب ومع ذلك يعتقد بصحة ما يقول.. يمكن أن يستخدم المنطق ضد المنطق.. يعشق هواية التزييف لدرجة الكمال، يملك قدرة فائقة على التدمير المخطط للعقول، قد تقوده يوما ما إلى حالة من الجنون المخطط.. لا ينفعل، لا يملك ذرة من المشاعر والأحاسيس التي تعبر عن أي ارتباط أو انتماء لإنسان أو عقيدة .

بدا وليد كأنه يقرأ في كتاب مفتوح بحكم تخصصه، تحكمت إيناس في دهشتها وذهولها بصعوبة، تذكرت القليل مما قراته في مذكرات طارق، قالت بحيرة وتردد:

– ألم تلاحظ وجهاً خفياً آخر لشخصيته؟

– هذا يحتاج لمقابلات أخرى ومعلومات كافية؟

– ألا يمكن أن يكون له وجه آخر يخفيه؟

– هذا النوع من البشر يملك من البراعة ما يمكنه من إخفاء ما لا يريد التصريح به.

صمتت قليلاً، عادت تقول بثقة:

– وإذا قلت لك بأنه يملك وجهاً آخر يخفيه!

رمقها وليد بدهشة واستغراب، حكت له عما قرأته بالصدفة في ورقة مذكرات خاصة توحي بأنه يكتب مذكرات ويخفيها داخل خزينة في غرفة نومه، ويغطي الخزينة بلوحة تشكيلية للفنان الشعبي "محمد محمود خليل".

فكر وليد قليلاً، عاد يقول وكأنه يكلم نفسه:

– هذا الإزدواج ينذر بانقلاب مفاجئ وغير متوقع، إذا ما تعرض طارق لحادث جسيم يدفعه لتدمير الشخصية المعلنة واستظهار الشخصية الخفية التي تقوده إلى تصادم لا مفر منه مع النظام الذي يدين له الآن بالولاء التام.

حان موعد الاجتماع الدوري بين طارق زيدان وجودت سليم (كبير الأمناء)، بدا جودت غاضباً يتحكم في ضيقه بصعوبة، لم ينتظر أن يقدم طارق ما في جعبته من أفكار جديدة، رمقه بنظرة

مؤنبة وقال بلهجة ساخطة: نشاط الأحزاب المعارضة لا يبشر بأي خير.

سأله طارق باستدراج: أي الأحزاب يزعجك؟

قال جودت بطريقة غير مباشرة: لست منزعجاً من الحزب الاشتراكي.. انتحرت الاشتراكية منذ زمن.. أصبحت فكرة سيئة السمعة.. نجحنا في إفساد شعاراتها.. فنحتوي غضب العمال ببعض المكاسب المحدودة.

سأله طارق وهو يتوقع ما يفكر فيه: وماذا عن الحزب الديمقراطي الحر؟

– يطالب بفصل حقيقي بين السلطات الثلاث (التنفيذية، والتشريعية، والقضاء).. أفكاره تجد صدى كبيراً بين الناس.. يغذيها أتباع الثائر المتمرد "همام خاطر" الذي يعمل في الظلام، ونعجز عن معرفة مكانه والإمساك به، نحن نسميه عدو الشعب وأتباعه يسمونه صديق المظلومين.. لم تفلح دعايتنا ضده في القضاء على نفوذه وأفكاره.

عاد طارق يسأله بمزيد من الهدوء: وماذا عن حزب المساواة والإخاء؟

– يطالب بتطبيق الشريعة وعودة الخلافة.. يحظى بقاعدة عريضة من المتدينين..

نحن شعب متدين منذ آلاف السنين، والدين سلاح تصعب مقاومته.

عاد "جودت" يقول لطارق بتوبيخ وتأنيب:

– ستندم في القريب على إنك اقترحت فكرة تعددية الأحزاب.. ربما تدفع ثمن هذه الفكرة الشريرة في القريب العاجل.

قال طارق بثقة الواثق من تدبيره وتخطيطه:

– هذه الأحزاب تعتمد على المعونة المقدمة لها ولا يسمح لها بمصدر آخر للتمويل.. هى تحت الرقابة، وليس لها حق عقد الاجتماعات.. هى لا تملك أكثر من حق إصدار صحيفة، يقرأها بضعة آلاف.. ثم إننا – عند الخطر – نملك حق تجميد الحزب وصحيفته بحجج كثيرة، أهمها تعريض السلام الاجتماعي للخطر، وتهديد الأمن القومي والاستقرار.

– ما كان أغنانا عن وجع الدماغ هذا!

– لا مفر من وجع الدماغ تحت شعار الديمقراطية.

– أنت تعرف أنني أكره كلمة "ديمقراطية" هى سلاح ذو حدين.

– في يدنا أن نجعلها ذات حد واحد.

قال جدوت بحسم قاطع:

– يجب إذن أن تكون للديمقراطية أنياب.

– لست معك في ذلك.. هذا ضد المرحلة، العالم كله الآن يطالب بالديمقراطية بعد تراجع الاشتراكية.

سأله جودت باستغراب ودهشة:

– ماذا تقصد؟ فيم تفكر؟

– المطلوب في هذه الحقبة هو مواجهة الديمقراطية بمزيد من الديمقراطية.

– أعيد عليك السؤال.. ماذ تقصد؟

– أقصد السماح بحق إصدار الصحف المستقلة.

سأله جودت بغضب واستنكار:

– هل تريد مزيداً من المتاعب؟

– أريد مزيداً من الحلول.

– أية حلول هذه؟

– إضعاف تأثير الصحف الحزبية.. الكثرة الزائدة عن الحد للمفاهيم والأفكار.. نحن نفعل ما نريد.. والصحف تقول ما تريد.. عرض الأفكار المكبوته لضوء النهار.. طرح نفس شعارات "همام خاطر" (عدو الشعب) من خلال الصحف المستقلة بحيث تفقد بريقها وجاذبيتها.. إقناع القوى الكبرى في العالم بأننا نموذج رائع لحرية التعبير وتعددية الرأي والأفكار، تفريغ شحنات الغضب المحبوسة لدى الجماهير.

– من المؤكد أن هذه الصحف، التي نسميها مستقلة، سوف تتعرض لفضائح رموز الحزب والسلطة، سوف يترنح شعار النزاهة والشفافية.. سوف ينقلب علينا من ينفضح أمرهم وهم كثيرون كما تعرف.

– سوف نحمي المفضوحين ونبقيهم تحت حد رحمتنا، وهكذا نضمن طاعتهم وولاءهم.

عاد طارق يقول لاستكمال أبعاد نظريته:

– ثم إننا سنملك الحق في التخلص ممن نريد التخلص منهم.. التخلص من بعض الأتباع الفاسدين باسم الشفافية.

شرد جودت قليلاً، عاد يقول بحيرة وتردد:

– هذه لعبة خطيرة، لا تضمن كل نتائجها.

– ليس عندنا قانون حاسم يسمح بحق الحصول على المعلومات من مصادرها، وحق تداولها.

ستظل المعلومات حبيسة في أدراجنا.. لن يعلن منها إلا ما نسمح بالإفراج عنه.

– وماذا عن ثورة الاتصالات وتنوع مصادر المعلومات؟.. نحن في زمن يصعب فيه حبس كل الأسرار، الأعداء سيتكلفون بتمرير المعلومات الحساسة.

– نحن في النهاية نملك شرعية الاتهام وشرعية إبراء الذمة، القضاء يرعى رسالتنا، نحن نعين وزير العدل ونعزله إذا استدعى الأمر.. لسنا ملزمين بتنفيذ أحكام بعض القضاة المارقين.

بدا جودت متجاوباً بشكل ملحوظ، وهو يقاوم تحفظاته.

– المهم هو الاطمئنان إلى سلامة أقفال خزائن المعلومات.

توسلت إيناس لطارق أن يمنحها ساعة واحدة من وقته لقضاء جلسة خاصة في كازينو "البجعة" في حديقة الحيوان، لم يجد في نفسه حافزاً واحد يغريه بقبول الدعوة، إعتبر دعوتها من قبيل الهوس الديماجوجي، الذي ينتابها من وقت لآخر، لم يتخيل أنه قادر على مبادلتها مشاعر حب ومودة، تثير في نفسه إحساساً بالسخف والسذاجة وقلة القيمة، لم يجد مفراً هذه المرة من الاستجابة لدعوة إيناس، منعاً من حدوث قطيعة تضر بمهام منصبه.

جلس بجوارها أمام البحيرة وهو شارد في بنود جدول أعمال لجنة "تصحيح التاريخ" التي يرأسها وسوف يجتمع بها بعد ساعات لاستصدار قرارات هامة، أخذ يراقبها بضيق ونفور، وهي تلقي بعض اللقيمات للبجع السابح في البحيرة بسعادة وانشراح، لا يعرف من أي جب تحصل عليها، واجهته إيناس بدا أنها تتهيأ لحديث قلب مفتوح وبدأت تنطلق في حديث تلقائي على السجية:

"اسمع يا طارق.. أنت تعرف أننا تزوجنا عن حب وتفاهم منذ زمن.. كان الزمن غير الزمن الحالي.. كنا نعرف معنى الخلوة والمحبة والصداقة، معنى القبلة والحضن الدافئ.. معنى التآزر العائلي بتلقائية محببة.. لم تكن هناك رقابة وأجهزة تسجيل.. لم يكن الأخ يفتن على أخيه.. لم يكن الابن يشي بأبيه.. كان للطعام مذاق جميل.. كان الناس يتعانقون بالنظرات في القطارات والمساكن والأتوبيسات.

ها تذكر شيئاً من أغانينا الحلوة القديمة؟ لم يكن هناك من يمنع أحداً من التعبير عن رأيه مهما كان الرأي.. من يمنع أحداً من الإيمان بالله.. من يمنع أحداً من حق طلب العدل والمساواة.. من يمنع أحداً من حق انتقاد السلطة وابتزاز الغير".

أخذت إيناس تذكره بحلاوة أيام الماضي المنصرم الجميل، تقارن بين الجمال الغابر وبشاعة ألوان الذعر والقهر الراهن، حاولت دون جدوى أن تقرأ أي رد فعل لكلامها على ملامح طارق، بدت ملامحه جامدة متيبسة كأنها تقاطيع تمثال حجري أصم أحياناً ما تبدو على ملامحه بارقة دهشة واستغراب، تشي بأنه لا يفهم معنى ما يقال، يبدو كأنه يعيش داخل عالم سري مغلق، وإيناس تعيش في عالم آخر لا يربطه به أية روابط.

عادت إيناس تواصل حديثها، لعلها توقظ مركز الانفعال الذي بدا لها أنه أصيب بشلل تام، ظل طارق صامتاً أثناء حديثها المستطرد الطويل لم يبد عليه أنه يعاني من شعور بالملل والفتور، كان يراها ويستمع إليها على شاشة ميكروسكوبية صغيرة.. متناهية الصغر.. داخل بضعة سنتيميترات مربعة داخل عقله، هي ما نجح في الاحتفاظ بها ليمارس إرادة التفكير بحرية، تضمن لها استمرارية الحياة وتحفظ له بضع ذرات من بقايا إنسانية، كانت تمثل الوجه الآخر من الصورة.. الوجه الذي اختفى في جب أعماقه، ولم يعد يملك شجاعة الإعلان عنه، أو مجرد التفكير فيه، فخاف أن تلتقطه أجهزة التسمع والتصنت المنتشرة داخل نفوس الجميع.. وتحت المقاعد والأسرة وخلف الصور المعلقة على الحوائط.. وتحت الملابس وداخل الجدران، كان يحمل لها بعضاً وكراهية منقطعة النظير، تراكمت عبر سنين الكبت والقهر الطويل، لما تمثله من حرية حقيقية وقدرة غامضة المصدر على الحب، وطاقة هائلة في التعبير عن الرفض والاحتجاج، رغم أن الظروف لم تسمح لها بتحويل الحرية إلى إرادة تغيير وإصلاح، كانت الوجه الذي عجز عن أن يكونه، والمرآة التي تكشف عجزاً لم يعد مستعداً لمواجهته أو الاعتراف به، بل نجح في تحويله إلى معجزة نجاح شخصي، وأداء مهني لا يقل في براعته عن أداء "ميكيافيلى" في كتابه "الأمير".

كان لابد أن يقول طارق شيئاً، وهو ينظر في ساعته، ليوحي بإنتهاء هذا اللقاء الممل البغيض من وجهة نظره، كان لابد أن يقول كلاماً حذراً محسوباً – مجرد كلام – لعلمه بأن كل كلمة قيلت في هذا الاجتماع وسوف تقال يتم تسجيلها بشكل أو بآخر.

"اسمعيني يا إيناس.. لقد سمعتك باهتمام.. أعترف لك بأنني لم أفهم معنى ومغزى ما سمعته.. تتحدثين عن الماضي الذي لا يصب في الحاضر ولا يصنع المستقبل.. تتحدثين عن الحب وتعلمين أنه ليس وارداً في برنامج الحزب.. تتحدثين عن أغاني العشق والغرام في زمن غابر ونحن نعيش في زمن حضارة السوق.. حضارة السوبر ماركت، والبوتيكات، والمنتجعات، والفنادق، والفيلات والقصور، والسيارات، والطائرات الخاصة..

تطالبين بحقوق الإنسان في الحرية والتعبير وتداول المعلومات ومنع التعذيب.. حقوق الإنسان الآن هي حرية المستهلك في التملك والاقتناء وإشباع الحاجات.. من لا يؤمن بسحر السوق فليس منا.. أصحاب النفوذ يضعون قواعدهم في كل مكان.. لم تعد للدول حدود وحكومات.. توجد الآن حكومة عالمية يرأسها إله السوق.. توجد الآن مينافيزيتا السوق التي تعتمد قيم الربح والخسارة.. جمعيات حقوق الإنسان تخلفت عن العصر الذي نعيش

فيه.. مطلوب منك أن تراجعي برنامج جمعيتك، ليصبح في صالح المستهلك، وليس في صالح المواطن المعزول والمخنوق داخل حدود ضيقة، يبحث عن الحرية والعدل والمساواة، بعيداً عن رعاية ورحمة إله السوق.. قيم وعقائد الماشي تعطل مسيرة التاريخ.. رسالتنا الإلهية الآن تكمن في عملية تصحيح التاريخ.. دعينا نشترك في عملية تصحيح التاريخ.. دعينا ننعم بمنجزات التكنولوجيا والنانوتكنولوجي".

لم تنجح إيناس في إخفاء دهشتها وذهولها، طرح طارق أفكاراً كثيرة تحتاج إلى أخذ ورد.. تحتاج إلى مراجعة وتدقيق، تهيأت لتقول ما عندها، منصور أن هناك مزيداً من الوقت، لولا أن نهض طارق، ووضع "الموبايل"في جيبه، وأمسك بمفتاح السيارة، ودعاها للنهوض بدكتاتورية لا تقبل العصيان، قالت له وهي تعلق حقيبتها على كتفها:

- لقد سمتعك باهتمام.. أفكارك هذه تحتاج إلى مراجعة ونقاش.. فيها ما يمكن قبوله، وما لا يمكن التسليم به.. أتمنى أن يجمعنا لقاء آخر، تسمعني فيه بعد ما سمعتك.

- هل تفكرين في مراجعة برنامج جميعتك لحقوق الإنسان؟
- أعدك بذلك.. إذا فكرت أنت في مراجعة برنامج الحزب.

كان طارق يحرص دائماً على العودة إلى مسكنه بعد انتصاف الليل، حتى يطمئن إلى ذهاب "إيناس" إلى فراشها، لم يكن عنده ما يقول لها، أو تقبل نظراتها المحتجة التي تضعه في صراع مع نفسه، يؤجج مشاعر الغضب والعدوانية حيالها، عدوانية هي ليست مسؤولة عنها ولا تملك التحكم فيها كان يغيظه منها احتفاظها بمصداقية مع النفس، يفتقدها مع نفسه، وتمنحها سلاماً شبيهاً بسلام الأنبياء..

كان لعدوانيته نحوها وجه آخر، فهي تحمله مسؤولية المخاطر المتوقعة التي يمكن أن يتعرض لها ولداها – هشام و أيمن – بسبب أنشطة غير مأمونة العواقب، فهشام مهندس يعمل في تجارة الأراضي وإنشاء المدن الجديدة والمنتجعات السياحية، ورغم أنه في الثلاثينيات من العمر، إلا أنه يقترب من حيازة لقب "ملياردير"، ويملك شبكة علاقات رسمية ومالية وإعلامية، تجاوزت حدود الوطن، وتعاظمت بفضل نفوذ أبيه، الذي يدعو لنظرية "سحر السوق" التي تؤسس لحكومة عالمية يرأسها إله السوق، وكثيراً ما كانت إيناس تذّكر طارق بالمصير المخيف الذي ينتظر هشام بسبب صفقاته المشبوهة وتحالفاته المريبة وتجاوزاته القانونية، كانت تذّكر طارق باحتمال تعرض هشام لغضب السلطة عليه وهو وارد واحتمال سقوطه ضحية المنافسات الوحشية في ملعب السوق.

كانت إيناس تذكّره أيضاً بالمصير البائس لابنهما السجين "أيمن"، بعد أن قادته احباطات كثيرة في الواقع المعاش للرجوع إلى إله السموات والأرض، من منطلق رفض "إله السوق"، فوقع ضحية تيار ديني متشدد، يبث أفكاره تحت الأرض، وداخل كهوف الجبال في الصحاري والوديان، وتتحول هذه الأفكار إلى أعمال إرهابية فوق سطح الأرض تهدد ناطحات السحاب والسفن والطائرات والمعسكرات متعددة الجنسيات، كانت تذكّره بأن "أيمن" راح ضحية تفكك الأسرة وغيابها عن رعايته وتوجيهه وفق منظومة قيم تحميه من شرور الإرهاب، وتحميه من غياب منظومة قيم وطنية رشيدة.

لم يكن في مقدور طارق أن يتناسى ما يسمعه من إيناس من وقت لآخر كأنما تترجاه أن يستعيد ذكرى حب قديم، عفا عليه الزمن، بعد أن ولى زمن المحبة والوفاء والشعور بالأمان، وحل محله زمن أجهزة التسجيل ورقابة الأقمار الصناعية ومحو الذاكرة والمقايضة على ممارسة الإرادة وحرية التعبير، بدت في نظره كأنما تحاول أن توقظ ضميره، أو تعيد بناء ضمير جديد، ولم تعرف أنه قد حذف هذا المصطلح – مصطلح الضمير– من قاموس اللغة الجديدة لبرنامج الحزب، اللغة التي تتكلف لجنة تصحيح التاريخ – التي يرأسها – بتخليصها من الكلمات القديمة المنافية للعقل

والمنطق مثل كلمات: الضمير، الشرف، العدل، الأخلاق.. تلك الكلمات المعادية لمبادئ النظام، حتى إن بعض الكلمات القديمة أصبحت تحتاج إلى شرح وتفسير، فكلمة "صالح" لا تعني غير وصف ما يقوم به كبير أمناء الحزب من أعمال.

وبرغم ضيقه الشديد من أفكار إيناس، فقد كانت هذه الأفكار تحرك في أعماقه بقايا ضمير قديم، لم ينجح في استئصاله من بقعة صغيرة في قاع عقله، كانت أفكارها بمثابة مرآة تعكس تشوهات في وجهه لا يحب أن يراها، تشوهات يتهرب منها بطريقتين: أن يسجلها في مذكراته الليلية، حيث يفرغ شحنة غضبه المعطلة لمهام منصبه.. وأن يتمنى في الوقت نفسه أن يستيقظ ذات صباح فيكتشف أن إيناس قد اختفت من حياته بموت سريري أو بحادث تصادم أو باغتيال مدبر، لم يكن قادراً على إحياء حب قديم، مثلما لم يكن قادراً على تصفيتها جسدياً مخافة الشبهات، مثلما لم يكن قادراً على تطليقها مخافة الاستجواب.. استجواب لم يملك خلاله شجاعة البوح بسبب رغبته في الخلاص منها.

حرص هذه الليلة على العودة إلى مسكنه قرابة الثانية صباحاً، حتى يضمن أن إيناس تغط في نوم عميق، كان قد قرر أن يفرج عن بكتابة بضع صفحات من مذكراته الخاصة، سمع صوت شخيرها

وهو يمر أمام حجرتها؛ فشعر بالسكينة والاطمئنان، لم يشأ أن يغير ملابسه حتى لا تتبدد شحنته الانفعالية، جلس على طرف السرير، جذب المنضدة أمامه برفق، أخرج من درجها الأوراق والقلم، استغرق في الكتابة كأنما يعيش في دنيا غير الدنيا":

"لا مفر من تسجيل ما أحس به حتى لا أصاب الجنون.. مشكلتي أنني أعرف أكثر من اللازم وأخطر من اللازم وأنني مراقب بشدة لأنني أمثل رأس النظام، مهمتي أن أحرر الناس من الشعور بالحرية.. أحرر عقولهم من الحشائش الضارة.. الضارة بهم والضارة بالنظام، كيف لا أشعر بالعذاب وأنا صانع شعارات الحزب الثلاث:"الحرب هي السلام" و "الحرية هي العبودية" و"الجهل هو القوة".. لكم أكره هذه الشعارات.. وصفني كبير الأمناء بأنني أملك عبقرية شيطان عندما ابتدعت مفردات لغة جديدة تناسب أهداف الحزب، خفض الكلمات بما يغيب معناها.. إلغاء الكلمات المثيرة للجدل التفكير.. كتابة الأسماء بالحروف حتى تفقد عناها.. منع التفكير بعمق في أي موضوع.. ابتداع نظرية التفكير المزدوج (الكذب المتعمد مع الاعتقاد بصحة ما يقال).. تصحيح التاريخ بإزالة السجلات أو تزييفها.. إعادة تسمية الصور والتماثيل والشوارع، بما يمحو الماضي ولا يوجد غير الحاضر.. ابتداع الشعارات التي تؤكد أن الحزب دائماً على صواب.. عندما يتضح

كذب معلومة أو بيان فلا مفر من ابتداع كذبة أخرى تحل محل الكذبة الأولى.. تزييف يصل إلى حد الكمال.. مطلوب إثارة الغرائز وتغييب الفكر، الشرطة تتغاضى عن انحرافات العامة تحت شعار: لا مساس بحرية العامة والحيوانات.. الحزب يقول إن الديمقراطية مستحيلة ويدعي أنه حارسها.. الحزب يسخر من الأخلاق ويدعي أنه يحمل لواءها.. نحن نمحو التاريخ ومع ذلك نختار من الماضي ما يناسبنا.. لا أظن أن "همام خاطر" هو عدو الشعب، متى تنتهي هذه المهزلة؟ هل تنتهي بعودة "همام خاطر"، أم بظهور "همام خاطر" جديد.. مشكلتي أنني قطعت طريقاً لا عودة منه.. العودة تحتاج إلى معجزة.. مطلوب مني أن أتواصل مهاراتي في التزييف أوأواجه عقوبة الإعدام".

أدركت "إيناس" أن طارق عندما يعود إلى البيت بعد منتصف الليل، ويظل نور غرفته مضاء حتى الثالثة صباحاً، ولا يقوى على تناول إفطاره معها، أنه يقوم في مثل هذه الليالي بكتابة بضع صفحات من مذكراته، وأنه ربما بسبب الإرهاق لا يقوى على وضع الصفحات داخل الخزينة إلا بعد أن يستيقظ في الصباح.

هكذا تعودت في مثل هذه الليالي أن تدخل عليه في غرفته في الصباح لتطمئن على صحته وتدعوه إلى الإفطار كان هذا هو ما

تقصده في الظاهر، وكان هناك أيضاً ما تقصده في الباطن، لقد أمنت الإطلاع على عالمه السري، الذي يتقيأه فوق الورق، ثم يخفيه داخل خزينته السرية، هكذا قرأت في الصباح ما كتبه في الليلة السابقة، ارتعشت يداها وزاغت عيناها وهي تقرأ المكتوب، كاد يصيبها الدوار وهي تقول في نفسها بذهول: هذا طارق آخر غير طارق الذي أعرفه.. شهادة شاهد عيان على غياب حقوق الإنسان.

تمنت لو أنها تستطيع تصوير هذه المذكرات، لتعيد قراءتها بإمعان وتحلل مافيها من اعترافات وأفكار، وقد تحتاج إلى استخدامها في يوم من الأيام، أدركت أنها تريد المستحيل.

يستحيل أن تتحصل على مفتاح الخزينة ورقمها السري، ثم ماذا لو وقعت هذه الأوراق في يد عصافير الأمن، اللذين يفوقون أعداد النمل ويتعذر كشفهم. أخذ الدكتور "وليد فايد" يجمع أوراقه بعد أن انتهي مجلس إدارة جمعية "الكرامة" لحقوق الإنسان من مناقشة جدول الأعمال الذي لم يسفر عن أي قرارات حاسمة تنتقد أو تدين ما يتنافى مع حقوق الإنسان، برغم أن معظم ما يجري في الواقع لا يتمشى مع حقوق الإنسان، كان مجلس الإدارة يعي تمام الوعي أنه لا يستطيع أن ينتقد أو يدين إلا ما يسمح الحزب بانتقاده من منطلق صراعات شخصية أو تصفيه حسابات أو ضرب مراكز

قوة تجاوزت الخط الأحمر، ومع ذلك فقد كان وليد وإيناس يعيشان على أمل أن تتغير الأوضاع، فيقومون بفضح المستور المخزون داخل الضمائر والعقول.

اعترضت إيناس الدكتور وليد وهو خارج من غرفة الاجتماع، دعته للرحيل معها في سيارتها الخاصة، فهم وليد أن عندها ما تقوله، ركبا السيارة، وانطلقا بها على طريق كورنيش النهر دون وجهة محددة، قالت له وهي تتفادى زحام الطريق: أردت أن أتحدث إليك بعيداً عن أجهزة التسجيل داخل الغرف والمقرات، قال لها وليد بظُرف: وما أدراك أن سيارتك لا تخفي في بطنها جهازاً للتسجيل؟!
قال بتهور: عندي ما أريد أن أبوح به لك وليكن ما يكون قال وليد بصراحة:

– وأنا عندي ما أريد أن أبلغك به.
– قل ما عندك أولاً.
– جاءني من نصحني بتغيير اسم الجمعية لتجنب المتاعب والمضايقات.
– وما أهمية الاسم؟
– قال لي الناصح إن كلمة "كرامة" (اسم الجمعية) لا تدخل في مفردات اللغة الجديدة للحزب الكلمة، تثير الجدل والتفكير بعمق.. مطلوب اسم يحمل معني رجعياً، ولا يذكر بالعهد البائد.

قالت إيناس بدهشة وعجب:

– هذا يلمّح إلى ما قرأته في مذكرات طارق الليلة الماضية.. تحدث عن شعارات الحزب ومفرادات اللغة الجديدة وتصحيح التاريخ، كلام لا يقوله أشد المعارضين في المنفى أو السجن.

أخذت تحكي له ملخص ما قرأته، فعاد وليد يقول بقلق:

– أخشى أن يحدث له انقلاب غير متوقع.

– متى يحدث هذا الانقلاب وهو صاحب فلسفة محو الذاكرة وتدمير العقول؟

– عندما يقرر تدمير الشخصية المعلنة، واستظهار الشخصية الخفية.

– ومتى يقرر ذلك؟

– عندما يقرر تدمير ذاته، تحت وطأة صراع نفسي حاد، لا يقوى على مقاومته.

– ومتى يتفجر ذلك الصراع داخله؟

– عندما يحدث في الواقع ما يكسر في داخله معادلة سلام كاذب.

استغرقت طويلاً في التفكير إلى أن سألها وليد فيم تفكر، فقالت بحيرة وضيق:

– كلنا نعيش في سلام كاذب تحت شعار الاستقرار وتجنب الصدام.. سلام لا يختلف عن سلام الموتى.. سلام يرسخ الأمر

الواقع لصالح المستفيد.. نحن مثلا نتبنى جمعية حقوق إنسان، ولا نملك شجاعة الكشف عن مخالفات وتجاوزات حقوق الإنسان.
قال وليد بلهجة توافقية:

- ربما نملك- في يوم ما - الحديث عن الانحرافات بأثر رجعي.

لم يجد "طارق زيدان" مفراً من الاتصال بابنه الملياردير "هشام" لترتيب اجتماع معه بعيداً عن الأنظار وأجهزة الرقابة، كان عنده ما يريد أن ينبه طارق له من مخاطر تحيط به وبمستقبله، تردد هشام كثيراً في الاستجابة لرغبة أبيه، لم يتصور أن عنده ما يستحق الاهتمام به، بدأ هشام حياته العملية كمهندس مقاولات ناجح، وسرعان ما ذاع صيته وكون ثروة لا بأس بها، ثم أنشأ شركة مقاولات، استطاعت أن تنافس كبرى الشركات المثيلة وحصل على عقود مغرية في إنشاءات المدن الجديدة، واستطاع أن يشتري مساحات ضخمة من أراضي الدولة بثمن زهيد، وتمكن من حيازة شركات عديدة متنوعة في مجال الصناعات الإلكترونية والملبوسات والمواد الغذائية، نجح في تكوين شبكة مصالح داخل البلاد وخارجها، مثلما نجح في خلق شبكة علاقات مع كبار المسئولين والنافذين والواصلين، وكان لأبيه فضل كبير في هذا النجاح.

اقترح "هشام" على أبيه أن يصحبه في "اللنش" الذي يمكله عبر رحلة نيلية تستغرق زمن المقابلة، وافق "طارق" بلا تردد، كان مطمئناً إلى أن الشركة الأمنية الخاصة التي أنشأها هشام لتحمي مؤسساته وأنشطته سوف تقوم بتأمين اللقاء، هكذا جلس الأب بجوار ابنه الذي إحتل مقعد قيادة اللنش، وأخذ يقوده بحذق ومهارة وسط هدير المياه، حيث تصطف الفنادق (خمسة نجوم فما فوق) على جانبي النهر أشكالاً وألواناً (شيراتون، مريديان، الحياة، فورسيزون، سوفيتيل، هيلتون، إلخ).

طال الصمت بينهما بعض الوقت، قطعه هشام بقوله: "كلي آذان". اعتدل الأب في مقعده وقال: "وصلتني معلومات تفيد بأن هناك مخاطر كثيرة تهدد مستقبلك وتسعى لتصفيتك وإخراجك من ملعب سلطة الأعمال، أصبحت تمثل خطراً على غرمائك ومنافسيك.. هناك من يرى أنك ترتب لاحتكار السوق والامساك بكل خيوط السلطة، وربما تفكر فيما هو أبعد من ذلك أصبح كبير الأمناء (جودت سليم) يخشى على نفسه من نفوذك في دوائر الحزب والحكومة".

قال هشام باستخفاف ولامبالاة:

– أنا عضو في أمانة الحزب، وعضو في البرلمان وأقدم خدماتي المعلنة والسرية لكل من يهمهم الأمر.. علاقاتي قوية بالقوى الخارجية التي يعتمد عليها.. كيف يمكن تصفيتي بعد ما وصلت إليه؟!

– أنا أدرى بقواعد اللعبة أكثر من درايتك باعتباري كبير مهندسي النظام.. جودت سليم ليس له أصدقاء دائمون.. هو يعرف كيف يطيح بأعز الأصدقاء.. يعرف كيف يمسك بكل الخيوط بيد من حديد.

– لا أظن أنه يستطيع أن يستبعدني من الملعب.. لا يستطيع أن يستغنى عما أقدمه، وهو كثير ومكلف.

– ولكنه يستطيع أن يصطادك من نقاط ضعفك.

– لا يوجد من يخلو ملفه من فضائح انتهاكات ومخالفات.

– هذا سلاح يستخدمه كبير الأمناء في الوقت المناسب، ضد من يكبر أكثر من اللازم، ويتجاوز الحدود المرسومة، ويحين توقيت حزمه لحساب أطراف يتعذر رفض ضغوطها.

قال هشام بغرور كاسخ:

– أنا "الجوكر" الذي لا يمكن حرقه.. أنا تلميذك النجيب.. أنا التلميذ الذي فاق أستاذه لست في حاجة إلى نصائحك الآن..

وصلت إلى القمة بفضل نصائحك وتوجيهاتك في أول الطريق.. هل تتراجع الآن عن هذه النصائح بنصائح مضادة.. لم أعد مستعداً للتنازل عن مكاسبي.

قال طارق لابنه في إشفاق:

– أنا أحميك من صقور جارحة، لا تعي بشاعة مخالبها.. قرر الحزب الاستغناء عن خدماتك.. لم تعد مرغوباً من النظام.

سأله هشام بحيرة:

– كيف عرفت ذلك؟

– هناك من أرسل لي ملفك السري.. به فضائح ومخالفات كثيرة.. استيلاء على أراضي الدولة تهرُب من الضرائب والجمارك.. تهريب أموال للخارج.. مغامرات نسائية ترتب عليها إنشاء أسرار خطيرة.. هناك من وشى بك، وهو مستعد أن يقدم أضعاف خدماتك.

سأله هشام بدهشة واستغراب:

– وأنت.. ألا تستطيع أن تحميني؟ أن يراعوا خاطرك.. أن يخشوا غضبك؟

قال طارق بانكسار:

– لا أستطيع حتى أن أحمي نفسي:

– لم أرك – في يوم من الأيام – ضعيفاً إلى هذا الحد.

– لست ضعيفاً كما قد تتصور.. أنا أفهم قواعد. من يفهم القواعد يكون مستعداً لتقبل النتائج.. أن يكون مرة أحد صناع القرار، وأن يكون مرة أخرى أحد الضحايا.

– هل تخاف على نفسك من تصفيتي؟

– ليس عندهم بديل حتى الآن.. سيتم تصفيتي عندما يجدون البديل.. أنا أخاف عليك من أذاهم.. لست من أنصار مدرسة العواطف، ولكنني أقع الآن فريسة موقف عاطفي حيالك.. هذه نقطة ضعفي إذا أردت أن تعتبرني ضعيفاً.

– عندي من الملفات السرية ما يثير الرعب والفزع.

– ربما يحدث ما يفزعك قبل أن تقوم بفتحها .

فكر هشام طويلاً قبل أن يقول:

– بم تنصحني إذن؟

– صفقة خاسرة لصالح كبير الأمناء.

– أو؟

– الهرب بأموالك للخارج.

استدار هشام باللنش عائداً وهو يقول:

– دعني أفكر.

حان موعد الاجتماع الدوري.. هكذا اتجه "طارق" إلى مكتب "كبير الأمناء"، وهو يحمل داخل ملف الاجتماع إنجازاته الأخيرة

لصالح تجميد الأوضاع لضمان دوام الحال، من خلال تفكيك ذاكرة الأمة، وتمييع التجربة الوطنية التي غرس بذورها "همام خاطر"، لتحقيق مشروع نهضة ولم يكتب لها النجاح، ولم يعد هناك مفر من إزاحة شعارات مثيرة للقلاقل والفتن من وجهة نظر الحزب، أو إعادة تفسيرها بما يفقدها معناها الأصلي، أو إحلال شعارات جديدة تتصف بالغموض، وتقدم ما هو أقل من نصف الحقيقة.

كان "جودت سليم" يحب أن يستمع أكثر مما يتكلم، تمكنت منه هذه العادة منذ أن كان يعمل في المباحث الجنائية وجهاز الأمن العام.. وضع نفسه في حالة استماع وهو يسأل طارق باقتضاب: ماذا عندك لتقوله اليوم؟ قرر طارق أن يواصل معركته الباسلة لتصحيح مفهوم المصطلحات المنبوذة وتفريغها من الآثار الضارة، فكلمة الاشتراكية التي تعني الحقد الطبقي تم استبدالها بمصطلح الوفاق الاجتماعي وتم تعريف الإسلام السياسي بمفهوم العنف والإرهاب، قاطعه كبير الأمناء وقال بقلق زائد:

– الفتن الطائفية والمذهبية تجاوزت الحد وتنذر باضطرابات لا تحمد عقباها.

– أسباب الفتن تصعب معالجتها الآن.. تحتاج لوقت لمحو ذاكرة المتصادمين وتقديم مكاسب عينية مجزية لرموزهم.

– ليس لدينا الوقت والصبر لبحث حلول مدروسة، الحزب يتبنى الحلول الأمنية العاجلة.

– مطلوب إصدار قانون يجرم مثل هذه الفتن، باعتبارها تهدداً للسلام الإجتماعي وليكن اسم هذا القانون "قانون مقاومة الإرهاب"، هذا القانون يضع المعارضين ودعاة الإصلاح المشبوهين تحت طائلة العقاب بدعوى إخماد الفتنة التي تهدد مبدأ المواطنة.

واصل طارق شرح تصوراته لاجتثاث المفاهيم الرجعية البالية، قال إنه تم تغيير مفهوم الحب والتلاحم بمفهوم المنفعة العاجلة المباشرة بعيداً عن فكرة العمل الجماعي والتضامن مغ الغير وإنكار الذات، وكذا تغيير مفهوم العدل بمفهوم النجاح الشخصي، وتغيير مفهوم الحرية بحرية الاقتناء والاستهلاك، بدا "جودت سليم" مرتاحاً لما يسمع، مطمئناً لنجابة مستشارة الأمين، عاد يستوضح مستشاره في قضية بالغة الحساسية فقال:

– وماذا عن العدو المجاور لنا الذي يبغضه الناس ثم أصبح صديقاً وفق معاهدة سلام؟

بدا طارق متفهماً لألغاز هذه القضية الشائكة، كان قد قطع شوطاً طويلاً في التعامل مع هذه المعضلة، كيف اجتهد في تحويل العدو إلى صديق مع بقاء أسباب العداء من منطلق نظرية تصحيح

التاريخ، بتحويل حتمية الحرب إلى حتمية سلام مشكوك في أمره، اقتضته المعالجة إلى استبدال مبررات عداء حقيقية راقدة في الذاكرة بحيثيات سلام تفتقد دوافع حقيقية، وتحتاج إلى مهارة في صناعة ذاكرة جديدة تستوجب محو الذاكرة تظل قديمة.

قال طارق بثقة الواثق من قدرته على تشكيل العقول وغسيل الأفكار:

– واضح أننا قطعنا شوطاً لا بأس به في استبدال مصطلح "السلام" بمصطلح "التطبيع"، وقد رسخ في ذهن الغالبية أن الحرب الأخيرة هي آخر الحروب، وأن السلام هو خيار استراتيجي وتوازن المصالح حل محل توازن القوى ورفعنا شعار التقاء الغريب بالغريب، وتعرف الفكر على الفكر، والتفاوض يجرى على إطار الحل وليس الحل، والحل يجري تنفيذه خطوة خطوة، وإذابة الصراع قبل التعرض لكتلته وإعطاء الضمانات للعدو قبل وفائه بالالتزامات، وبديل المفاوضات هو المزيد من المفاوضات لتحقيق المودة والألفة، وتم تغيير صيغة "الأرض مقابل السلام" إلى صيغة "السلام مقابل الأمن"، نحن نعطي السلام، والعدو يعطينا الأمن، والصراع مع العدو "نفسى" بنسبة ٧٠%.

– وماذا عن علاقتنا بالجوار والقوى الصاعدة في المنطقة؟

– لقد أطلقنا شعار أن الوطن أولاً، وليس الأمة أو الإقليم، وإن الوطن ليس جزءاً من أمة أو محيط إقليمي، وهكذا قمنا بتصحيح تاريخي هام للمفهوم التقليدي للأمن القومي.. كل وطن يتكفل بتحقيق أمنه دون توريط مجاوريه في مشاكله.. لسنا جزءاً من مشاكل الآخرين.. نحن لا نمثل خطراً على أحد، وهذا هو جوهر الأمن القومي.. لسنا في حاجة إلى بناء قوة ردع من أي نوع حتى لو أصبحنا رسول سلام منزوع السلاح.. لست في حاجة إلى دور شرطي المنطقة.. يوجد الشرطي الأعظم الذي ردع من تساوره نفسه بالعدوان أو التهديد.

– وبمناسبة "الشرطي الأعظم".. كيف نرتب علاقتنا مع هذا "القطب الأوحد" وسط أزمات كثيرة تستنزف قوته.. الأزمة المالية.. هزائمه العسكرية.. ظهور أقطاب جديدة.

– لا تعنينا كل هذه الأزمات.. مازال القطب الأوحد محتفظاً بوحدانيته.. نعتمد كل الاعتماد على تحالفنا الاستراتيجي معه.. لا تصطدم مع أهدافه وتوجهاته.. صرحنا بأن ٩٩% من أوراق أزمات الشرق الأوسط في يده، وهذا هو عربون التحالف.. بيننا علاقة خاصة متميزة، يحسدنا عليها الجميع، ممكن أن تتوثق علاقتنا بالقطب الأوحد أكثر من علاقته مع أقرب حلفائه في المنطقة،

ويمكن أن تتساوى مع علاقته مع جارنا الذي كان عدواً ثم أصبح صديقاً.

نظر كبير الأمناء في ساعته، بما يشي بانتهاء الاجتماع، أبدى ارتياحه للتقرير الدوري الذي عرضه عليه طارق، طلب منه أن يواصل جهوده الفكرية والثقافية من أجل تصحيح التاريخ لخدمة الوطن وخدمة الإنسانية جمعاء، قال له وهو يغلق الملف الذي أمامه:

– عندي موضوع خاص، سوف أبحثه معك في وقت آخر.. شكراً.

هيأ طارق نفسه لزيارة ابنه السجين "أيمن" الذي حكم عليه منذ سنوات قليلة بالسجن المؤبد بسبب إنتمائه لتنظيم إسلامي متطرف يعمل تحت الأرض، ويتصف بالعنف والإرهاب، لم تكن لديه مشكلة في الحصول على إذن بالزيارة كلما طلب ذلك، الجهة الأمنية المعنية تعرف أن طارق يحاول إقناع ابنه بمراجعة نفسه وإعلان التوبة وقطع صلته بهذا التنظيم والعودة للانخراط في نسيج المجتمع المدني، لم يكن "أيمن" على طيبة بأبيه، بعد تخرجه من جامعة الأزهر، واندماجه في هذا التنظيم الديني المتطرف، كان يدرك أن أباه يعمل لخدمة النظام بكل ما أوتي من مهارة وإخلاص، وكان هو من خلال التنظيم يعمل لتغيير النظام، لم يتحمس أيمن – في سنوات سجنه الأولى– لتقبل زيارة أبيه له، كان يرى فيه جزءاً من

نظام معاد لعقيدته، ثم تقبل مبدأ الزيارة تحت ضغط وإلحاح أبيه، وربما لحسابات خاصة فرضتها مجريات الأحداث.

هكذا حل موعد اللقاء حيث وجد طارق نفسه وجهاً لوجه أمام أيمن في غرفة الزيارة بالسجن، دام الصمت بضع دقائق، رمقه أيمن بنظرة عتاب جارحة، تصل إلى حد التأنيب، لم يكن عنده ما يقوله لأب يراه خصماً لمعجم أفكاره، ويستشعر بحاسة معادية أنه يغريه بالردة والخضوع!! بدا اللقاء خالياً من أية مشاعر، كان الأب قد فقد قدرته على الحب منذ عقود.. منذ استيلاء الحزب على السلطة، وكان الابن قد فقد قدرته على التراحم مع الأهل والأغيار بفعل أفكار جاهزة من صنع أمراء الجهاد، كان طارق يفكر في مدخل مناسب لبدء حوار ليس مطمئناً لنتيجته عندما سمع أيمن يقول بجهامة:

- ماذا عندك يامنظر السلطان؟

لم يندهش طارق لهذه البداية البراجماتية، لم يكن هناك مجال لحديث أُسري عائلي قال طارق بواقعية:

- التنظيم الذي تنتمى إليه انتهى أمره لم يعد موجوداً على أرض الواقع.

– هذه وجهة نظرك.. وهم لا يعنيني في شيء.. لا تضيع وقتك غير الثمين.

– ألم تفكر في مراجعة أفكارك؟.. أن تفكر بطريقة واقعية.

– ما الطريقة الواقعية في رأيك؟

– الحوار بدلاً من الصدام.

استغرق أيمن في الضحك حتى دمعت عيناه، قال وهو يرمق أباه باستخفاف.

– أي حوار تتحدث عنه؟ هل أنت الذي تتحدث عن الحوار؟ حدثني عن فلسفة تغييب العقول ومحو الذاكرة.

عاد أيمن يقول بجرأة وعناد:

– ما مصلحتك في نصحي وإرشادي؟ هل هذه تعليمات الحزب؟ هل أصبحت نقطة سوداء في حياتك، تستلزم التصحيح والعلاج؟.. هل تريد أن تتخلص من نقطة ضعف، يلوي بها الحزب عنقك؟

قال طارق بصراحة مباشرة، وبلهجة مُهينة لمسئول يباشر وظيفته:

– إعتبرها تعليمات الحزب.. الحزب يريد أن يدخل معكم في حوار صريح.. لم لا تجربون الحوار؟

- حوار الغالب مع المغلوب؟ حوار السجان مع السجين؟ لعبة المقايضة والمساومة؟

- سيرسل لكم الحزب خبراء ومُفكرين لمناقشتكم لإنهاء الصدام والبحث عن الحلول.

فكر أيمن قليلاً وعاد يقول بلهجة مناور:

- أريد أن أعرض عليك صفقة لا بأس بها.

- تفضل.

- أنا أنسحب من التنظيم.. وأنت تستقيل من قيادة الحزب.

- لا مجال للمقارنة.. أنا أمثل الشرعية.. وأنتم تمثلون الخروج على الشرعية.

- هذا شرطي.

- ألم تفكر لحظة إنك ضحية غسيل مخ؟

استغرق أيمن في الضحك، وهو يصفق بسخرية:

- ألم تفكر أنت أيضاً إنك ضحية غسيل مخ؟

كنت وطنياً مخلصاً منذ عقود، ثم أصبحت منظراً لسلطة غاشمة.. ملفك عندي وقد حفظته عن ظهر قلب.. أصبحت مغسول المخ ثم تحولت إلى غاسل أمخاخ.. غاسل أمخاخ بكامل وعيك وإرادتك.. تؤدي وظيفتك بكفاءة مذهلة تستقطر متعة سادية في

تدمير العقول وتخريب النفوس، حتى أنك لم تعد تعرف من أنت.. لا أظن أنك متصالح مع نفسك.. أنا أكثر منك صدقاً مع نفسي.. أنا أدفع ضريبة المقاومة، وأنت تحقق مكاسب الولاء التام والتبعية.
قال طارق وهو ينهض محبطاً، وكأنما يكلم نفسه بلهجة رمزية:

– يبدو أننا نسير في نفق مظلم، لا يظهر في نهايته ضوء.

قال أيمن بلهجة لها مغزاها:

– تمنيت أن أضيف لمكاسبك نقطة إضافية لصالح كبير الأمناء.. إستمتعت بحديثي معك.. دعنا نلتقي بانتظام، بعيداً عن تعليمات الحزب وعن خبرائه ومفكريه.. عندما تتناول غداءك مع أمي، قل لها إنك أعجز من أن تفرج عنى.. أعجز من أن تستغنى عن هواية تمييع العقول. أعجز من أن تتفادى التنكيل بك، إذا سولت لك نفسك مجرد التفكير في الإعتزال.

لم ينجح طارق في الإحتفاظ بهدوئه بعد أن غادر السجن كان لكلام أيمن وتعليقاته وقع الصاعقة على تلافيف مخه، الكثير مما سمعه من أيمن يحتاج لتأمل ومراجعة ولكن مراجعة مع من؟ إنه وحيد، ليس له خل ولا صديق، ليس هذا زمن البوح والمصارحة، الحب في هذا الزمن فضيلة محظورة يعاقب عليها قانون الحزب، الصديق الوحيد في هذا الزمن هو ورق مذكرات تكتب بعيداً عن

الأنظار، وهي أشبه بإعترافات متهم، لا يجرؤ على الإدلاء بها أمام محكمة ظالمة، أصدرت حكمها مقدماً دونما نقض أو إبرام، مذكرات يجرى سجنها في خزينة محكمة الإغلاق، خلف لوحة تشكيلية شعبية، رسمها فنان خالد الذكر في زمن المحبة والتراحم، وحرية التعبير وتداول السلطة وعدالة التوزيع.

لم يكن طارق راغباً في تناول غدائه مع إيناس، فليس وارداً أن يحكي لها مضمون حواره مع أيمن في السجن، ليس وارداً أيضاً أن يعلمها بخبر زيارته في المعتقل، إيناس ترمقه كلما واجهته بنظرات مريبة تشمل قائمة إتهامات لا تتمشى مع حقوق الإنسان وتتمشى مع سياسات الحزب، ولا يجد في نفسه منطقاً مقبولاً لإثبات البراءة أو قبول الإدانة، أصبحت تمثل له ضميراً جميعاً، ليس مستعداً للوقوف أمامه وجهاً لوجه، هي تمثل ماضياً سرق منه دون أن يعي أو يدري ، وهو يحمل لها رفضاً لا شعورياً، يصل أحياناً إلى درجة العدوانية، ليتفادى شعوراً بمرارة الواقع، لا يجرؤ على إعلانه، بعد أن فقد مشاعر الزوجية، وإنهار قوام الأسرة، وإنصراف الأصدقاء، وغاب الأحباب.

تناول غداءه في فندق هيلتون أحد رموز حضارة القطب الدولي الأوحد، رغم نفوره العارم من سياسات هذا القطب، أخذ

يتناول طعامه بعيداً عن لذة صحبة حميمة وحديث عفوي ومخزون ذكريات، غادر المطعم وقرر أن يتناول قهوته في مكتبه، وهو يمارس مهام منصبه العقائدي لإرساء قواعد وسنن الحزب الأوحد.. قرر أن يعود إلى المسكن بعد منتصف الليل، لم يكن راغباً في مواجهة إيناس، بعد نشر الصحف الحزبية المستقلة أخبار فضائح وإنحرافات هشام طارق المرتبطة بمغامرات عاطفية مريبة وفاضحة، وموثقة بالمستندات والشهود، كان يدرك أن الصحف قد حصلت على المستندات المطلوبة من جهات أمنية، بعد أن قررت قيادة الحزب تصفية ثروة ونفوذ "هشام طارق"، بعد أن تعدى الخطوط الحمراء ،وإصطدم بكبار منافسيه من رجال أعمال محليين وإقليميين، يتمتعون بصلات سيادية رفيعة لا قبل له بتحديها، كان طارق صاحب فكرة تعددية وسائل الإعلام لخدمة شعار ديمقراطية محكومة وتحت السيطرة وها هو الحزب يوظفها لخدمة الحزب للخلاص من أعوانه الطامعين والمتهورين، وها هو هشام يقع ضحية تجاوزاته وضحية إبتلاع طعم لعبة ديمقراطية لم يستوعب حدودها وأبعادها، وسطوة تدخلات الجهات السيادية، سوف تطلب منه "إيناس" إنقاذ ابنهما من مصير محتوم بحكم منصبه ومن واقع أن هشام واحد من آلاف الانتهازيين والمنحرفين ومن واجبه أن يحميه، لم يكن طارق مستعداً للحديث مع إيناس في أزمة هشام الذي

تخطى الخطوط الحمراء السيادية، وهو ليس مستعداً لإفشاء أسرار الحزب العليا المتعلقة بهذا الخصوص.

عاد طارق إلى فيللته الفخيمة بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة صباحاً، اطمأن إلى استغراق إيناس في نوم عميق، مشى على أطراف أصابع قدميه نحو غرفته، بدا كأنه يعيش في مسكنه مع شخص يناصبه العداء، ولا تربطه به صلات روحية أو عاطفية أو جسدية، دخل الغرفة وأغلق الباب بإحكام.. بالمفتاح، خلع ملابسه بهمة وحيوية، وضع الأوراق والقلم والنظارة فوق المنضدة، بدا كأنه فنان يعيش لحظة إبداع خالية من أية ضوابط أو قيود، لحظة يتصالح فيها مع نفسه، قبل أن يتحول في الصباح إلى شخص آخر، قاوم رغبتة في صنع فنجان قهوة تجنباً لدبيب القدمين، استبدل القهوة بكأس "ويسكي" معتق وبدأ يكتب:

"تبين لي أن ما قاله لي أيمن في السجن يستحق التوقف عنده بشكل ما.. أنا واثق أنه ضحية غسيل مخ بحكم مهنتي.. فأنا خبير في عملية زرع الأفكار.. أعرف كيف تتم هذه العملية العقلية، المتدينون يقومون بها باسم "الحاكمية" وأنا أقوم بها باسم "تصحيح التاريخ".. كلانا يفّرغ الشعارات والمصطلحات من معناها الحقيقي إلى معان تخدم سلطة تجميد الأوضاع وتوقيف الزمن.. كلانا

يتلاعب بالسجلات والوثائق، ليعيد كتابة الموروث والمكتسب.. هكذا يجري التلاعب بالتاريخ، ولا يبقى سوى حاضر جرى تزّيفه لدرجة الكمال والإحكام.. السؤال الذي يحيرني الآن هو: هل وقعت أنا ضحية غسيل مخ دون أن أعي وأدري، ثم أصبحت غاسل أمخاخ بكامل وعيي وإرادتي؟.. هل صنع مني كبير الأمناء (جويلز هتلر) مهندس تخطيط أفكار النظام؟.. من المؤكد أن الأحوال لم تكن كذلك قبل أن يتولى الحزب الحاكم.. من المؤكد أنني أتقزز الآن من القذارة المنتشرة في كل مكان.. لا أتصور أن الحال كان دائماً كذلك، إذا كان شعوري بالتقزز قوياً إلى هذا الحد.. شعوري بالضيق والإمتعاض دليل أكيد على أن الأحوال لم تكن كذلك من قبل.. من المؤكد أنني كنت ضحية غسيل مخ قبل أن أتحول إلى مارد غسل أمخاخ شعب بأكمله.. هل من حقي أن أدين أيمن أوألومه؟.. أليس من المحتمل أن يكون هو الآخر قد تحول إلى غاسل أمخاخ على طريقته؟.. يقولون إن العقل البشري أكبر نعمة من نعم الله على الإنسان، فهو صانع الأفكار التي ترتقي بالحياة وتحقق التقدم.. أنا أقول الآن إن الأفكار سلاح ذو حدين.. حد للنهضة والتقدم وحد لتغييب العقول لصالح القهر والاستبداد".

توجه طارق زيدان إلى مكتب جودت سليم (كبير الأمناء) في الموعد المحدد له، بدا له اللقاء أشبه بطلب إستدعاء عاجل، لم

يشأ أن يكون البادئ بالحديث، فوضع نفسه في حالة استماع، حرص جودت على إظهار ملامح حرج وارتباك، صمت قليلاً وكأنه لا يعرف من أين يبدأ وجد من المناسب أن يبدأ حديثه بمقدمة مطلوبة قبل الدخول في الموضوع، فقال:

- أنت تعرف يا طارق أن الحزب مر بمراحل ثلاثة من الرعاية.. رعاية الجيش، ثم رعاية الأمن المركزي، ثم رعاية "لوبى" رجال الأعمال، نحن الآن في المرحلة الثالثة.. السوق المفتوحة على مصراعيها لها مشاكلها ومحاذيرها، عندنا رجال أعمال يربطون مصالحهم بالخارج.. وعندنا من يعملون لمصالحهم الخاصة، مما يسبب الغلاء والتضخم واحتكار السوق.. وعندنا من يضيقون على أصدقائنا في الخارج فيهرب المستثمرون بأموال نحن في حاجة إليها.. في أمس الحاجة.. الأزمة الاقتصادية المتعصية الآن تمسك بتلابيب الناس وتستفز غضبهم وسخطهم.. الحزب ملتزم بالحد الأدنى لحاجاتهم.. لا يجوعون، ولا يشبعون فيطالبون بالمزيد من الرفاهية والحرية.. الصحف الحزبية والمستقلة تطارد الآن احرافات وتجاوزات رجال الأعمال محسوبون على الحزب كما تعرف.. ولا مفر من تقديم أكباش فداء على مذبح النزاهة والشفافية وتأمين حاجة القاعدة العريضة من المحتاجين والمهمشين.. غضب الجماهير هو العدو اللدود للحزب..غضب عشوائي متهور، سرعان

ما يستثمره "همام خاطر" (عدو الشعب) ويحوله إلى غضب ثوري منظم، وهذه كارثه تنذر بانهيار سلطة الحزب.. وقد لا يفلح الأمن المركزي في كبح جماح المغرر بهم من البسطاء والمخدوعين.

أدرك طارق المغزي الذي يقصده "جودت" من هذه المقدمة المحسوبة فقال:

– نحن إذن في حاجة إلى كبش فداء، يظهر انحياز الحزب لصالح الجماهير، ومحاسبة المنحرفين.

– يعجبني ذكاؤك.

– والكبش المناسب الآن هو "هشام طارق زيدان".

– فضائح "هشام" زادت عن الحد.. عشيقته الأخيرة، وهي راقصة معروفة، أفضت بأسرار حساسة تمس نزاهة رموز كبيرة في الحزب وبعض الرموز السيادية، وهي تهدد بالكشف عن المزيد من الأسرار.

– يمكننا أن نتكفل بإسكات عشيقته.

– هذ مهمة سهلة .. ولكن .. من الذي يتكفل بإسكاته؟

– هل هو في حاجة إلى إسكات؟

– اصطدم بمراكز نفوذ قوية في دولة مجاورة، لا قبل لنا في معاداتها.

– ربما يكون في حاجة إلى توجيه النصح والإرشاد.

– هناك من نصحه بالتعقل واسترضاء جهات الضغط، فبالغ في عناد يرتكز على ما يحمله من أسرار.

– والنتيجة؟

– أرسلنا إليه من يطلب منه الاستقالة من الحزب وتسديد ديونه الباهظة للبنوك، وإرجاع أراضي الدولة التي استولى عليها بدون وجه حق، وتسديد الضرائب المتراكمة عليه.

– هل استجاب؟

– تم القبض عليه في المطار منذ ساعات، وهو يحاول الهرب للخارج، بعد أن هرّب معظم أمواله السائلة إلى بنوك سويسرا.

– هو إذن قابع في السجن الآن.

– تم إسكات عشيقته إلى الأبد..وجار إسكاته داخل جدران السجن.

صمت طارق طويلاً، أخذ يجري حسابات كثيرة، تتعلق بما حدث، ثم قال:

– ما المطلوب مني الآن؟

– أن تتحكم في غضبك.. وتواصل رسالتك المقدسة من أجل رفعة الحزب وتفانيه في خدمة الفقراء والمطحونين وأصحاب الحاجة.. هل لك رأي آخر؟

غرق طارق في صمت طويل، استطالت خلاله شخصية الموظف المهني العتيد، ونامت الشخصية الأخرى الخفية، التي تتقزز من مجمل الأوضاع، قال بحكمة المغلوب على أمره بكامل إرادته:

- الفرد يزول، والحزب يبقى.

قال كبير الأمناء بارتياح بالغ:

- لم أشك في حكمتك لحظة واحدة.. مواصلة المسيرة تتطلب أحياناً بعض التضحيات.. لم يرث هشام عنك حكمتك.. لم يتعلم كيف يخسر معركة لحساب معركة تالية رابحة.

لم يكن هناك مفر من أن يلوذ طارق بالصديق الأوحد في حياته.. قلمه وأوراقه فوق المنضدة الصغيرة الكائنة في الركن الآمن الوحيد في شتى أنحاء البلد.. ركن غرفة نومه، كان في حالة من القلق والإضطراب لا تسمح له بتركيز أفكاره، تعوّد في مثل هذه الحالة أن يفرّغ شحنة جنسية ضاغطة على أعصابه، حتى يستعيد هدوءه وسكينته.

استدرج "إيناس" إلى سريرها دون مقدمات.. تخلص من ملابسه بعصبية بالغة، انقض عليها كثور هائج، مسنون العضلات متبلد المشاعر، يسعي لإفراغ الشحنة في أسرع وقت ممكن، وهذا

ما فعله بالتمام والكمال، هكذا تخلص من توتره الشديد، دون لمسة حانية أو كلمة رقيقة، كان من عادته أن ينصرف بسرعة قبل أن يلتقط أنفاسه، كأنما يهرب من عمل فاضح أو سلوك مُعيب، كان ينفذ تعليمات الحزب، الجنس للجنس، الجنس للإنجاب فقط، حُرمانية متعة الجنس، وخطيئة الجاذبية العاطفية بين الطرفين، هكذا انصرف دون أن تلتقي الأعين، مخافة أن ينفضح ما يشعر به من خجل عجيب، دخل الحمام، فتح الخلاط على آخره، أخذت أعصابه تسترخي وتبرد تحت خيوط الماء الدافئ، لم يمر وقت طويل حتى وجد نفسه أمام القلم والأوراق، وقد استعاد تركيزه فأخذ يكتب:

"أعرف ما جرى لأيمن بالضبط باعتباري خبير صناعة أمخاخ، ولكني لا أعرف بالضبط ما يجري لأمثال "هشام طارق" من هواة جمع الملايين والمليارات.. أعرف أن عملية غسيل المخ هي محو أفكار قديمة وزرع أفكار بديلة، هي ليست بالضرورة منطقية ومقنعة للجميع.. هل من المحتمل أن يكون أمثال "هشام" ضحايا لنوع مختلف من غسيل المخ؟.. هم بالتأكيد يخضعون للقسم الأول، وهو عملية محو قيم وأفكار موروثة ومكتسبة.. ولكن ما الذي يتم زرعه بديلاً لها؟.. هل هي أيضاً أفكار، تترجم بشكل أو بآخر إلى أشكال متنوعة من العنف والعدوان؟..

أنا واثق أن هشام قد أدمن هواية جمع المال بإسم الإنفتاح وإقتصاد السوق.. وأنا أعرف أن المال ليس له دين ولا وطن ولا ملة، ولا يكترث بمصلحة الجمهور الغفير.. تحولت هواية هشام إلى إدمان الثروة مصحوبة بالسلطة والشهرة وإنتفاخ الذات إلى حد التضخم السرطاني الذي ينتشر فيتحول إلى وباء، يستحل كل أشكال الانحراف والفساد، في غياب مفهوم واضح للشرعية والعقد الاجتماعي.. أليس هذا شكلاً من أشكال غسيل المخ، يحظى بشرعية توافق عليها النظام، وتغافل عنها الحزب بدافع غريزة البقاء والإستمرار؟.. هل يمكن تسمية هذا النوع باسم "غسيل الذمة"؟.. ما الفرق بيني وبين أيمن وهشام؟

ألا يركب ثلاثتنا مركباً واحداً، ويحمل كل منّا بوصلته الخاصة؟..عجيب أمر لعبة العقل هذه.. لعبة أفكار لا يتبقى منها سوى بقايا عظام.. كلنا ضحايا قوة جبر، لا نعرف مكمنها، ويستدرجنا غرور أحمق ، فنتشدق بإرادة الاختيار.. ولكن! ماذا عن "همام خاطر"؟.. ألا يلعب هو الآخر لعبة الأفكار؟.. هل يلعبها عن ضعف، أم يراهن على عامة الناس اللذين هم وحدهم القادرون على تحقيق الخلاص، حيث مازالوا يحتفظون بقواهم العقلية، بفضل عجزهم عن الفهم، وبسبب قلة خطرهم لا يتعرضون لغسيل المخ الذي يتعرض له الأكثر ذكاء، ويتركون لممارسة عاداتهم وتقاليدهم

دون أن يتعرض لهم الحزب، أو أنهم يتوالدون بكثرة أو أنهم مازالوا يذكرون الأغاني القديمة، أو أنهم متدينون ولا أحد يمنعهم من ذلك.

لقد بلعوا كل شيء ولم يحلقهم الضرر من ذلك، إذ إن ما دخل معداتهم خرج دون أن يترك وراءه أي أثر، وكأنه حبة القمح التي تمر بجسم العصفور، وتخرج منه دون أن يهضمها هل هؤلاء هم اللذين خرج منهم المنقذ والمخلص "همام خاطر"؟.. هل ينجح في تغيير الأوضاع، أن يصبح ضحية لعبة الأفكار، التي وقعنا نحن ضحيتها؟.. يبدو أنني تورطت في مسائل فلسفية معقدة، في حين أن "همام خاطر" هو الذي يحمل أملاً حقيقياً لخدمة عامة الناس.. وماذا عن إيناس التي تشارك بتواضع في لعبة الأفكار، دون أن تجد آذاناً صاغية من المتلاعبين، ودون أن يعيرها عامة الناس أي إهتمام للحفاظ على قواهم العقلية، بالاحتفاظ بصمتهم والنجاة من وسائل التغذيب.. ماذا أقول لإيناس إذا سألتني عما يمكن أن أقوم به لإنقاذ إبنها "هشام" من التعذيب بالكهرباء والإغراق؟ هل يكفي أن أدير وجهي عندما ترمقني بنظرة إدانة واحتقار؟.. يبدو أني أعيش هذه الليلة حالة تقزز وامتعاض، لم تترجم مرة واحدة إلى حالة غضب واحتجاج".

علمت "إيناس" بأمر اعتقال ابنها "هشام" والتحقيق معه في قضايا فساد، أخذت تتابع كل ما كتب ويكتب في هذه القضية، في الصحف الرسمية والحزبية والمستقلة لم تندهش لدقة وتفاصيل المعلومات الواردة في التقارير والتحقيقات الصحفية والقنوات المحلية والفضائية بدا لها واضحاً أنه قد تم تسريب هذه المعلومات الدقيقة المنشورة من جهة أمنية عليمة ببواطن الأمور، بعد أن صدر القرار بتصفية "هشام طارق" وإزاحته من ساحة النشاط الاقتصادي والسياسي، بعد أن اصطدم بمنافسيه اللذين يفوقونه نفاذاً وقوة واقتراباً من جهات سيادية. حصلت على المزيد من المعلومات من مصادرها الخاصة، فأدركت أن هشام غفل عن بعض قواعد اللعبة فدخل في مصيدة التحدي غير المحسوب.

كانت واثقة أن زوجها "طارق" لن يتفوه معها بكلمة واحدة، فيما يتعلق بمصير ابنهما المشترك الذي فقد حريته وضاع مستقبله، كانت تعي تماماً، مثلما يعي طارق أن "هشام" يفتقد منهج النزاهة والشفافية ولكنه لا يختلف عن كل اللذين يعملون في دنيا المال والأعمال ومواقع السلطة، كانت تريد أن تسمع شيئاً من طارق، أي شيء، باعتبار أنه ابنهما في نهاية الأمر، حتى لو كانت هذه البنوة ليست من مبادئ الحزب، بإعتبارها نوعاً من المحرمات، حيث تشكل نوعاً من أنواع الحب، الذي يمثل جريمة لا تغتفر، كان أقل

ما تطمح إليه هو أن تبحث مع طارق عن مخرج، ليستعيد "هشام" هامش حرية لا معنى لها، وبقية من بقايا إنسانية، كانت تريد أن يعامل "هشام" مثل كثيرين من أمثاله، ارتكبوا أضعاف مخالفاته، ومع ذلك تم الإكتفاء بتنحيهم وإبعادهم عن الأضواء مع إحتفاظهم بكل ما هو منهوب ومستباح.

لم يقل طارق شيئاً، دعاها إلى السرير، أبدت اشمئزازها، أخذ يلح ويتحرش في صورة ثور هائج، كان يريد أن يفرّج عن قهره بعدوانية جنسية تصل إلى درجة التوحش، دفعته "إيناس" بقوة وعنف بعد مقاومات متكررة، وقالت بسخط المفزوع: "ابتعد.. ابتعد.. سأطلب شرطة النجدة.. مجنون.. وحش مجنون.. فقدت عقلك.. حيوان.. حيوان في جلد إنسان..مسخ إنسان بلا كرامة".

انسحب طارق إلى غرفته وهو يلهث، كان يلعق قهره، ويجاهد في إخفاء كرامة وهمية مجروحة، تمنى في هذه الليلة أن تختفي "إيناس" من حياته تختفي بأي طريقة.. بالطلاق.. بالطرد.. بالسجن.. بالقتل.. بدت له كمرآة تكشف عن وجهه القبيح.. الوجه الذي لا يراه إلا كلما التقى بها.. وجه المذنب الذي لا يستطيع أن يهرب من ذنبه، كانت في نظره تحتفظ بإرادة مقاومة تفضحه أمام نفسه.. مقاومة لا تغير شيئاً من الواقع، ولكنها تهب نعمه التصالح مع النفس.

انفردت "إيناس" بالدكتور "وليد" في مكتبها بالجمعية، قبل أن ينعقد شمل مجلس الإدارة، أبلغته بأنه جاءها مسؤول من وزارة "الحقيقة" يسألها عما تم اتخاذه بشأن تغيير إسم الجمعية (اسم الكرامة الذي يراه الحزب اسماً بغيضاً وكريهاً، يحتاج إلى تصحيح).

رمقها وليد بفضول جارف، انتظر أن يعرف منها كيف خرجت من هذا المأزق، منذ أبلغها بأن هناك من انفرد به وطلب منه تغيير الاسم، قالت إن الإجابة هبطت عليها في لحظة إلهام من السماء، عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام مسؤول الوزارة قالت له إنها قررت أن يكون اسم الجمعية هو "جمعية التصويب"، لم يبد المسؤول ارتياحاً، وطلب منها مزيداً من التوضيح فسألها باستيضاح:

– ما معنى كلمة تصويب؟.. ما المقصود بالتصويب؟.. أي شيء تريدون تصويبه؟.

قررت إيناس الاستفاضة في الشرح والتفصيل، لتعبر عن مقصدها، وتفوز بالموافقة:

– أنت تعرف أن وزارة الحقيقة – التي تمثلها أنت – والتي تشرف على الثقافة والإعلام والتعليم تتبنى رسالة الحزب التي تقوم بعملية تصحيح التاريخ وتنقيته من الشوائب العالقة التي ألحقها به دعاة التخريب من أمثال "همام خاطر".

- زوجك "طارق" يقوم بهذه المهمة خير قيام.
- نحن نقوم بتواضع بعملية تصحيح وتصويب الواقع المعاش.
- وهل تتعارض مهمتكم مع رسالة الحزب المقدسة؟
- مهمة الجمعية تقدم الإشارات والتنبيهات التي تعين الحزب على القيام بمهمة تصحيح المسار.

- وما الاسم المقترح؟
- جمعية "التصويب" اسم قريب من شعار "مهمة تصحيح التاريخ".

فكر المسئول قليلاً، قال على مضض.

- المهم ألا تتعارض مهمة الجمعية مع رسالة الحزب.. يمكن زيارة "هشام" في سجنه.

لوح وليد بإشارة تصفيق دون أن يصدر صوت تصفيق يلتقطه جهازتسجيل ودون أن يظهر على وجهه ملامح إعجاب معلنة، وقال بتحفظ:- "أعتقد أننا تجاوزنا المأزق.. نجونا من إحتمال حل الجمعية، أو وضعها تحت الحراسة"، انعقد شمل مجلس الإدارة طرحت إيناس فكرة تغيير اسم الجمعية، أسهبت في الشرح والتوضيح استوعب أعضاء المجلس الدافع الخفي وراء التغيير، فهموا ما بين سطور الكلام، يراهنون على مجهول يغير قواعد اللعبة.

انفض الاجتماع، دعت "إيناس" وليد لتصحبه في سيارتها، انطلقت السيارة في الشوارع القذرة المنتشرة في كل النواحي والأرجاء، سألها وليد عن الوجهة، قالت بلا تردد: "إلى حديقة الحيوان.. المكان الوحيد الآمن.. نسوا أن يعلقوا أجهزة تسجيل في رقاب الحيوانات". استغرق وليد في الضحك وهو يقول: "شعار الحزب.. لا مساس بحرية العامة والحيوانات"، جلسا على مقعد أمام قفص "الدب" يراقبانه وهو يبلع طعامه بهدوء وسكينة وبأقل قدر من التفكير، يحسدانه على خواء عقله من المفاهيم والأفكار، لم يغب عن فطنة وليد أن إيناس تريد أن تتحدث في موضوع ما، بادرها بسؤال استكشافي: "هل تفكرين في زيادرة هشام في سجنه؟، لم يفكر كثيراً قبل أن تقول: "ما فائدة الزيارة؟.. دخل هشام المصيدة.. يحتاج لبعض الوقت ليعقد صفقة مناسبة تخرجه من سجنه"، عاد يسألها: "ألا يستطيع طارق أن يقوم بدور ما لتسوية الخلاف؟". قالت بعقل واع: "مشكلة "هشام" أصبحت نقطة ضعف تضاعف من ولاء طارق وتفانيه في الخدمة.. طارق ليس مستعداً للتضحية بمكاسبه.. هو يعي أنه لن يفلت من العقاب حتى إذا فكر في التنحي والابتعاد.. تحول إدمانه لوظيفته إلى سجن يعجز عن الخلاص منه". عبّر لها عن مدى إشفاقه على وضعها الحرج، فعادت تقول بعقل بارد: "أصبحت أكره طارق كراهية التحريم.. لم

أعد أطيق مجرد رؤيته.. هذه شهادة لصالحه تعزز من مكانته أمام أولي الأمر، وتجعله شخصاً مأموناً.. الكراهية هي صمام الأمان لضمان بقاء الأوضاع على ما هي عليه".

لم يجد وليد ما يقوله في هذا الشأن أكثر من ذلك، عادت تقول له بلهجة جادة: "دعك من موضوع هشام وطارق.. أردت أن أتحدث معك في موضوع أهم بعيداً عن العيون والآذان". قال بحماس: "كلي عيون وآذان" بدأت حديثها بالقول:

– الجمعية عاجزة عن إصدار تقارير دورية صريحة، تكشف التجاوزات وانتهاكات حقوق الإنسان.

– هذا ليس بجديد.

– هناك طريقة ممكنة لكشف الانتهاكات مع تجنب الأخطر.

– هذا هو الجديد.. أسعفيني بالفكرة.

– أنت تعرف أن هناك تنسيقاً وتعاوناً بين جمعيات حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم.

– لم تفكر في ممارسة هذا التنسيق والتعاون.. ربما لتجنب الملاحقة والتضييق.

– إما أن نكون أو لا نكون كما قال "شكسبير".. لن نخسر أكثر مما خسرناه ونخسره حتى الآن.

– كيف يتم التنسيق والتعاون؟

– نتبادل مع جمعيات الخارج إرسال التقارير والنشرات.. هم ينشرون تقاريرنا، ونحن ننشر تقاريرهم.. وهكذا نخترق الخطوط الحمراء.

فكر وليد قليلاً، ثم قال بحيرة وتردد.

– لن يخلو الأمر من مساءلة وعقاب.. عقاب غير مباشر.. على طريقة المباحث والمخابرات.

قالت إيناس بقوة بائس لا تخلو من تحد يصل إلى حد التهور:

– لن يقوى النظام على فقدان سمعته في الخارج، عندما تساندنا قوى كبرى لا يقوى النظام على عصيانها.

– هل أنت مصممة على هذا التهور والاندفاع؟

قالت وهي تتأمل "الدب" داخل قفصه، وقد انتهى من بلع طعامه واستسلم لنوم عميق:

– إنني أغار من هذا "الدب" السعيد.. دعنا نتناول كسرة خبز وقطعة جبن في سجن الحزب العتيد، ثم نغط في نوم عميق.

– وماذا عن تكسير العظام والصعق بالكهرباء والإغراق بالماء والتعليق بالحبال من الأرجل؟

- قال لي سجين رأي بعد الإفراج عنه: "دوام التعذيب حررني من الخوف والألم وعذاب النباح"..

أفرجوا عنه ليستعيد رهبة الخوف والشعور بالألم، ليتخلص من لعنة "همام خاطر".

حُل الاجتماع الدوري بين "جودت سليم" كبير الأمناء (الأخ المُلهم) ومستشاره العنيد طارق، (وزير الحقيقة ورئيس لجنة تصحيح التاريخ)، وزع جودت نظراته بين جدول أعمال الاجتماع المطروح على المكتب وطارق الجالس أمامه، قال جودت بلهجة تقريرية: "العدو المجاور (أقصد الصديق) يطالب بتوريد النفط والغاز المتفق عليه في ملحق إتفاقية السلام.. تنفيذ هذا البند ربما يسبب تململ المعارضة المستأنسة والخلايا النائمة لـ "همام خاطر".. المطلوب هو غطاء مناسب لتنفيذ الاتفاق.. ليس من المفضل أن تقوم وزارة البترول بالتنفيذ". فكر طارق قليلاً ثم قال:- "المطلوب إذن هو تكليف شركة خاصة للقيام بالمهنة".. بمعنى إنشاء شركة برأسمال مشترك بين رجل أعمال محلي ومستثمر أجنبي، يكون متعاطفاً مع مصالح الجار، على أن تحمل الشركة الاسم الأجنبي للمستثمر.. هكذا يدخل هذا النشاط في نطاق الاقتصاد الحر البعيد عن رقابة الجهاز التنفيذي الذي يجني ثمار الضرائب والجمارك وأرباح الشريك المحلي الذي يمثل وزارة البترول بشكل غير مباشر".

أبدى كبير الأمناء ارتياحه للفكرة، وهو يرمق طارق بنظرة إعجاب وتقدير.

انتقل الأخ الملهم بعد ذلك إلى البند التالى في جدول الأعمال، فقال:- "الميزانية هذا العام تعاني من عجز خطير يصل إلى عدة مليارات.. ليس لدينا موارد كافية لتغطية هذا العجز.. كيف يتم تدبير هذه الموارد؟". قال طارق بلا تردد: "ليس أمامنا سوى بيع بعض شركات القطاع العام، أو المصالح الحكومية المتعثرة". قال "جودت" بضيق ونفور:

- الصحف والمعارضة المصطنعة لن تتركنا في حالنا.. تحتاج لمجرد ذريعة لإثبات وجودها.

- ديمقراطيتنا الرشيدة تسمح بالرأي الآخر.. نحن سمحنا بالمعارضة لتبييض الوجه، وتحسين الصورة.. المعارضة تعرف حدودها ونحن نعرف كيف نُلّجمها إذا تهورت.

- سوف نبيع لمستثمرين أجانب قادرين على الدفع بالدولار.. هذه مسألة حساسة تحتاج لغطاء.

- سوف نبيع لمستثمرين محليين بأثمان يقدرون عليها، وهم يبيعون لمستثمرين أجانب بأثمان باهظة، على أن يردوا لنا فرق الأسعار.

وصل الكبير إلى ذروة الرضا والارتياح، ثم قال بلهجة ساخرة:

– لو أنني من أنصار "همام خاطر" لأصدرت حكماً بإعدامك في ميدان عام.

– الحزب يقوم برسالته في سبيل تغطية عجز الميزانية.. الدهماء لا تتنازل عن الحد الأدنى من حاجاتها، ويغضبها كثيراً أن تعلن حالة الإفلاس.

– وكيف يمكن إغراء المستثمر المحلي بشراء شركة متعثرة؟

– بقروض من البنوك المتعثرة، مضمون السداد بعد البيع لمستثمر أجنبى.

شعر طارق بأنه في حاجة إلى أن يلوذ بكتابة بضع صفحات في مذكراته السرية حتى لا يصاب بالجنون.. حتى يوقف المذبحة الجارية بين دواعي المهنة والشعور بالتقزز من الواقع.. يريد أن يوقف نزيف دماء الروح.. التاريخ لا يريد أن يمحي في ضميره، وهو يمحوه في الواقع بتخطيط شيطاني رهيب، أمسك بالقلم وأخذ يسجل:

"أشعر بأنني قد أفشل في القريب العاجل في مواصلة الاحتفاظ بقواي العقلية.. أشك في قدرتي على الانقلاب على قواعد لعبة الحزب السيادية القميئة.. لا أجد ما يخفزني على قلب المنضدة في وجه "كبير الأمناء".. من هو هؤلاء الأمناء اللذين يتخذون من "جودت" كبيرهم؟!.. كيف اقتلع الماضي من قلبي، في

حين أن من يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضى؟!.. إذا ضاعت الذاكرة، وتم تزييف السجلات، فما الذي يمكن أن يدحض ادعاء الحزب بأنه قد رفع مستوى المعيشة؟!.. الحزب يبيع أملاك للأغراب.. يبيع الطاقة للجار المُعادي الذي أصبح الصديق السري للحزب.. مازلت أذكر أننا كما في حزب مع هذا الجار العنصري البغيض، في حين تقول وسائل الإعلام إننا الآن في حرب مع بلد آخر، يناصب العداء للجار البغيض.. هل يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة؟..

قمنا بانتصار حربي مجيد، ثم قلنا إنه آخر الحروب، ثم ألقينا السلاح ورفعنا شعار السلام وتعامينا عن ضرورات الأمن، وأطلقنا شعارات إنهزامية تدعو للرثاء: كسر الجليد.. تلتقاء الغريب بالغريب.. تعرف الفكر على الفكر.. الأرض مقابل السلام، وليس الأرض مقابل الأمن.. قنوات اتصال سرية مع الأعداء.. إعترافنا بحق العدو في الوجود، وليس اعتراف العدو في حقنا بالشعور بالأمان.. التحول من جسور العبور إلى عبور جسور تغذيها أوهام إرادة لا تفرق بين المقاومة والتسليم "تحولنا من حرب السلاح إلى حرب نزع الإرادة ومحو الذاكرة والوعي والتاريخ.. تعطلت عبقرية المكان، وتحولت حقائق الصراع إلى مشي نحو السراب.

قررت "إيناس" زيارة هشام في سجنه، لم تشعر بأي صعوبة في الحصول على التصريح بالزيارة، كانت تمثل عنواناً مطلوباً لإثبات تمسك الحزب بحقوق الإنسان، بصرف النظر عن مدى صراحة تقارير جمعيتها، ثم إن الأجهزة كشفت عن مد تنامي كراهيتها لزوجها "طارق" بما يدفع الشعور نحوها بالطمأنينة، وعدم إخلالها بمقتضيات الأمن والأمان.

حملت التصريح وذهبت إلى السجن "المركزى" الذي تم الإصطلاح على تسميته – جوازاً – سجن "العصاة المهذبين"، استقبلت بترحاب يكشف عن تقرير خاص لشخص الزائر، قطعت مع الحارس ممراً مفروشاً بنجيل يانع الخضرة، توقفت أمام باب "فيللا" أنيقة محاطة بأشجار وارفة الظلال.. انفتح الباب إلكترونياً، أخذت تتأمل أُبهة الأنتريه الفخم وهي تقاوم حالة من الذهول، قادها الحارس إلى صالون "خمس نجوم"، دعاها للجلوس ثم إنصرف، عرتها الدهشة وهي تتأمل السجاد والأثاث.. صالون لا يقل فخامة عن صالونات القصور.. تليفزيون وكمبيوتر وثلاثة موبايلات وتليفون أرضي وفازات وورود وميكروفونات حائط، دخل عليها "هشام" بشوشاً مسترخي الملامح، يعلو رأسه تسريحة شعر "آخر صيحة"، يرتدي بيجامة أنيقة مستوردة "أغلب الظن"، دام الصمت بعض الوقت سألته وهي شبه مخدرة: "ما هذا الذي أراه؟"، لم يرمش له

جفن وهو يقول: "متهور يجري عقابه، بتحديد إقامته بعض الوقت.. أفتى القاضي بأنني أحتاج لفترة من التأديب والتهذيب والإصلاح.. لم أطعن في الحكم.. الحكم عادل بموجب قانون السوق.. الأقوى يكسب في ملعب المنافسة.. القوى يصفي الأقل قوة، والساحة خالية من الضعفاء.. الضعفاء هناك في الأحياء العشوائية، يعيشون مع الموتى والحيوانات.. لا أنكر أنني من حزب الأقوياء، لكن الأقوياء – كما يقول داروين – هو الأقدر على التكيف، وقد سقطت أنا في معركة التكيف.. لم أحسب حساباتي بالدقة الكافية.. عليك أن تسجلي بعد هذه الزيارة أن السجناء في بلدنا يعاملون معاملة طيبة تتمشى مع شرائع حقوق الإنسان.. هلى لخصت لك القضية، أم تحتاجين إلى مزيد من التفصيل؟".

صمتت إيناس قليلاً، وهي تجاهد في استجماع شتات أفكارها، ثم قالت:

– ما التوصيف القانوني لجريمتك؟

– الغفلة.. السقوط في فخ استعراض العضلات.. وهم القوة المُفرطة.

– هل تقر بذنبك؟

– بل أنا المذنب الوحيد.. السّجان طبق قانون الطبيعة.. قانون داروين.. ليس البقاء للأقوى فقط، بل للأقدار على التكيف مع

البيئة.. المتكيف استطاع أن يدخلني في هذا السجن الرقيق الشفاف.

– هل ستنتظر حتى انقضاء مدة العقوبة؟

– العبرة ليست بمنطوق الحُكم.. بل بتوقيت صدور قرار الإفراج.. بعد شهر أو شهرين أو سنة أو عام.. مطلوب مني أن أراجع – خلال فترة سجني – بعض قواعد لعبة التكيّف والمساومة.

– والنتيجة!

– أنا أخرج من هنا.. ربما يحتل مكاني من أدخلني.. أستعيد وضعي.. أواصل الصعود.. لعبة الكراسي الموسيقية.

– المهم أن تختصر مدة الحبس.

– هي مرهونة باصطياد فرصة عقد الصفقة الجديدة.

– جئت أواسيك.. أعزيك.. أشد من أزرك.

– هذه مصطلحات غير واردة في قاموس الحزب.. أنا لا أعرف معناها.

– هل أنت غاضب من أبيك؟

– أجّله وأحترمه وأقُدّر ذكاءه.. لم يخطئ مرة واحدة في فهم نصوص دستور السوق.

تذكّرت ما يكتبه طارق في مذكّراته السريّة، فقالت بهلجة رمزية:

– حتى لو كان غير راض عما يجري حوله، رغم أنه شريك في صنعه.

– هذه هي ذروة العبقرية.. إتقان بارع لمتطلبات فلسفة النجاح.. لم أكن تلميذه النجيب.

نهضت وقالت وهي تستأذن في الانصراف:

– أتمنى أن تواصل الاستمتاع بوقتك.. هل تريد أي خدمة؟

قال وهو يتجرع الرشفة الأخيرة من كأسه:

– أرجو أن تسجلي في تقريرك القادم للجمعية مدى ما يتمتع به السجناء في بلدنا من معاملة طيبة.. السجّان يراعي بمنتهى الذمة والأمانة مبادئ حقوق الإنسان.

كانت العلاقة بين "طارق زيدان" (مسؤول وزارة الحقيقة المختصة بالثقافة والإعلام والتعليم ووسائل الترفيه والفنون الجميلة) و"رنده حبيب" (مسؤولة قطاع تأليف ونشر الكتب وإنتاج المجلات والأفلام الترفيهية والتسجيلية الذي يتبع وزارة الحقيقة)، كانت العلاقة بينهما تنطوي على شعور غامض خفي، لم يستطع كلاهما أن يتبين أبعاده ومراميه، حتى أن كليهما حرصا على عدم تلاقي النظرات، وعدم الانفراد ببعضهما وجهاً لوجه. لم تتعد العلاقة بينهما أكثر من علاقة رئيس بمرؤوس يقومان بواجبهما خير قيام، ويلتزمان بتعليمات الحزب كأحسن ما يكون الالتزام.

كان القطاع الذي ترأسه "رانده" يقوم بمهمتين: مهمة إنتاج الكتب والمجلات التي تتوجه إلى فئة المثقفين المطلوب استئناسهم وترويضهم وترويضهم وإغراؤهم بالشهرة والمال لكسب ولائهم وعدم انحيازهم للمعارضة المهجنة أو الخفية ، المهمة الثانية هي الرقابة والإشراف الصارم على الإنتاج الثقافي للقطاع الخاص من الكتب والمجلات والأفلام السينمائية والفيديو كليب والبرامج الثقافية في الفضائيات وتقنيات الإعلانات ذات الطبيعة الاستهلاكية ومضامين الأعمال الفنية المسجلة على أقراص الـ:

(سي دى)، ونوعية جوائز مسابقات البرامج التليفزيونية وشركات الإعلان بما فيها شركات "المحمول" وتتوقف تأشيرات الموافقة والتصريح والإجازة والتمرير على مدى نجاح هذا الإنتاج المعرفي في إثارة الغرائز وجنون النزعات الاستهلاكية، والتركيز على المباريات الرياضية والجرائم وحوادث العنف، وعذاب القبر والتفسير السلفي للدين والفتاوى المشوشة، والحفلات الإباحية في مجال الرقص والغناء، والعروض الخليعة التي تمحو الذاكرة وتمنع التفكير بعمق في أي موضوع على الإطلاق، تحت شعار حرية الإعلام (التي لا تمنع الحزب من ممارسة سلطاته المطلقة)، كانت المهمة الأولى هي إنتاج ثقافة لاستقطاب النخبة، والمهمة الثانية إنتاج ثقافة لتغييب عامة الناس.

كانت مهمة "رنده حبيب" أشبه بعمل ميكانيكي بحت، فهي تطمئن على سلامة تأشيرات أجهزة الرقابة، ثم تأمر بتشغيل آلات الطبع وتحرك وسائل النشر وانطلاق كاميرات البث على الهواء ودوران أجهزة تسجيل الكليبات والسديهات، والتحقيق من آن لآخر مع بعض الكتّاب والمبدعين بتهمة الإساءة للدين والوحدة الوطنية والإضرار بالقيم الأخلاقية والأعراف وجرح مشاعر الدهماء.. وما إن تهدأ العواصف الهوجاء حتى يتم حفظ التحقيقات وتهدئة خواطر المتجاوزين، وغض الطرف عن توزيع مؤلفاتهم البذيئة، مثلما يتم توزيع الحشيش والبانجو تحت سمع وبصر أُمناء الشرطة، وغالباً ما يتم تحصيل جبايات نتيجة المعدل العالى للتوزيع، بموجب قانون الممنوعِ مرغوب.

جمعت "رنده" الخطابات والتقارير المطلوب توقيع رئيسها "طارق" عليها، وضعتها في ألبوم العرض وهي تنظر في ساعتها، حان الموعد فتوجهت نحو مكتب السيد الوزير "وزير الحقيقة" دخلت عليه فاستقبلها بانضباط مبالغ فيه أخفى شعوره الغامض نحوها في جُب عميق، دق جرس التليفون، رد على المتكلم بلغة رمزية لا تفشي مضمون الحديث، وضع السماعة وأخذ يوقع الأوراق المعروضة عليه بعد قراءات خاطفة لعناوين الموضوعات، انتظر أن تحمل "رنده" الألبوم وتنصرف، قالت باقتضاب: "عندي ما أريد أن

أعرضه عليك" دعاها للجلوس وهو يقول بعجلة:"تفضلى"، قالت إنها تطلب تخصيص ميزانية إضافية للندوات والمؤتمرات والمهرجانات التي تنعقد لإحياء المناسبات المختارة بعناية، وشغل أوقات المثقفين بموضوعات تقليدية لا تستنهض الفكر بقدر ما تملأ أوقات فراغهم.. مطلوب فتح الباب على مصراعيه لإدخال قدر من المثقفين وممن يدعون الثقافة، إلى خطيرة المواشي.. مواشي الوزارة، فكّر "طارق" قليلاً ثم قال:

– وما بنود الصرف التي تحتاج إلى رصيد إضافى؟

– نحن ندعو هؤلاء الذين يحبون ممارسة هواية إعمال العقل والوجدان إلى محافل ومؤتمرات، يفّرغون فيها طاقتهم الزائدة، ويتخلصون من شحناتهم الغاضبة بملء إرادتهم.. عملية ترويض واستئناس تبعدهم عن نزعات احتجاج حقيقية.. نزعات هدامة تهدد الاستقرار ومواصلة البقاء.

– هل يقتضي تحقيق هذا الهدف ميزانية إضافية؟

– هم يأتون إلينا من كل حدب وصوب.. نحن نتكفل بمصاريف سفرهم وبدل الانتقال والمكافآت ومصاريف الإقامة في الفنادق الفخيمة وحفلات العشاء وبعض الهدايا لبعض رموزهم المتطلعة

وجوائز تشجيعية وتقديرية، مطلوب أن ينعموا بمباهج الحياة حتى ترتاح عقولهم.

- تعرفين أن الميزانية العامة تعاني من عجز في الموارد.. ثم هناك انخفاض في معدل التنمية وهناك تضخم وبطالة وزيادة في المصاريف الإدارية وسفريات المسؤولين ومصاريف السيارات والمناسبات...إلخ.

- استئناس المثقفين يعتبر هدفاً إستيراتيجياً في السياسة العامة للارتقاء بمشروع النهضة.

- لابد من مبررات واقعية عملية لإقناع كبير الأمناء.. المبلغ المطلوب سيكون خصماً من ميزانية دعم المحتاجين.

- تنتشر في هذه الأيام تجمعات عبثية، تحمل أفكاراً خطرة لا يقل خطرها عن خطر أفكار الجماعات الدينية المتطرفة.. تجمعات تنشر الفسق والفجور وإدمان المخدرات، والتحلل الذي يصل إلى حد السرقة والقتل والجنون.. لابد من وجود حد لإثارة الغرائز وتغييب الفكر.. لابد من تحجيم الثورة والفوضوى في آن واحد.

بدا طارق منزعجاً وهو يسألها:

- هل عندك ما يثبت وجود هذه التجمعات الشريرة؟

مدت يدها له بمجموعة أوراق وهي تقول:

– هذا تقرير تفصيلي عن هذه التجمعات .. تجمع يسمى نفسه "جماعة عبدة الشيطان".. تجمع آخر ينتمي للفكر الماسوني المنحرف.. تجمع آخر يضم "المثليين" الذين يطالبون بإنشاء نقابة أو جمعية تدافع عن حقوقهم.. ربما نشهد قريباً تجمعاً آخر يضم المثليات.

لم يخف طارق شعوره بالذعر وهو يقول:

– هذه ظاهرة خطيرة.. كيف يمكن التحكم فيها؟

– المثقفون هو قشة النجاة.. يمكن الاستعانة بهم لوقف هذه الظاهرة.. هكذا نخلق لهم دوراً يشغلهم عن مهمة معارضة النظام.. ألا يستحق هذا الدور ميزانية إضافية، تسمح لهم بأن ينعموا بمباهج الحياة ويشعرون بهامش من الفخر والاعتزاز بالنفس.

قال طارق بلا تردد:

– يستحق..يستحق ..

قالت "رندة" بلهجة مُريبة وغامضة:

– ألا تشعر بأنني أنا وأنت نقوم بمهمة نبيلة من أجل صنع المدينة الفاضلة في بلدنا؟

سألها بريبة وتشكك:

– ماذا تقصدين؟

نهضت وهي ترمقه بنظرة ودودة، تعرف أنها محظورة، وليست ضمن قائمة المستباح:

– هناك حدود لما يمكن أن يقال.. أنت أول من يعرف ذلك.. لا تورطني في القول.. أعدك بأنني أيضاً لن أورطك.

اختفت "رندة" خلف باب المكتب، خلع نظارته، رماها فوق الأوراق بحيرة مُرعبة، استيقظ في داخله ذاك الشعور الغامض، الصاعد من قاع جُبه العميق نحوها.

لاحظ طارق مدى ضيق وانشغال كبير الأمناء، وهو يدخل عليه في مكتبه حسب الموعد المحدد، وقد بدا عليه الإجهاد وقلة النوم. لاحظ كم الأوراق والتقارير المبعثرة فوق مكتبه، رفع سماعة التليفون وطلب من مدير مكتبه عدم تحويل المكالمات.

أطفأ شاشة الكمبيوتر، ثم أخذ يقول بعصبية زائدة.

– المعارضون الأشرار يهربون من الرقابة المشددة، ويتحدثون في برامج الفضائيات الأجنبية بدون خجل وحياء، ينتقدون بيع شركات القطاع العام الخاسرة.. لا يعرفون أن تكاليف عمليات الإحلال والتجديد تفوق ثمن هذه المصانع يتغابون وينكرون التصريحات التي تشرح أسباب ودواعي القرارات.. قلنا إننا نشجع البيع لمستثمرين أجانب قادرين على التطوير وحسن الإدارة وتوظف حصيلة البيع

لدعم السلع والخدمات لقطاع كبير من الفقراء ممن هم تحت خط الفقر وهم ٤٠٪ من السكان.

لم يشأ طارق أن يقول له لجان البيع تبيع بأقل من السعر المناسب بسبب العمولات والمقايضات والنسب المطلوبة لبعض من يهمهم الأمر، قال طارق وكأنه يقرأ من تقرير رأي عام:

– يقولون أيضاً في الفضائيات المغرضة إن الحكومة توقفت عن مواصلة استكمال مشروعات كبرى مفيدة ومُثمرة بعد أن صرفت على إنشائها عدة مليارات، لم تحقق العائد المطلوب منها.

قال الأخ المُلهم وهو يدق المكتب بقبضة يده:

– من أين نأتي بالاستثمارات المطلوبة، ونحن نعاني من أعباء الدين الداخلي والخارجي؟

صمت طارق طويلاً، فقال له الكبير بلهجة آمرة:

– استدعيتك لتقدم لي حلاً، نرد به على مزاعم هؤلاء المعارضين الأنذال.

– المؤكد أننا في حاجة ماسة لتدبير أموال طائلة.

– وكيف يتم ذلك؟

– لا مفر من بيع شركات ومؤسسات رابحة من الأملاك.. سيكون العائد كبيراً.

– هل ستتركنا المعارضة في حالنا.. ماذا لو حرّضت الدهماء، ودفعتهم للنزول إلى الشارع؟

– سنحول الأصول إلى أسهم، يتم تداولها في البورصة سيكون البيع بموجب قوانين السوق.. قانون العرض والطلب.. سيكون العائد لصاحلنا بالتأكيد.

استغرق كبير الأمناء في التفكير، ثم قال:

– معقول.. معقول.. ولكننا في حاجة إلى مزيد من الموارد.

– الفلاحون يروون حقولهم بالمجان منذ آلاف السنين.

– وماذا في ذلك؟

– حان الوقت ليدفعوا ثمن المياه التي تنبت لهم الزرع.

قال الكبير بإعجاب:

– هذه فكرة عبقرية.. وماذا لو اعترضوا على مشروع القرار؟

– سنعفيهم من سداد ديونهم للبنوك الزراعية بعض الوقت، ثم نطالبهم بسدادها على أقساط.. سنخفّض لهم ثمن الأسمدة والمُبيدات والبذور لفترة معقولة، ثم تعود المياه إلى مجاريها بعد قرار بيع مياه الري.

عاد طارق يقول بهدوء بارد وأعصاب ميتة:

– تقارير الأمن تقول إن هناك مظاهرات تلوح في الأُفق وسط الموظفين والعمال يطالبون برفع الأجور والحوافز والمكافآت.

– نحن إذن نواجه حراكاً اجتماعياً ضاغطاً.. الحذر مطلوب.. الدهماء لها بطون وليس لها عقول.. ما المخرج من هذا الحراك الاجتماعي الغاضب؟

– نُعلن عن علاوة اجتماعية كبيرة، ٣٠% مثلاً.. لمواجهة غلاء المعيشة..

– وكيف يتم تدبير المال المطلوب لهذه العلاوة ؟

– سترتفع الأسعار بالضرورة.. سنقوم بفرض ضرائب جديدة على منتجي السلع ومقدمي الخدمات.. هكذا يبقى الحال على ما هو عليه.. نعطي ونأخذ.. نحقق عدالة التوزيع.

رمقه الكبير بنظرة إعجاب وتقدير وهو يقول :

– شيطان في ثياب إنسان.. كاذب عظيم يعتقد بصحة ما يقول.. هكذا يكون تصحيح التاريخ.

انفرد "طارق زيدان" بنفسه في غرفة نومه، كان في حاجة لأن يسلم نفسه لتداعيات أفكاره، بعيداً عن الرقابة ومتطلبات المهنة، كان في حاجة لمواصلة الاحتفاظ بقواه العقلية، بعيداً عن الجنون

المخطط، واستخدام المنطق ضد المنطق، أمسك بالقلم وأخذ يكتب بنشوة مستر "هايد" بعيداً عن دكتور "جيكل".

"تمنيت أن يعترض كبير الأمناء ولو مرة واحدة على أحد مقترحاتي تمنيت أن يتهمني مرة بالسادية ولذة تعذيب الراعية.. أن يطلب مني مراجعة أفكاري.. تمنيت أن أخطئ ذات مرة حتى يطردني من جنته.. حتى أعتزل لعبة القمار العقلي بيده وليس بيدي.. مطلوب مني أن أقطف التفاحة المحرّمة (ثنائية الحرية والحب) حتى أستحق عقوبة الإعدام.. تمنيت أن أغالطه مرة، وأعرض عليه اقتراحاً ينافي تعليمات الحزب، وأرى رد فعله، ثم أتظاهر بالغفلة.. لم أملك الشجاعة ولو مرة واحدة..، الموظف المحترف ينتصر دائماً على الإنسان المعترض في داخلي.. مازلت أذكر أن بلدي خاض حروباً عديدة ضد الجار المعادي.. والإعلام يقول الآن إنه صديق حليف، وإن العدو هو جار آخر يناصب الجار المعادي للعداء.. هل هذه حقيقة؟.. كنت حين أسمع أخبار انتصار حربي لنا، أستنتج أنه سيعقب الخبر أخبار سيئة مثل ارتفاع الأسعار، ونقص السلع واعتقال بعض المشاغبين وإطلاق سراح بعض التائبين.. إنني أحافظ على التراث الإنساني وأحميه داخل مربع صغير في عقلي، وليس عن طريق إسماع صوتي، حتى أنجح في الاحتفاظ بقواي العقلية.. لقد روجنا أن الحرية هي حقك في أن تقول (٢+٢=٤).. وليس هذا

دليلاً على توافر الصحة العقلية.. فالصحة العقلية لا تتخذ شكل بيانات إحصائية.. تراودني هذه الأيام ذكريات صباي أيام كنت تلميذاً يافعاً، أمتلئ شباباً وحيوية وحباً لما حولي ومن حولي، أقول ما يحلو لي عفو الخاطر، أخرج في مظاهرات وأنادي يسقط الاستعمار وأعوان الاستعمار.. أنادي بسقوط الحاكم والتحقيق في قضايا الفساد والانتهازية والعمالة، وما ورد في الكتاب الأسود.

فوجئت "إيناس" بمن يدخل عليها في مكتبها بجمعية "التصويب"، ويدعوها للحضور إلى نيابة أمن الدولة، لم يكن أمامها سوى أن تستجيب خاضعة وصاغرة، وجدت نفسها أمام ضابط التحقيق الذي استقبلها بمهابة وترحاب، استأذنها في عرض شريط سينمائي مسجل، أخذت تتابع ما تراه على الشاشة أمامها، لقاءات عديدة تجمعها بالدكتور وليد فايد في حديقة الحيوان ومتاحف ومواقع أثرية ومنتزهات، ما إن إنتهي الشريط ساد الصمت بعض الوقت، استطاعت "إيناس" أن تكون فكرة لا بأس بها عن مضمون الاستدعاء، قالت بلهجة تقريرية:

– هي إذن جريمة خيانة زوجية.. (وهي تشير إلى الفيديو) والدليل عندكم موجود.

قال المحقق بمزيد من اللباقة والدبلوماسية:

- تعرفين أن مفهوم مصطلح "الجريمة" عندنا يختلف.. الخيانة الزوجية تندرج في قائمة قانون القيم الفاضلة، الذي وضعه زوجك وهو يقوم بمهمته النبيلة لتصحيح التاريخ.. الخيانة الزوجية هي ممارسة مشروعة للحرية التي هي حق من حقوق الإنسان التي تدافعين عنها.

ثم إنها تعبير عملي صادق عن مدى النفور من رذيلة "الحب" بمعناها التقليدي البغيض.

قالت بلهجة مسايرة لمفاهيم النظام:

- أنا إذن لم أرتكب جريمة؟

- لم ترتكبي جريمة في حق الحزب.. ولكن هناك جريمة اجتماعية ستؤثر على نشاطك المهني، وستسبب لك المتاعب مع أهلك وأسرتك.. ونحن لا نريد لك الحرج والضرر.

- أنا واثقة من عدم ارتكابي للخيانة الزوجية.. لست في حاجة لأن أدافع عن نفسي أمامكم.

- نحن واثقون من طهارتك أكثر من ثقتك في نفسك.

- ماذا يعني إذن ما قمتم بتسجيله في هذا الشريط؟

- قُمنا بتسجيل ما دار بينك وبين "وليد" من أحاديث مشبوهة تضر بالأمن العام.. تصورت أنك يمكن أن تهربي من رقابتنا في فراغات

الأماكن العامة (الحدائق والمتاحف والمواقع الأثرية).. قُمنا بواجبنا بذمة وبمنتهى الإخلاص.. استخلصنا من الأحاديث ما وصل بنا إلى حدوث جريمة.

– ما جريمتي إذن؟.. الجريمة التي جاءت بي إلى هنا.

– أجيبي عن سؤالى أولاً قبل أن أجيب على سؤالك.

طلبت منه أن يسأل سؤاله فقال :

– قامت صحيفة (نيويورك تايمز) بنشر مخالفات خطيرة في مجال حقوق الإنسان، تجري في بلدلنا هنا..

السؤال هو: ما مصدر هذه الصحيفة في الحصول على هذه المعلومات الجسيمة؟

– ما صلتي بهذا الذي تقول؟

– راجعنا ما دار بينك وبين "وليد" من أحاديث، ثم قُمنا بتحريات دقيقة وتأكدنا من أن جمعيتك لحقوق الإنسان هي التي أوصلت هذه المعلومات إلى الصحيفة.. هذه جريمة من وجهة نظرنا.

– إذا افترضت حدوث ذلك، فهذا يتمشى مع مبدأ حرية تداول المعلومات.

– ليس عندنا قانون صريح يقر بحرية تداول المعلومات.. يمكن أن نتغاضى عن هذه الحرية في أضيق نطاق.

– ما هو إذن تصنيفكم لجريمتي؟

قال المحقق بشكل حاسم وقاطع.

– جريمة التخابر مع جهات خارجية.

– حتى لو كانت هذه الجهة الخارجية تنتمي إلى دولة القطب الأوحد الذي يبادلكم المساندة والولاء؟!

– لن تتم محاسبتك بموجب جريمة التخابر مع جهة خارجية.. ستتم المحاسبة بموجب جريمة الخيانة الزوجية.

– أليس في هذا تناقض مع ما سبق أن قلته؟! مخالفة للقيم التي يتبناها الحزب.

– لن نقوم نحن برفع دعوى الإتهام.

سألته بدهشة واستغراب:

– ومن الذي يقوم برفع الدعوى؟

– زوجة "وليد فايد".. من حقها أن تدافع عن شرفها الاجتماعي.

فهمت أبعاد الحبكة الأمنية، فقالت بذهول:

– هي إذن تعمل معكم.

– لا داعي لهذا السؤال الحساس!

قالت بعد إن استوعبت مضمون التحقيق.

– هل تريد مني شيئاً آخر؟

– سنتحفظ عليك بضعة أيام حتى يتم استكمال حيثيات الادعاء.
– هل أخذتم أقوال وليد؟
– ستعرفين كل شيء في وقته وأوانه.

سألته بلهجة ذات مغزى، بقصد استكشاف ما يمكن أن يسمح بكشفه:

– هل تريد أن تقدم لي نصيحة؟
– نصيحة واحدة متواضعة.. لا داعي لمواصلة التخابر مع صحيفة "نيويورك تايمز".

لم يكن "طارق زيدان" سعيداً بسماع خبر ما، بقدر سعادته بسماع خبر اعتقال زوجته "إيناس" ووضعها تحت التحفظ كان أول من علم بالخبر وتفاصيل الادعاء، لم يكن يعنيه أن يفرق بين تهمة التخابر وتهمة الخيانة الزوجية، كل ما يهمه أن ما حدث – بصرف النظر عن تفاصيله – قد وضع خاتمة – مقبولة ومرتجاة – لعلاقته بإيناس، هكذا قام الحزب بوضع خاتمة مثالية لرحلة عذاب بين ضميرين "ضمير إيناس المُعلن رغم عجزه، وضميره المُستتر الذي يخفيه داخل بضعة أوراق مطوية داخل خزانة سرية"، لن يرى بعد الآن وجه إيناس الصبوح الذي يفضحه بمشرط جراح كلما جمعهما لقاء والتقى الوجهان، هو يشعر الآن بأنه حر.. حرية من نوع ما.. حرية العبد الذي يدعي أنه اختار عبوديته بحكم طبيعة المهنة، برغم

أنه يكره سيده كراهية التحريم، ويتمنى أن تنكسر رقبته وهو يسقط عندما نظامه الهرمي البغيض، هكذا ستحل لحظة الفراق الرائعة بإحدي طريقتين.. إما أن تختفي من حياته بمحض إرادتها.. وإما أن يطردها من حياته باسم إهانة مصطنعة لحقت بشرفه، يرى فيها هدية من السماء، لم يكن يحب الوجه الظاهر لشخصه مثلما لم يكن يحتمل نظرات إيناس اليومية الفاضحة، لم يشأ أن يسجل هذا الحادث في مذكراته السرية، ولم يكن يريد أن يدين من أدان "إيناس" ما دامت أن الإدانة قد أفادته ولو نفسياً، وهو هكذا يطبق المبدأ البراجماتي (الواقعي) المعتبر: "كل ما هو مُفيد فهو مطلوب وكل ما هو مطلوب فهو مفيد"، لم يشأ أيضاً أن يسجل فرحته لما حدث "لإيناس" حتى لا يغضب الشخصية المُستترة.

عندما التقى "طارق" بكبير الأمناء في الاجتماع الدوري، جرت مناقشة استقطاب حزب معارض يغازل الأخ المُلهم ضد حزب معارض آخر علا صوته أكثر من اللازم، بهدف افتعال ضجة إعلامية، تسمح بتمرير قانون استثنائي لمواجهة الإرهاب بحيث يتم استبعاد مفهوم واضح ومحدد لهذا المصطلح، ونوعية الجرائم والمخالفات التي تضع مرتكبيها تحت طائلة العقاب، كانت هناك أيضاً حاجة ماسة لضجة إعلامية لتجميد مائة طلب إحاطة في البرلمان تتعلق بقضايا فساد واستغلال نفوذ، أُدين فيها بعض نواب

الحزب، وبعض كبار المسؤولين، وراح ضحيتها مواطنون أبرياء وأموال حكومية طائلة وشاعت مصطلحات جديدة معيبة مثل نواب القروض المشبوهة، ونواب المخدرات، وتجارة بيع الأعضاء والأدوية منتهية الصلاحية، والعبّارات التالفة الجاري تشغيلها، اقترح طارق إحداث مزيد من الضجة الإعلامية تتمشى مع فلسفة الإلهاء والتغييب، فرأى اشعال حرب طاحنة بين أكبر ناديين رياضيين، تستنزف المشاعر والعقول، ولا يتحقق بينهما التعايش السلمي إلا بعد هدوء عواصف الغضب الشعبي، بما يستوجب اتخاذ مزيد من تقييد الحريات لضبط الشارع العام وتشديد الرقابة واحتجاز بعض المشاغبين، ومُثيري الفتن من وجهة نظر الحزب، وإحراج الجهات الخارجية التي تطالب بمزيد من الديمقراطية ومن حقوق الإنسان.

لم يكن في نية طارق إثارة موضوع التحفظ على "إيناس" والاتهام إليها، أصبحت القضية في رأيه منتهية، الحزب أنزل بها العقاب، دون أن يراجعه وهذا حق الحزب المتعارف عليه، والحزب قدم له خدمة جليلة، سواء قصد أو لم يقصد، ثم بت فى القضايا المطروحة، وأغلق الكبير الملف المفتوح أمامها، انتصب "طارق" واقفاً وهم بالانصراف عندما سمعه يقول باقتضابا:

– أعرف أنك لم تنشغل طويلاً، عندما لم تعد إيناس إلى البيت، لتبيت في حضنك.. الأخبار تصلك ربما قبل أن تصلنيا.. ينتابني

شعور ما بأنك لست منزعجاً مما حدثا.. ربما وافق القرار هواك لسبب من الأسباب.

قال طارق وهو مازال واقفاً يهم بالانصراف، وبنفس اللغة الضمنية المقتضية:

– الفرد يزول .. والحزب يبقى.

قال "جودت" بلهجة تقريرية لا تخلو من ارتياح:

– دائماً ما تكون عند حُسن ظني.. غالباً ما ستصبح وريثي.. سأوصي بذلك وأنا على فراش الموت.. لم تكن وفية لك بالقدر اللازم.

كان طارق يعي أن "التخابر مع جهة أجنبية" هو الجريمة الحقيقية تعامى عن الحقيقة وقال بمجازة:

– ومع ذلك كانت وفية لمبادئ الحزب.. لا تؤمن بالوفاء والإخلاص.

– هذا ما سوف يراعيه منطوق الحكم في القضية.

انتهى التحقيق الجاري مع "إيناس" أُحيلت القضية إلى المحكمة، أصدر القاضي حكمه بالإفراج المؤقت مع دفع كفالة قدرها عشرة آلاف جنيه، لحين إصدار الحكم النهائي في القضية في الجلسة التالية بعد ستة أشهر، تكفّل طارق بدفع الكفالة لإظهار

روح المُساندة وحسن النية، والادعاء بتبنى مبدأ العفو عند المقدرة، حرص على الذهاب إلى مقر الاعتقال، استقبلها وهي ترى ضوء لأول مرة منذ إعتقالها، وصحبها في سيارته إلى البيت.. لم ينطق أيهما بكلمة طوال الطريق.

وصلا إلى البيت كان طعام الغداء مُعداً فوق المائدة تناولا الغداء وسط نفس الصمت المُطبق، ذهب كل منهما إلى غرفته، لم يكن هناك ما يقال، كل منهما يعرف كيف يُفكر الآخر.. ما حقيقة المشاعر والأحاسيس؟! كانت إيناس أقل عدوانية نحوه بحكم اطلاعها على مذكراته السرية، ومدى ما يعانيه من انقسام في الشخصية.. عقلان في رأس رجل واحد.. لم تكن تعتبره مريضاً نفسياً يتصرف بموجب دوافع لا شعورية.

هو في نظرها يعاني من ازدواج في الشخصية.. شخصية ظاهرة وشخصية باطنة.. كلتا الشخصيتين تتصرفان بكامل الوعي والإرادة.. بكامل اليقظة والفهم والإدراك الحاد.. شخصية صاحية تتعامل مع الواقع بحذق ومهارة، وأخرى نائمة تستطيع أن تغير الواقع لو أنها امتلكت الإرادة واستجابت لها الظروف، هكذا سارت الحياة بين الثلاثة (طارق الصاحي، طارق النائم، إيناس) وكأن شيئاً لم يكن، حاول طارق أن يستشف ما يمكن أن تقدم عليه إيناس، كرد فعل

للمؤامرة التي وقعت ضحيتها، لكنه لم يفُز بطائل، حرصت إيناس بدافع من الحذر والوعي بأنها تخضع لرقابة مشددة، على عدم إرسال تقارير الجمعية إلى صحيفة "نيويورك تايمز" كانت تعي أن هذه هي الجريمة الحقيقية التي لم تحاسب عليها، لعدم استفزاز القطب الأوحد.

واظبت إيناس على الحضور بانتظام لمقر جمعية "التصويب" (لحقوق الإنسان) تعامل معها أعضاء الجمعية بشكل عادي خال من الإدانة أوالغموض استوعبوا بخبرتهم المهنية أن الاتهام كان بقصد تصفية حساب وتضييق الجبل على الرقبة، لم يعد في إمكانها الآن أن تنفرد بالدكتور "وليد فايد" في مكان مفتوح لتقول ما يمكن قوله في الأماكن المغلقة، بعيداً عن ميكروفونات الحوائط وقيعان الأدراج وتحت الرفوف وخلف ضلفات الدواليب، كان أهم ما يشغلها هو لقاء المواجهة مع "وليد" بعد الأزمة العائلية التي أصابته بسببها، كانت هي المقصودة، وكان وليد هو ضحية العقاب التأديبي، تعامل معها كأن شيئاً لم يكن، لم يشعر بأي صعوبة في إدراك تفاصيل ما جرى خلف الكواليس.

اجتمع أعضاء الجمعية في مكتبها ليقدموا التهنئة الحارة بسلامة بقائها على قيد الحياة، ومواصلة الشهيق والزفير، وخلو بدنها

من الإصابات، وبقاء شعر رأسها على طوله المُعتاد، ما إن انتهى الاجتماع حتى استقبلت "وليد" ودعتّه للجلوس، ساد الصمت قليلاً، لم يكن عند وليد ما يريد أن يقوله، كان عليها أن تكون هي البادئة بالحديث قالت بألم مُبرح:

– أنا آسفة.. آسفة جداً.. لا أعرف كيف أعوضك عما أصابك.. ما هي الترضية المناسبة؟

قال بتلقائية هادئة مستوعبة لما حدث:

– لست أنت التي تقولين ذلك.. دعي هذا الكلام للبسطاء والمُغيبين.. كلانا يعرف ما الذي جري ولماذا جرى؟.. نحن نقوم بعمل له خطورته وله أيضاً ضريبته.. لا نريد أن نتهرب من الضرائب مثل الذين يتهربون.. نحن نمارس نشاطنا في حدود الممكن، وهم يحاسبونا عندما نتجاوز حدود المسموح به.. ربما هم يسمعوننا الآن وأظن ألا غضاضة فيما أقول.. علينا أن نتقبل الحساب أو نترك الملعب ونعتزل اللعبة.. نحن نلتزم بموازيين القوة والضعف.

– أريد أن أجد حلا لعودة الوئام بينك وبين زوجتك.. لن أيأس، هناك حل لابد من العثور عليه.

– زوجتي إنسانة طيبة.. لا تعرف ولا تفهم الكثير في شؤون دنيانا العويصة والمُعقدة.

الخيانة الزوجية مثلاً لها شروط.. ولا يجوز الحكم فيها بالقرائن والشُبهات.. ومع ذلك يمكن أن تصلها رسالة من جهة ما تؤكد لها حُكم الإدانة.

– ألم تجد وسيلة لتقنعها بأن القضية مُلفقة؟

– دليل النية المُبيّتة لا يحتاج لشطارة.. أليس من الطبيعي أن يتقدم زوجك "طارق" بتوجيه الاتهام لشخصي؟. لماذا لم يتقدم؟.. أنت المطلوبة وليس أنا.. زوجتي مجروحة.. هناك لعب على نزيف الجرح.. ترفض دفاعي لأنني في نظرها شريك في الجريمة تُبرر صمت زوجك بأنه يتجنب توسيع القضية والضجيج الإعلامي حفاظاً على هيبة منصبه الرفيع.

– أليس في إدانتي تعريض بهيبة منصبه الرفيع؟

رمقها بابتسامة ماكرة.

– يبدو أنك لا تفهمين زوجك فهما عميقاً.. "طارق" يعرف جيداً ماذا يريد؟ وماذا يريد منه الحزب.. هو ليس مستعداً حتى الآن لتحطيم الذات المُعلنة.. الذات الخفية تحتاج إلى دافع خطير وقوي لتخرج عن صمتها وتُعلن عن نفسها.. ثم إن له دوافعه النفسية – في علاقته بك – تجعله يلتزم بحياد مُعيب، لا يعبأ برذيلة صمت مُشين.

عاد يقول لها بلهجة تذكير:

- هل نسيت أنني طبيب نفسى؟!

- مازلت آمل في عودة الوئام بينك وبين زوجتك.. لن أفقد الأمل.

- لا تقلقي.. المسألة تحتاج لبعض الوقت.. تذكري أنني طبيب نفسي.. تفريج الأزمة يحتاج لوقت وتوقيت.. لست من أنصار التهرب الضريبي.

- ربما تنفرج الأزمة إذا فُزت بحُكم البراءة.

رمقها بنظرة إشفاق لا تخلو من الوم رقيق.

- لا تتفاءلي كثيراً.. أمامك احتمالان.. إما الإدانة وإما أن تبيعي القضية.. توفر الأدلة مسألة نسبية.. الأحكام العادلة مرهونة باستقلال القضاء.

بدا جودت سليم "كبير الأمناء" مشغول البال، حائر الفكر، في الاجتماع الدوري المُقرر بينه وبين "طارق زيدان"، سأله طارق (المستشار الأول، ورئيس لجنة إعادة كتابة التاريخ، والمشرف العام على وزارات المعرفة) عما يشغل باله، كان الأخ المُلهم ينتظر السؤال فقال على الفور:

- هناك قوى داخلية وخارجية تعترض على انتخاب رئيس البلاد بطريقة "الإستفتاء".. يطالبون بنزول أكثر من مُرشح بحيث يفوز من

يحصل على أغلبية الأصوات.. يعني الانتخاب على طريقة الدول الديمقراطية الحقيقية.. هناك ضغوط من الخارج لا يمكن تجاهلها.. هناك تلويح بالتضييق وعقوبات غير مباشرة واستقطاب لبعض قوى المعارضة، بما يحرك الفتن الطائفية والمذهبية.. هناك تلويح بتقليل المعونات وتقييد التبادل التجاري، ونحن نمُر بأزمة اقتصادية حرجة.

لم يُفكر طارق طويلاً، بدت الإجابة مُعدة في رأسه ولا ينقصه سوي التصريح بها.

– نحن نرفع شعار الديمقراطية.. لا نتورع عن الاستجابة للمطالب الشعبية.. المطالب الشعبية وليس الضغوط الخارجية.. الآن هو التوقيت المناسب.. الناس تريد أن تفرح بشيء ينسيها الغلاء والتضخم والبطالة والغنى الفاحش لدى البعض.. المثقفون سيقولون إن الحزب قد استجاب لضغوطهم، وقد حققوا نصراً مؤزراً، ونحن لن نحرمهم من إدعاء هذا النصر المُبين.. ثم إننا سنكسب وقتاً مطلوباً لمهادئة الخارج وتسكين اعتراضاته.

سأله الكبير باستغراب مستنكر:

– هل أفهم أنك توافق على إجراء انتخابات حُرة نزيهة؟

– أنت أدرى بالنتيجة.

– أوافق على انتخاب الرئيس من بين أكثر من مُرشح.. ولكن كيف يتم ذلك.. هذا هو المهم.

– وكيف يتم ذلك يا حضرة الناصح الأمين؟

– سنضع الشروط المناسبة لتقديم المترشحين.. موافقة نسبة من أعضاء البرلمان.. ونسبة من أعضاء المجالس المحلية.. أهمية مراجعة السيرة الذاتية والأخلاقية والسياسية للمُرشح.. مراجعة يترتب عليها من يتم استبعاده ومن تُجرى مساندته، ومن يتم توجيه بعض المآخذ والتحفظات ضده.. الديمقراطية مطلوبة، والتحفظات مطلوبة أيضاً.. والادعاءات جاهزة.. الولاء لجهة خارجية.. التحالف مع أعداء الشعب.. الأعداء الذين نُسميهم بحكم ماضيهم الذي يجب أن يكون مُعيباً.

– وهل هكذا تضمن فوز مُرشح الحزب؟

– الديمقراطية التعددية لن تختلف كثيراً عن ديمقراطية "الاستفتاء".

– نحن إذن نحتاج إلى قانون ينظم تعددية الترشُح للرئاسة.. قانون يعيد تصحيح التاريخ.

– هذا أسهل ما في العملية.. ستقوم لجنة بسن القانون خلال أسبوع.. سيصدق عليه البرلمان في جلسة واحدة، ودون مناقشات متسفيضة، وبلا طلبات إحاطة.

كتب "طارق" في مذكراته وهو يقاوم حالة مستعصية من اكتئاب حاد:

"إلى متى تستمر هذه المهزلة؟ كيف أقوم بنسج خيوطها بهذه البراعة المذهلة؟ أي شيطان ذلك الذي يتمدد في داخلي، وينشر تعاويذه في البر والبحر والجو؟ شيطان يتمثل في "هيروين" يمسح العقول ويسحق المشاعر، ويحول الناس إلى دود يتجمع في جحور معزولة تتغطى بالحجارة.. سوف يحسدني المؤرخون على عبقريتي، سيقومون بتدريسي في الجامعات والأكاديميات، باعتباري أحد أنبياء الخراب، ومُبتدع "يوتوبيا" التدمير والهلاك.. الحزب يتبنى فلسفة تجميد الأوضاع إلى ما لا نهاية، تحت شعار ضمان الاستقرار، فتحولت كلمة "الاستقرار" إلى مصطلح سيئ السُمعة وقرين الموت.. قاموس الأحوال يطرق على أنصاف الحقائق ويميعها بكامل الأوهام.. يستخدم اللغة كأداة للإبهام وليس للتوصيل.. الظاهر بريء ناعم والباطن مخالب وأشوالك.. ما أشد عذابي بين مطرقة الحق و؟؟؟؟ الحقيقة.. الحق يرفض الواقع الذي أشارك في صنعه والحقيقة هي المشاركة الآثمة الفعالة في بناء وتأسيس الواقع.. متى كانت آخر رعشة حُب إرتجف بها قلبى؟ متى ضاعت واختفت إلى غير عودة؟ كيف تمت جراحة غسيل الحب؟ أدفع ما تبقى من عمري لأذوق طعم لحظة حب.. أذوق طعمها وأموت متصالحاً مع

نفسي.. غسيل الحب أشد وطأة ونكالاً من غسيل الذمة.. لأشد ما أحسدك يا "همام خاطر".. من المؤكد أنك تجني نعمة الحب.. تُحلق في سماوات انتماء، يخلق معنى حقيقياً لحياتك الفانية.. عجيب أن يحلم الإنسان بميلاد جديد بعد مشوار خاسر".

عاد طارق إلى بيته في الظهيرة بعد أن غادر مكتبه، لم يكن في أحسن أحواله، كان يعاني من حالة اكتئاب حادة ومتصاعدة، لاحظ أن مائدة الغداء مُعدة بمعرفة رئيس الخدم، وإيناس غير موجودة في البيت لليوم الثالث على التوالى، بدا مرتاحاً لغيابها في اليوم الأول نوع من الانفصال، تمنى أن يحدث دون تدخل منه، ودون أدنى رغبة عنده لعودة الوصال، ولا حتى الوصال الشكلي الذي يتعارض مع نوابع حالة الاكتئاب.

كان فقط في حاجة إلى معرفة سبب الاختفاء، لم يشأ أن يتحرى أو يستقصي، تجنباً للشبهات، كان يتبع حكمة الشاعر الجاهلي القديم: "ويأتيك بالأنباء من لم تزود"، خطر له أن يصطاد عصفورين بحجر واحد، أن يدعو الدكتور "وليد فايد" لتناول الغداء معه، ويستشيره في أعراض حالة الاكتئاب التي يمر بها، وتوصيته بالعلاج إذا استدعى الأمر، وغالباً ما سيتطرق الحديث إلى أخبار "إيناس" فيعرف سبب اختفائها دون أن يكون البادئ بالسؤال.

استجاب "وليد" للدعوة لم يكن يملك ترف الاعتذار لشخصية بارزة مثل "طارق"، تناولا الغداء يغشاهما صمت تام، طارق يتوقع أن يسمع، ووليد يخشى عواقب ما يمكن أن يقوله، ولا شك في وجود جهاز تسمع، انتقلا إلى الصالون لتناول الشاي، بدأ طارق يحدثه عما يعانيه من أعراض.. شعور بالملل والضيق، عزوف عن الطعام عدم حماس لمقابلة الناس، رغبة في العزلة والانطواء، إلى ما غير ذلك، صمت طارق، تهيأ وليد ليقدم ما عنده من تفسيرات وتوصيات، مراعياً أمانة الطبيب ومتطلبات الحرص الأمني والمحظورات قال:

"أستاذ طارق.. أنت شخص شديد الذكاء.. بعض الأذكياء هم من يصابون بالأمراض النفسية ومنها مرض الاكتئاب.. الشخص الواعي الذكى يعرف أكثر من اللازم، وأخطر من اللازم.. يعرف حدود ما يمكن عمله وما لا يمكن عمله.. هذا ميزة وعيب في الوقت نفسه.. الشخص الواعي لا يتنازل بسهولة عن حريته في التفكير والتعبير.. عن قدرته على الحب، وحتى على الكراهية.. لا يخضع بسهولة لأخطار غسيل المخ في الدولة الحديثة.. الأمراض النفسية هي أمراض الحضارة كما يقول "فرويد".. الدكتاتوريات القديمة هي بمثابة لعب أطفال إذا قورنت بالدكتاتوريات الحديثة.. الإنسان الواعي يتعذب إذا فقد قدرته على الإبداع والتخيل.. يتعذب

حتى إذا أوهم نفسه بأنه قد تقبل القهر بمحض إرادته واختياره، (وليد يسترجع موضوع مذكرات طارق السرية).. يتقبل القهر بشخص معلن، ويرفضه بشخص خفي.. الإنسان العادي البسيط لا يعاني من عذاب الوعي والإدراك.. هو جزء من قطيع متجانس، وهو يخضع لتأثير القطيع، والقطيع هو الرأي العام الذي تحركه الغرائز أكثر مما يحركه عقله أو الرأي العام الذي تخلقه وتشكّله وسائل الإعلام وأساليب غسيل المخ.. عامة الناس تتذكر مشاجرة مع جار أو حادثة سرقة، وتنسي أهم الأشياء.. يبدون كالنملة التي تستطيع رؤية الأجسام والصغيرة ولا ترى أكبرها.. ربما يكون حديثي هذا مجرد عنوان لمحاضرة في قاعة درس.. ليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك لشخص ذكي مثلك.. ليست عندي نصيحة أو توصية بعلاج.. أنت أذكي من أن ينصحك أحد بعلاج.. يداخلني شعور غامض بأنك تعرف العلاج.. المهم أن تختار التوقيت وتكون قادراً على تحمل الآثار الجانبية للدواء.. العلاج الدوائي لا يجري نفعاً في مثل هذه الحالات.. العلاج المناسب يكمُن في كيمياء الفكر والمشاعر.. لا أشك في أنك تفهم كلامي هذا.. (يلمح إلى وظيفته في الحزب).. أنت مهندس مفاهيم وأفكار.. المفاهيم والأفكار لها ثمارها المُفيدة وأشواكها الجارحة.. تحدثت معك بلهجة رمزية، لا يغيب مبررها عن ذكائك".

شعر طارق بمزيج من الارتياح والضيق، استطاع بسهولة أن يحل شفرة الرموز والكلمات، أدرك أن وليد قد استوعب أزمته المُعبرة عن أزمة النظام، وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح، بدا له كطبيب سياسي مثلما هو طبيب نفسي، تتشابه أفكاره مع أفكار المُعارض الثائر "همام خاطر"، هو يطالب بحقوق الإنسان و"همام" يطالب بحق الشعب في امتلاك الثروة والسلطة، لم يكن من المستحب أن يُعبر عن إعجابه المُضمر بوعيه وذكائه المُفرط، ومع ذلك لم يستطع أن يتحكم في ضيقه مما سمع، فهو قد تعرى أمامه مثلما يتعرى كثيراً أمام نظرات وتعليقات "إيناس"، كلاهما من طينة واحدة، يحتجّان على الواقع ويحاولان التغيير بالممكن والمُتاح، استأذن "وليد" في الانصراف، أدرك طارق أنه لا ينوي التعرض لأخبار "إيناس" قرر أن يستدرجه في الحديث عن سبيل التحري، فسأله بخُبث مُخبر:

- هل تواصل "إيناس" نشاطها في الجمعية كالمُعتاد؟

- لم تحضر إلى الجمعية منذ ثلاثة أيام.. لم أشأ السؤال عنها أوتحري أخبارها بسبب الشبهة الكاذبة التي لحقت بسُمعتها وسُمعتي، لا أعرف أحداً يستطيع أن يدلني على شيء.

عاد "وليد" يقول بدهشة:

- توقعت أن أطمئن على أخبارها منك!

قال "طارق" بلهجة تقريرية باردة وخالية من القلق:

– لاحظت أنها لم تشاركنا الغداء.. ربما تقوم بمهمة تتعلق بعملها.

قال "وليد" بذهول واستغراب:

– تقوم بمهمة دون أن تُخبرك؟! واضح أنها مُتغيبة منذ ثلاثة أيام.. لا أصدق أنك لم تسأل عنها.. أنت بالذات وبحُكم موقعك، تستطيع أن تعرف أخبارها بمكالمة تليفونية.. أنا واثق.

– أنت لم تسأل عنها لسبب يخُصك.. وأنا لم أسأل عنها لأسباب تخُصني.

لم يتحكم "وليد" في انزعاجه وهو يقول:

– هل هذا معقول؟ هل هذه حياة صحية؟.. كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه من انهيار في العلاقات الإنسانية؟.. نحن نعيش حالة من الجنون المُخطط.

عاد يقول بلهجة مباشرة خالية من الرمز:

– لست وحدك الذي يعاني من الاكتئاب.. المجتمع كله يعيش حالة اكتئاب جماعي.

عاد يقول بجرأة وتهور، وبلهجة آمرة:

– أرجوك.. ارفع السماعة، وآتنا بالخبر اليقين.

لم يستطع "طارق" مقاومة شعوره بالضعف والخزلان، حاول أن يتماسك ويستعيد إرادته الأسطورية، استيقظت في لحظة مشاعر إنسانيته المُتخفية، تظاهر بالتماسك وأخذ يتشبث بحبال الكبرياء المُصطنع، عاد وليد يقول له بحزم وصرامة:

– أرجوك.. ارفع سماعة التليفون.. دعوتني لطلب الاستشارة طبية.. أنت تعاني من حالة اكتئاب نفسي حاد.. أنا الآن أقدم لك العلاج.. ارفع السماعة واستخدم حقك في السؤال.. مُجرد حقك في السؤال.. حقك في مجرد الاستفسار.. بداية مشوار لآلاف الأسئلة التي تحتاج لإجابات.

تردد "طارق" قليلاً، لم يدر كيف استسلم لسطوة "وليد" التي استحوذت عليه، رفع السماعة، طلب المسؤول الذي يعرف أنه عليم ببواطن الأمور، دار بينهما حديث، كان طارق في وضع المُستمع مُعظم وقت المكالمة، وضع السماعة، بدا أنه فاز بالخبر اليقين، قال وهو يتشكك فيما سمع:

– نجحت إيناس في الهرب من البلاد، بجواز سفر مزور، بعد أن زورت بطاقتها الشخصية.. لجأت إلى دولة القطب الأوحد، التي كفلت لها الرعاية والشعور بالأمان.. تعاقدت مع صحيفة "نيويورك

تايمز" لتكتُب فيها بلا ضوابط أو محظورات.. الأمن يبحث الآن عن من سهّل لها عملية الهرب.

قال وليد بمزيج من الاعجاب والإشفاق :

– انتصرت لحريتها فلم تقع فريسة لمرض الاكتئاب.. الحرية باقية وغير ذلك إلى زوال.

عاد يقول وهو يتجه نحو باب الخروج الذي توقف عنده:

– حاول أن تسأل عني بعد أن أخرج من هذا الباب.. غالباً ما سأتُهم بأنني سهلتُ لها عملية الهرب.. أنصحك بعدم استخدام المُهدئات والمُسكنات.. هي تعطل مراكز المُخ ولا تقدم حلولا.. لا أتوقع منك أن تساعدني.. حاول أن تساعد نفسك.

كتب "طارق زيدان" في مذكراته السرية:

"أدهشني "وليد فايد" بحق.. استوعب بعقل – مازال يحتفظ بسلامته – عملية التزييف الكبرى التي نقوم بها باسم تصحيح التاريخ، وإعادة كتابته بحيث لا يوجد غير الحاضر الذي يؤكد أن الحزب دائماً على صواب.. استوعب "وليد" أيضاً ما ترتب على هذه "اليوتوبيا" المخططة من تمييع العقول وتخريب الذمم وتقييد الحريات والإستئثار بالسلطة والامتيازات وتكريس اللامساواة والفقر.. أتعجّب كيف استطاع الاحتفاظ بعقله دونما تشويه، كيف

حافظ على تصالحه مع نفسه؟! لا أشك في أنه تم القبض عليه بعد خروجه من عندي.. لابد أن يدفع ثمن الاحتفاظ بعقله، مثلما دفعت "إيناس" الثمن.. لا أصدق حتى الآن ما أقدمت عليه "إيناس".. كيف اتخذت قرار الهجرة وكيف نجحت في تحقيقه؟ هل هي على اتصال بالخلايا النائمة لـ "همام خاطر" الشهير باسم "عدو الشعب"؟ لا أُنكر أنني شعرت براحة خفية لاختفائها.. لاختفائها من حياتي بعد قرار الهجرة.. كانت بمثابة الضمير الحي الذي يجلدني في صحوى ومنامي.. ومع ذلك لا أستطيع أن أُخفي تقديري لشجاعتها وصلابتها وعنادها.. كان "وليد" صادقاً عندما لم يتوقع حمايتي أو مساعدتي له.. لم أجد في تكويني ما يشجعني لمساعدة ضحايا.. يستهينون بجبروت بطش الجلاد.. أقرب الناس إلى كانوا ضحايا.. أيمن وهشام وإيناس.. أنا الجلاد وهم الضحايا، يعرفون على الأقل أنني صانع "ألعاب الجلاد".. المُشّرع الذي يصدر الأحكام وفقاً لشريعته.. الضحايا تتحدى الجلاد بالرفض والمقاومة.. الجلاد ينزل العقاب بالضحية بأمر المُجرم الحقيقي الذي يدفع له الراتب الشهري.. كيف أكون الجلاد وأُطالب ببراءة المجلودين؟.. لا أستطيع ممارسة هذه الإزدواجية.. (عشماوى) يدفع الكرسي بقدمه من تحت أقدام المشنوق دون أن يرمش له جفن.. كيف تحولت إلى صخرة ملساء؟ ليتني أملك براعة "وليد فايد" في التحليل النفسي..

ليتني أملك الشجاعة الكافية ، فأطلب منه التحليل والتفسير عن طيب خاطر.. لست نافراً ولا غاضباً من مرض "الاكتئاب" إنه يُعيد إلى إنسانيتي.. يجعلني أضيق وأتألم وأحزن وأختلي بنفسي وأراجع أفكاري.. يجعلني إنساناً يحس ويشُعر ويندم ويطلب العفو.. ربما يكون الاكتئاب مرحلة ما قبل الشفاء.. هناك شيء ما يجب أن يحدث ليُعيد إلي "إنسانيتى".

لم يعد "وليد فايد" إلى بيته بعد ما غادر منزل "طارق زيدان" كان هناك من أنزله من سيارته قبل أن يُدير المُحرك، وجد نفسه داخل سيارة سوداء داكنة النوافذ تتحرك به إلى جهة غير معلومة، وجد نفسه داخل غرفة مُحكمة الإغلاق في مواجهة شخص ضخم الجثة جامد الوجه والملامح، يسلخه بنظرات نارية، انطلق صوت جهات تسجل يُذيع نص الحوار الذي جرى بينه وبين طارق، انتهى التسجيل وساد الصمت لحظات.. توقع وليد أنه أمام مُحقق سيقوم باستجوابه وقد تأكد من ذلك من خلال ما جرى من حوار حرص المُحقق في البداية على إظهار روح الود والمُجاملة، قدّم له علبة عصير "سفن أب" ثم مد يده بعلبة سجائر، شكره وليد على المُجاملة بأدب جم، واعتذر عن تناول أي شيء، قال المُحقق باعجاب زائف:

– أهنئك في البداية على شجاعتك.. على إصرارك على تحدي سياسة الحزب.. نحن نحيي مثل هذا النُبل وهذه البسالة.. لا أشك في أنك ستتعاون معي.. ستكون المكافأة مُجزية للغاية.. مكافأة تتناسب طردياً مع حجم التعاون، أنت تستحق التكريم والإشادة واعتلاء أعلى المناصب.. هناك من يريد أن يحظى بشرف الانضمام إلى عضوية الحزب.. الحزب يبحث عن الأكفّاء والمتفانين في خدمة الوطن.. أنت إضافة يفخر بها من يقدر همم الرجال.. نقدر من يختلف معنا ثم يعود إلى صوابه بعد أن يفيق من غفلته.

لم ينبهر "وليد" بما سمع ومع ذلك لم يشأ أن يعترض أويحتج فهو أدرى الناس بأحاجي السياسة وأساليبها اللولبيّة، المهم أن ينجو بجلده إذا كان ذلك في الإمكان.. قال بروية:

– أنا أشكرك على هذا التكريم الذي لا أستحقه.. أتصور أنني جئت إلى هنا لتقديم شيء ما.. ما المطلوب مني؟.. أنا على استعداد لتقديم المطلوب إذا كان في قدرتي وإمكاني.

رمقه المحقق بنظرة يفوح منها شرر الترهيب ونسيم الترغيب، قال:

– أريد في البداية أن أحيطك علماً ببعض الأخبار التي أثق أنها لم تصلك حتى هذه اللحظة.. تم وضع جمعية التصويب لحقوق

الإنسان تحت الحراسة والتحقيق في مصادر تمويلها.. تم إيقاف عضوية "إيناس" في نقابة المحامين، واتخاذ التدابير اللازمة لاستعادتها من الخارج، لتواجه الاتهام بزعزعة الاستقرار وتهديد الأمن العاما.

– هذه مهمة الأجهزة المعنية.. ما دخلي أنا في ذلك؟

– نريد تعاونك معنا.. تعاون له مقابلا.. مدفوع الأجرا.

– أقدم لك الآن استقالتي من جمعية التصويب، أعلن توقفي من الآن عن الانشغال بقضايا حقوق الإنسان.

– هذا لا يكفي.

– ما المطلوب إذن؟

– إيناس كانت ممنوعة من السفر.. كيف ساعدتها على تزوير أوراق سفرها؟.. إذا لم تكن أنت فمن الذي قام بذلك؟

– هذا اتهام لا يستند إلى أدلة.. هل عندك الدليل؟

– بدأت في المراوغة والاحتيال.. لا جدوى من الإنكار.

– سأجيب على سؤالك باللغة التي تفهمها بحكم مهنتك، إن من ساعد "إيناس" لابد أن يكون على صلة قوية بمواقع حساسة.. أو أن يكون متعاوناً مع جهة فساد، لا تقع تحت طائلة العقاب.

قال له المحقق بمزيج من التحذير والتوبيخ:

– لا يوجد من لا يقع تحت طائلة العقاب.

قال وليد بلهجة مسالمة وواعية في آن:

– أعفني من شبهة سوء القصد.. هذا الاتهام لا يتمشى مع طريقتي في التفكير وأسلوبي في التعامل.

– أنت إذن مُصر على الإنكار.. سأدعى الذاجة وأصدقك.. يمكن أن ترشدني إلى الجاني.. وهذا يكفي.. لاحظ أنني أتساهل معك، وأتغاضى عن عنادك.

– سيدي المحقق.. لقد فوجئت مثل غيري بهرب "إيناس".. لم أصدق أنها تفعل ذلك أو أن تكون قادرة على فعله.. ليست لي أدنى خبرة في تزوير أوراق، ولا أعرف أحداً يمكن أن يقوم بهذه المهمة.. أنا أعرف ما ينتظرني من أساليب الضغط.. لم أتعود الإهانة والإيذاء.. لست مهيئاً لتحمل الألم.. لو أن عندي ما أعترف به لاعترفت على الفور، ونفذت بجلدي.

– أنت فعلاً تحتاج لاستخدام أساليب الضغط.

أخرج المحقق ورقة من درج مكتبه، أخذ يتابع السطور المكتوبة وهو يقول:

– هذا قرار بإقافك عن العمل في الجامعة.. ربما يتلوه قرار آخر بالطرد.

– لا أعرف إن كنت أملك حق رفض القرار، وحق الدفاع عن النفس؟

قال المحقق وهو يضغط زر جرس أمامه:

– أنت إذن تواصل قطع طريق الغواية.. تستسلم لتضليل الشيطان.

دخل ثلاثة رجال أشداء، قيّدوا وليد بأذرع فولاذية، شك في قدرته على إلتقاط أنفاسه، قال المحقق:

– خذوه.. أنقذوه من نفسه.. ساعدوه على الاعتراف.

سحبه الثلاثة نحو باب الغرفة، توقف عند الباب وأدار وجهه نحو المحقق وقال:

– عندي حل لا بأس به.. أكتب ما تريد مني أن أقوله وسأوقع عليه برضا وتسليم.. سأوقع أيضاً على إقرار بأنني لم أعترف تحت أي ضغط أو تهديد.

– ستعترف عن طيب خاطر، بعد صرف "الجن" الذي يتلبسك.

– ماذا ستستفيد من جعلي "كبش فداء"؟

– أن يعرف الناس حقيقة من يطالبون بالحرية والشفافية.. من يطالبون بحقوق الإنسان، من يرتكبون المعاصي لتهديد أمن واستقرار البلاد.

حرص "طارق زيدان" على متابعة أخبار "وليد فايد" وما آل إليه مصيره، باعتبار أن قضيته ترتبط بزوجته الهاربة إيناس بشكل أوبآخر.

علم أنه تم اعتقاله بدون محاكمة في سجن المعتقلين السياسيين، وهو من العالمين أن مثل هذا النوع من الاعتقال الذي يسمى جوازاً "على ذمة التحقيق"، قد يستمر سنوات ولا يرتبط بفترة محددة بموجب قانون الطوارئ الاستثنائي، علم أنه وضع في الحبس الانفرادي في زانزانة قريبة من زنزانة ابنه المُتطرف أيمن، كتب في مذكراته السرية: "عجيب أمر دنيانا.. مطالب بالحاكمية وعودة دولة الخلافة، يجاور في السجن، مطالباً بحقوق الإنسان، ومطالبين بالديمقراطية التعددية وعدالة توزيع الثروة، كل من يقبعون في السجون تجمعهم جريمة واحدة، جرى التعارف عليها باسم "جريمة المطالبة".. جريمة المطالبة بشيء.. أي شيء.. أي شيء لا يرضى عنه "ناموس" الحزب أو يرى فيه تهديداً لوحدانيته، لم يكن هشام طارق مع هذه الفئة من المساجين.. كان ضيفاً على نوع آخر من السجون.. سجن "خمس نجوم".. تتوافر فيه كل وسائل الراحة.. كل أدوات العصر التكنولوجية.. الأدوات التي تصنعها الدول المتقدمة التي تحتكر الحرية والقدرة على الإبداع والابتكار.. الأدوات التي نكتفي باستهلاكها ونتكاسل عن صنعها.. الدول المتحررة عندها ثلاث مؤسسات سيادة حقيقية.. التنفيذية والتشريعية والقضائية.. أمثالنا من الأنظمة المتقاعصة عندها ثلاث مؤسسات أخرى.. مؤسسة البقاء بالإرغام تتفرع منها مؤسسة الفساد، تتولد

منها مؤسسة الغضب والاحتجاج القابعة داخل غرف انفرادية مظلمة.. عندنا أيضاً زُمرة الهاربين.. الهاربون بالأموال وفق شريعة غض الطرف.. والهاربون بالأفكار مثل "إيناس"..

ما عندنا لا يختلف كثيراً عما عند دول الجوار.. نفس مؤسسات البقاء ونمط النظام الإجتماعي وطبيعة الحياة.. نظم تكاد تكون واحدة ومتشابهة.. قبائل وإمارات وممالك، لم تمتلك بعد صفات الدولة الحديثة، تتسمى بأسماء مختلفة والجوهر واحد.. سيطرة قلة في القمة على سائر الناس.. الاستئثار بالسلطة والامتيازات.. طقوس عبادة الرجل الواحد الأوحد.. الرجل الباقي فوق المنصّة، ما بين ثلاث وأربع عقود.. الشغار المختفي خلف الصور المُعلقة في المكاتب والشوارع والطرقات، والمرفوعة فوقه أذرع المهللين في مناسبات مديرة هو: "من العرش إلى اللحد".

خرج "طارق زيدان" من مكتبه بوزارة الحقيقة المُكلفة بمهمة تزوير التاريخ تحت مُسمي "إعادة كتابة التاريخ" في طريقة إلى المصعد، توقف أمام بابه في انتظار صعوده، عندما اقتربت منه الفتاة الجميلة "رندة" التي تجازوت الخامسة والعشرين بقليل، والتي تعمل بقسم "النشر" بالوزارة، الذي يقوم بإنتاج الكتب التي تقدم نصف الحقيقة والنصف الذي لا يتعارض مع توجيهات الحزب، والذي تم

اختياره بعناية فائقة بما يناسب من ملفات التاريخ، بمعرفة خبراء مختصين تدربوا على يد "طارق زيدان" وإلتزموا بفلسفة المُباح والمُستباح بموجب حق الصراخ والنباح (منع التفكير بعمق.. الكذب المتعمد مع الإعتقاد بصحة ما تقول.. تحرير العقل من الحشائش الضارة.. من ثلاثية الحب والحرية وعدالة التوزيع)، كان يدخل في اختصاص "رندة" أيضاً إجازة إنتاج القطاع الخاص من الكتب والمجلات والدوريات التي تعتمد على إثارة الغرائز وتغييب الفكر، وإستعادة تراث سلفي مزعوم ومشكوك في مصادره، يتناول مسائل الحلال والحرام وعذاب القبر وعبادة الشيطان والعبودية للحكام، وغير ذلك مما يوفر عملية "غسيل مخ" على مستوى عامة الناس.

رمق "طارق" "رندة" وهي واقفة بجواره في انتظار وصول المصعد، كان يعرفها جيداً ويرى فيها أنجب تلاميذه وتلميذاته.. انفتح باب المصعد، دخلا معاً ولم يكن معهما ثالث، وصل المصعد إلى الدور الأرضي، انفتح الباب، دست "رندة" في يده ورقة مكتوب عليها هذه الكلمة المذهلة "أحبك"، ثم خرجت بسرعة واختفت في لحظات كانت المخاطرة التي عرضت الفتاة نفسها لها أكبر من أن توصف ولكنها فعلتها، لم يكن تبادل الرسائل ممنوعاً وإن كان نادراً، كان التراسل يجري في العادة عن طريق إرسال بطاقات مطبوعة

عليها كثير من العبارات وعلى مرسل البطاقة أن يضع علامة على العبارة التي تؤدى غرضه، لم تكن ممارسة الجنس ممنوعة، ولم تكن قيادة الحزب راغبة بالطبع في منعه، كان الهدف الغير معلن هو القضاء على المتعة المصاحبة له، الحزب يسمح بممارسة الجنس إذا كان فقط من أجل الإنجاب، وكل ما عدا ذلك مثاراً للشك، كانت الشُبهات تحوم حول أي من الطرفين إذا ظهر ما يشي بجاذبية جنسية واضحة من طرف حيال الآخر.

أدرك "طارق" أنه مُقبل على حادث سوف يقلب حياته رأساً على عقب، لم يشأ أن يتخلص من الورقة، تمنى أن يظل مُختفظاً بها دون أن يقبض عليه مُتلبساً بحيازة وثيقة تخريبية لا تقل خطراً عن منشور سري مُعاد للنظام، وصل إلى بيته سالماً، تأمل الورقة وهو يستقطر من حروف كلمة "أحبك" نوعاً من سحر اللذة المُحرمة، لم يشعر بالأمان والطُمانينة إلا عندما وضع الورقة داخل الخزينة مع أوراق مذكراته السرية، شعر بأنه يعاني شللاً مؤقتاً في الإرادة، لم يكون على الإطلاق هو الذي سيخطو الخطوة التالية، هي التي بدأت بمكاشفته بحبها له، وعليها أن تخطو هي الخطوة التالية، قرر ألا يبادر ومع ذلك استشعر في داخله هاجساً دفيناً مستحوذاً يدعوه للاستجابة، هو أول من يدرك عاقبة التمرد والانقلاب ولكنه وجد نفسه مدفوعاً بقوة خفية لتحطيم ذاته.

مضت بضعة أيام كانت بمثابة محطة انتظار لقطار تأخر عن موعده، وحل مساء ذلك اليوم الذي غادر فيه "طارق" منزله لحضور احتفال حزبي حاشد بمناسبة حصول الحزب على ٩٥% من مقاعد البرلمان في انتخابات سُميت بأنها نزيهة وحظت بإقبال عارم، فوجئ بصوت "كلاكس" مرتفع لسيارة تقف في مواجهة باب مسكنه لاحظ ذراعاً تمتد من شباك السيارة وتدعو للركوب، انحني قليلاً فلمح وجه "رندة" ركب بجوارها دونما تردد أو تفكير، بدا كالمأخوذ الذي لا يدري ما يفعل، ساد الصمت حائر لا يخلو من خدر جميل، ابتعدت السيارة عن الحي الراقي الفخيم، وأخذت تقترب من حي شعبي، تتجمع عن قمم شوارعه أكوام القمامة، وتنتشر البالوعات المفتوحة والأرصفة المُتهالكة الغارقة في مياه الصرف الصحي، وجدارن البيوت البالية ذات الجدارن العارية من أي طلاء، والبطالة المقنعة المتمثلة في صبية في عمر الزهور، يبيعون المناديل الورقية والبطاريات الصغيرة وبعضهم يحمل صناديق تلميع الأحذية.

توقفت سيارتها أمام مبنى قديم مُتهالك في حارة صغيرة، يتكون المبني من دور واحد، وهو عبارة عن شقة كبيرة تتوسطها صالة واسعة تحيط بها عدة غرف، ومطبخ ينقصه النظافة والترتيب وحمام يحتاج إلى عملية إحلال وتجديد، قادته إلى داخل البيت، توقفت به وفي وسط الصالة أمام عجوز مُنحني الظهر، يجلس فوق

مقعد قديم يبدو متين الصنع ومازال يحتفظ بتماسكه وثبات أرجله، أشارت إلى العجوز وهي تقول: "الحاج ريان.. صاحب البيت"، شمله العجوز بابتسامة أبوية حانية رقيقة ذكّرته بالماضي الذي ولى واندثر، أمطره بعبارات ترحيب شعبية ودودة، لاحظ طارق أنه مازال يتمتع بدرجة كبيرة من اليقظة والحيوية توحي بأنه مازال يحتفظ بقدر لا بأس به من قواه العقلية قادته "رندة" إلى الغرفة القائمة في عمق البيت، والتي بدت أنها تطل على الحارة، بدت نظيفة ومنسقة ما يشي بأنه قد امتدت لها يد العناية والترتيب، غرفة نوم بسيطة تضُم ركناً للجلوس أشبه بصالون صغير، يضُم فوتيهين ومنضدة متوسطة الحجم ومنضدة صغيرة وأباجورة أنيقة، الأرض مفروشة بسجادة زاهية الألوان، والشباك مُغطي بستارة سميكة، قال طارق في نفسه: "جناح لطيف في لوكاندة شعبية. أغلقت "رندة" باب الغرفة وعادت تقول بثقة وحميمة: "هذا هو عش حبنا".

لم يُعلق طارق، قرر أن يكون في وضع استقبال، عادت "رندة" تقول: "هنا سنلتقي في أوقات فراغنا سنمارس الحب رغم أنف الحزب، سنتحرر من خوفنا ونتخلى عن مكاسبنا.. إياك أن تجبن أوتعترض.. ستكون الخاسر على طول الخط.. استحضر شجاعتك واستخرج الحقيقة من المخبأ السري الصغير الراقد في قاع عقلك.. لا تدع الهاجس الأمني يقلقك.. كلانا سيكون مذنباً وسنتحمل

العقاب نفسه.. دعنا نحب.. دعنا نقطف الثمرة المُحرمة بإرادتنا وليس بإرادة الشيطان.. دعنا ننزل إلى أرض الحرية وننجح في امتحان الرب.. الرب يريد أن يمتحن إرادتنا وسوف ننجح في الامتحان". صمتت "رنده" قليلاً وعادت تقول: "لا أريد منك إجابة الآن.. فكر في مشروع هذه الجريمة النكراء.. عندنا الكثير مما يمكن قوله وعمله.. مشكلتي معك أنك لم تغب لحظة عن بالى.. استطعت أن أقرأ بعناية ما تُخفيه في جُب أعماقك من بركان الغضب والاحتجاج.. أتوقع منك أن تخون شيطانك.. الرب لن يعاقبنا على قطف التفاحة، إذا التزمنا بحرية مسؤولة.. سيكون موعدنا هنا بعد غروب الشمس كل ثلاثة أيام".. عادت تقول وهي تتجه نحو باب الغرفة: "دعنا ننصرف الآن.. أصبح لنا موعد ولقاء.. أتمنى ألا تخذل نفسك.

عادت تقول: "تذكّر أننا هنا خارج مدى ومواقع أجهزة التسمع والتنصت.. سنأتي في الموعد.. لن نغامر بمخاطرة الصُحبة داخل سيارة.. سيجرى تحسين حال الحمام والمطبخ خلال اسبوع".

ركب "طارق" سيارة تاكسي عائداً إلى بيته، أخذ يتحسس أطرافه ليتأكد أنه كائن حي مازالت له أطراف، أخذ يتحسس رأسه ليتأكد أنه مُستيقظ وليس غارقاً في حلم سرمدي.

همس في نفسه: "قصة حب إغريقية من زمن الأساطير.. انقلاب صامت يتهددني بدون اطلاق طلقة رصاص واحدة.. عشت أنتظر حدثاً ما يجعلني أتصالح مع نفسي... لا أظن أنني سأتراجع.. حبل النجاة تدلّى أمام عيني دون أن أسعى لطلبه.. لكنني في حاجة لفهم مغزى ما حدث.. هل أفسره بعقليتي الأمنية؟.. هل هو فخ يُنصب لي للخلاص مني نتيجة ظهور بديل؟.. فخ للاستغناء عن خدماتي بشكل مأساوي للخلاص مني ومن مخزون الأسرار التي أحملها في آن واحد؟.. "رندة" تعمل معي في وزارة الحقيقة.. تقوم بالمهمة نفسها التي أقوم بها.. مهمة فبركة العقول وتغييب الأذهان.. ما الذي يدفعها إلى ذلك؟.. هل فاض بها الكيل مثلما فاض بى؟.. لم لا يكون كذلك؟.. أليس من الوارد أنها تعاني من حالة الفصام نفسها التي أُعاني منها؟.. أليس من المُحتمل أن يعاني نصف أعضاء الحزب من حالة الفصام؟.. ومع ذلك، لماذا اختارتني "رندة" أنا بالذات رغم فارق السن؟.. لماذا لم تُخبر شاباً في مثل سنها؟.. هي تُدرك بذكائها أنني لا أمتلك مواهب روميو، وفالنتين، وقيس ليلى، وجميل بثينة، وأنطونيو كليوباتره.. أشعر أنني أمام لغز يحتاج لفض أسراره.. أحس أنني سعيد، تلفحني نشوى عارمة تعيدني إلى صباي في الزمن الجميل.. عميلة أنت يا "رندة" أم مراهقة، أم مُتطلعة إلى منصب، أم مريضة نفسياً؟.. سأذهب في الموعد وليكن ما يكون..

سألتزم الصمت بحكم خبرني الأمنية.. سأظل أسمعها، أسمعها بلا انقطاع حتى تفك رموز "الطلسم".. عندي ما يُبرر حضور اللقاء.. أستجيب لرعشة القلب.. أو ينقلب الحلم إلى كابوس مُخّيب للأمل.. عجيب أمر هذه اللعبة الإنسانية.. لعبة مفاهيم وأفكار ينفرط عقدها وتتحول إلى شظايا عندما يدغدغ القلب أول نسمة حب.. الحزب مُحق كل الحق عندما حرم الحب.. الحب أشد فتكاً بقوائم النظام من القنابل وأصابع الديناميت وانشطار الذرة.. أصبح "ألفريد نوبل" حكيماً بعدما اخترع الديناميت.. خصص جائزة كبرى لدعاة السلام والمبدعين الذين يسخّرون إبداعهم لإسعاد الإنسان.. المُحبّون الطيبون سخّروا الديناميت لشق الترع والأنهار وبناء السدود وتمهيد الطرق، والأشرار المجرمون سخّروه لتأمين شرائع النهب والإستغلال والظلم والتحكم والاستبداد.. أليست أفكاري هذه هي نتاج رعشة حب لقلب عادت الدماء تجري في شرايينه؟!".

حان الموعد.. وصل طارق إلى عش الغرام قبل دقائق قليلة من الموعد.. استقبله الحاج "ريان" بترحاب كبير، أخبره بأن العُمال انتهوا من صيانة وتجديد الحمام والمطبخ، أخذ يحدثه عن أحوال الناس في الحي.. كيف يعانون شظف العيش.. نقص الخدمات الإدارية والصحية، يعانون كل ما يعانيه سكان حي عشوائي ضمن عشرات الأحياء العشوائية المُحيطة بالعاصمة.. هناك من يسكنون

في المقابر.. من يتاجرون في المُخدرات ومن يدمنونها.. من يذهبون إلى العاصمة كل صباح يبيعون السلع الصينية والتايوانية فوق فرشات مصممة لهذا الغرض على نواصي أرقى الشوارع والميادين، وقد تدربوا على الهرب ببضائعهم عند حدوث كبسات الشرطة. بدا "ريان" سعيداً بهذه الضيافة التي يتقاضى في مقابلها أجراً مجزياً، لم يحصل عليه من قبل.

وصلت "رندة" في كامل زينتها وأناقتها، كانت تحمل معها قرصين من "البيتزا" وكيس موز وتفاح، ذهبا معاً إلى المطبخ لإعداد مشروب الشاي، حمل طارق الصينية وتوجها إلى غرفتهما وأغلقا الباب، بدت الحيرة على طارق وهو يدور بنظره في الغرفة، سألته عما يبحث عنه؟ فقال إنه كان يتوقع وجود تليفزيون يجري تشغيله دون متابعته، حتى لا يتخذ اللقاء شكلاً اجتماعياً سرياً مُريباً، قالت بهلجة تقريرية لا تخلو من خيال مُتسلط: "إنني أُعاني من وسواس خنّاس يوسوس في قلبي دون أن أملك رده.. يدهمني هاجس مُلح بأن التليفزيون لا يكتفي بالإرسال بل يستقبل أيضاً حركات الناس وسكناتهم وأقوالهم، حتى إنني لا أسمح لأفكاري بالشرود وأنا أشاهده، فقد تفضحني حركة أو إيماءة أو نظرة عين أو تعبير على الوجه يخالف التعبير المألوف وهذه جريمة يُسميها الأمن جريمة الوجه، الوسواس يوهمني بأن "بوليس الفكر" يستطيع أن يصل

السلك الخاص بأي شخص في أية لحظة بجهاز مركزي، فيصبح في مُتناول بصرهم وسمعهم".

استشعر طارق من هذا الهاجس بعض الطمأنينة التي كشف عن مدى التنافر بين "رنده" وسياسة الحزب الأمنية، بدا في تعاطي رشفات الشاي في حين تهيأت رنده للإسهام في حديث مستفيض: "لا أشك في أنك لك أيضاً هواجسك.. أستطيع أن أخمن كل ما يمكن أن تفكر فيه.. عميلة مدسوسة.. انتهازية مُتطلعة.. عقدة الوقوع في غرام الكبار.. ليس في كل هذا أي شيء من الحقيقة.. لا أنكر أنني أحبك، وهذا شعور لا يحتاج إلى منطق أو إعمال العقل.. ولكن ما يجمعني بك هو أكثر من الحب..

يجمعني بك نفس الشعور بالتقزز والقرف من كل ما يجري حولنا، ونشارك بأيدينا في صنعه بإجرام منقطع النظير.. يجمعنا نفس الشعور بالبُغض والكراهية للحزب والنظام ونوع الحياة المفروضة علينا وعلى سائر الناس.. استطعت بحس خارق أقرأ كل ما يدور في أعماقك من نوازع غضب عارم، لا تسمح له بالتعبير عن نفسه بأي صورة من الصور.. كلانا يحمل نفس الحنين إلى عالم حر تسوده المحبة والوئام.. كلانا يحمل نفس الحنين إلى الماضي الجميل الذي قمنا بتشويهه وتزييفه لحساب الأخ الكبير الأوحد، الذي يأخذ

من الماضي ما يناسبه ويمحو كل ما يتعارض مع وحدانية حزبه الذي هو دائماً على صواب".

صمتت "رنده" تحاول استشفاف ردة فعلا، أخذت توجسات طارق تتساقط واحدة بعد الأخرى، استشعر حرارة الصدق والمُصارحة في ثنايا كلامها، انفتح قلبه دونما حواجز أو سدود، صارحها بأنها استطاعت بالفعل أن تخترق مكنون أفكاره، تخلى عن حرصه المعهود واعترف لها بأن ما يجمعهما من أفكار قد قام بتسجيلها في مذكرات سرية، سوف يحضرها معها في اللقاء القادم، صمت لحظات وعاد يقول بشيء من الحيرة والتردد:"وماذا عن الخطوة القادمة؟". بدت وكأنها قد أعدت الإجابة قالت بتلقائية دافئة:"سنواصل تبادل الحديث بلا تحفظات.. سنتعانق بحرارة بلا انقطاع.. سنتبادل الأحضان بلا توقف.. سنفعل كل هذا بعيداً عن أعين الحزب وآذانه.. لابد أن تشعر بأننا نقوم بعمل سري ضد الحزب.. نفرج عن مكبوتنا بمؤامرة صغيرة مشروعة، تضاف لجهود من يشاركوننا في مثل هذه المؤامرات الصغيرة.. سيكون عناقاً بمثابة عمل سياسي متهور، تتلوه خطوات نستلهمها من مُجريات الأحداث".

شعر طارق بأنه يريد أن يقول شيئاً أكثر مما سمع، صارحها بأنه يطمح لما هو أبعد من ذلك، قال وهو يستلهم إرهاصات

الساخط الذي استيقظ فجأة: "إنني أبحث عن طريق للخلاص ليس لنفسي فقط بل للمجتمع بأسره.. الخطوة الأولى على طريق الخلاص هي محاولة فهم كيف وصل الحال إلى ما وصل إليه.. ما الذي يمكن عمله لتغيير الأوضاع؟.. كيف يمكن تأسيس دولة حديثة ذات إرادة وطنية مستقلة، وإرادة شعبية حرة وشرعية دستورية تستند إلى سيادة القانون وتداول السلطة؟".

صمتت "رنده" قليلاً.. بدا عليها شيء من التحفظ ورغبة في مراجعة زاوية الرؤية، قالت بلهجة لم تفقد حميميتها ومودتها: "اسمح لي أن اختلف معك قليلاً.. إنني لست مُتحمسة لمحاولة الفهم والتفسير.. ربما بسبب فارق السن.. فارق العشرة أعوام بين عمرينا.. أنا أريد فقط أن أعيش وأن أحب.. أن أحب شخصاً ينظر مثلي إلى الحزب نظرتي لشيطان، لا هم له إلا إفساد محاولتي وتعطيل قدرتي على الحياة والحب.. إن أي محاولة للثورة ضد الحزب تُعد حماقة كبيرة، لا يمكن أن تؤدي إلى شيء.. المهم في رأيي أن يحاول كل فرد أن يخدع الحزب.. أن يخرق القواعد لصالحه.. شعاري هو: "كيف تخرق القواعد وتبقى حياً في الوقت نفسه.. لم أسمع عن أي حركة معارضة نجحت في تحقيق أهدافها.. المعارضات تولد موءودة.. لا أستطيع أن أتصور نجاحها.. لسنا مُختلفين بدرجة كبيرة.. يجمعنا شعور مشترك بالاشمئزاز والكراهية

للحزب وأعوان الحزب"، أزال طارق المسافة الصغيرة التي تفصلها عنه احتواها في صدره بقوة سقطت كل تحفظاته، بادلها قبلة مجنونة لم يشعر بمثل لذتها وروعتها في أي وقت من الأوقات، قال في نفسه وهو يواصل لثم شفتيها: "تُرى كم شخص مثلها يتبنى الموقف نفسه؟".

كتب "طارق زيدان" في مذكراته السرية: "غريب أمر "رنده" تريد أن تقيم ثورة برصاص القبلات.. تريد أن تنجح فيما فشل فيه "همام خاطر" بالمظاهرات والاضرابات والاعتصامات ورفع راية العصيان.. تريد أن تخون الحزب داخل غرفة مغلقة في حي عشوائي.. تريد أن تصالح خوفاً من أعراض الجنون.. ليس أخطر من الوعي الصارخ، عندما يصاب به شريك في جريمة عامة، احترف الأكاذيب فصدقه الناس، ثم واصل الكذب فصدق نفسه، ثم استيقظ فجأة فوجد نفسه عارياً حتى من ورقة التوت، فقرر أن يمارس رذيلة الصدق ولو خلف جدران مصمتة..

أنا أمارس صدقي بحروف وكلمات محظورة.. وكلانا يمارس صدقه الآن بالأحضان والقبلات وهسيس الأرواح.. الغريب أن كل من منا في وزارة "الحقيقة" يمارسون الكذب وتوهمهم وسائل الإعلام

بأن الناس يصدقونهم، فيصدقوا أنفسهم، وأمثالهم لن يفيقوا إلا عندما تسطع شمس العقاب.. أعترف بأنني لم أعد قادراً على التراجع.. يتشكل في داخلي جهاز مناعي قادر على تحمل أشكال التغذيب المنتظر".

انسحب كبير الأمناء من خلف مكتبه، وتوجه نحو الصالون المُلحق بالمكتب، وقد بدا عليه الإرهاق بعد ساعات عمل طويلة وحوار مُرهق مع "طارق زيدان" دعا طارق للجلوس معه في ركن الصالون إرتمى "الأخ المُلهم" فوق فوتيه وثير، ألقى برأسه فوق المسند، ومدد ساقيه، وأخذ ينظم التنفس، وهو يقول متسائلاً: "إلى متى سنظل نتنفس بارتياح واطمئنان؟ كان "طارق" يجلس معه هذه المرة وهو مشوش التفكير مختلط المشاعر، لم يعد هو طارق الذي يمارس وظيفته بلا تحفظات.. طارق الذي يفصل بين عمله ومشاعره السرية.. هو الآن يحب وهو هكذا يعمل ضد سياسة الحزب وتعليمات النظام، ولم يكن قد إتخذ بعد قرار التوقف عن العمل وإعلان العصيان، ولم يكن قادراً على التوقف عن الانجرار لشلال الحب الجارف، لم تمر به من قبل مثل هذه الحالة من الخلل والإرتباك كان أخشى ما يخشاه أن تفضحه ملامح وجهه فيستشعر الكبير بوادر التغيير الذي حدث.. كان يخشى أن يضبطه الكبير متلبساً بجريمة "الوجه".

انتظر حتى يستكمل الكبير التقاط أنفاسه، سمعه يقول بطريقته المعتادة في تنظيم تفكيره: "قام رجل أعمال كبير أنت تعرفه بتشكيل شـركة أمـن خاصـة لحراسـة أملاكـه ومنـشآته وتـسهيل أعمالـه المـشبوهة.. نحـن لـم نـصدر بعـد قانونـاً يبـيح إنـشاء مثـل هـذه الـشركات.. ومع ذلـك هنـاك بعض رجال الأعمال قد اقتدوا برجل الأعمال الكبير وأنشأوا مثل هذه الشركات.. أمامنا خياران.. إما أن نتغاضى عن إنشاء هذه الشركات دون الالتزام بقانون ينظم نشاطها.. وإما أن نفك ما جرى إنشاؤه ونمنع حدوث هذه المخالفة الخطيرة.. أخشى أن يؤدي هذا المشروع إلى زعزعة الاستقرار وخلق متاعب لسنا في حاجة إليها".

صـمت الكبيـر المُلهـم، فكـر "طـارق" قلـيلاً، كـان قـد غلـب عقليته المهنية وهو ويقول: "لـسنا أمام مشكلة صعبة عسيرة على الحل، نحن دولة الأمن والأمان، نرفع شعار الليبرالية التي توسع من صلاحيات القطاع الخاص، دول الاقتصاد الحر العقيدة التي سبقتنا تسمح بإنشاء شركات أمنية خاصة، ستكون هذه الشركات تحت رقابتنا وستقدم لنا الخدمات التي نحتاج إليها، وسنردع منها من سيتطاول على سلطاتنا، هناك أيضاً ملاحظة هامة.. هم سيحتاجون إلى المتقاعدين من رجال شرطتنا في الأمن المركزي، ونحن سنتبرع بهم عن طيب خاطر، وسيكونون بمثابة وديعة ثمينة غالية سنحتفظ

بها عندهم.. هم سيحتاجون إلى أمننا المركزي ونحن سنحتاج إليهم.. شركات الأعمال مدينة لنا بالجميل والعرفان.. بعنا لهم القطاع العام بأبخس الأثمان.. ديونهم في البنوك وضرائبهم المُستحقة تدعوهم لمزيد من الطاعة والولاء.. انحرافاتهم ليست غائبة عن أعيننا.. لا أظن أن هناك مشكلة.. سنكلف هذه الشركات الخاصة، بما لا يجوز أن نكلف به الأمن المركزي.. سوف يحيطوننا علماً بنشاطات واهتمامات رجال الأعمال اللذين يعملون عندهم".

اعتدل الكبير في جلسته، ضم ساقيه، بدا في ذروة اليقظة والحيوية، مرتاح تمام الارتياح لما سمع، قال بمودة غير خافية: "دائما ما أجد عندك حلولاً للمشاكل التي تبدو مزعجة.. لا أتصور أنني يمكن أن أفقدك في يوم من الأيام". قال طارق في نفسه: "لم أعد أضمن لك أنني سأواصل القيام برسالتي هذه المقدسة.. المقدسة من وجهة نظر الحزب". قال الكبير باعجاب واضح: "لولا أنه مُتمسك بموقعي حتى الموت، لتنازلت لك عنه عن طيب خاطر"، قال طارق في نفسه: "لا أظن أنني سأقبل هذه الهدية التي يحلم بها كبار رموز الحزب بسماحة نفس".

انصرف طارق بهدوء شديد، وهو خال من أي حماس ودون اتباع البروتوكول المعهود من مرؤوس لرئيس عند الانصراف، لاحظ

الكبير هذا التغيير الغامض، ولكنه لم يعره كثير من الاهتمام، سأله الكبير ما إذا كان يعاني إحباطاً أو انشغال بال أو افتقاد لزوجته الهاربة، استعاد طارق تنبهه فرمق الكبير بابتسامة عريضة مزيفة وانحنى أمامه قليلاً وهو يتوجه نحو باب المكتب، ركب سيارته وقد اعترته مشاعر كثيرة متضاربة، كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يكن طارق راضياً فيها عن نفسه، كان يفكر في طريق لخلاصه وخلاص المجتمع، ولم تكن معالم هذا الطريق قد اتضحت بعد. وجد نفسه أكثر ميلاً الآن لفلسفة "رندة".. فليقرر أن يعيش وأن يحب وألا يسمح للحزب أن يُعطل قدرته على الحياة والحب.. يكفيه الآن أن يقوم بخداع الحزب، وهذا في ذاته "عمل سياسى" يحقق له بعض التوازن ويحميه من أعراض عصاب الجنون، يكفيه أنه وجد من يشاركه كراهيته للحزب، وتجمعه بها عاطفة نبيلة تمنحه بلسم السلوى والعزاء.

كان طارق يحرص دائماً على الوصول إلى عش الغرام قبل الموعد بحوالى نصف ساعة، كان يشعر بسعادة كبيرة في حديثه مع الحاج "ريان" فهو يعرف الكثير عن أحوال عامة الناس الذين يعيشون في الأحياء العشوائية المُحيطة بالعاصمة والذين يصل تعدادهم إلى عدة ملايين، ويقتحمون الأحياء الراقية في وضح النهار، ويعودون في منتصف الليل بغنائمهم الهزيلة التي تكفيهم قوت يوم أو يومين ولم

يكونوا في حاجة إلى مصاريف مدارس أو مستشفيات لاختفاء مثل هذه الخدمات من أحيائهم، حدثه الحاج "ريان" عن انتشار الجريمة وأعمال العنف في نواحي الحي، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة وغياب دور الشرطة في القيام بواجبها في إقرار الأمن المحلي وتعقب المجرمين والمنحرفين، حدثه ريان عن أن البعض يتحدثون عن تغافل الشرطة عن القيام بواجباتها لأسباب كثيرة معروفة وأيضاً لابتعاد أقسام الشرطة لمسافات بعيدة عن مثل هذه الأحياء، ألمح إليه بأنه يمكن أن يأتيه ببعض الممنوعات إذا كان ممن يرغبون في ذلك، قال طارق في نفسه بإحباط: "إن الحاج ريان باعتباره ليس من الأذكياء الواصلين العارفين ببواطن الأمور لا يعرف أن الأمن مشغول بالدرجة الأولى بتأمين سلطات الحزب وانفراده بالهيمنة، وليس مشغولاً بدرجة كبيرة بسلامة حياة الناس وحمايتهم من اللصوص وقطّاع الطرق وتجار المخدرات وهواة التحرش الجنسي الفاضح من الشباب المكبوت العاطل عن العمل الفاقد للأمل".

وصلت "رنده" تحمل بين يديها عدداً من العلب والأكياس، تبعها طارق إلى الغرفة، وضعت الأكياس فوق المنضدة وأخذت تفض الأغلفة، "تورته بالكريمة والفواكه".. قطع "جاتوه" متميزة الشكل والمضمون.. مجموعة أقراص من "البيتزا" الفاخرة، أطباق متنوعة من المشويات.. فواكة.. كيسان من الشاي واللبن

المستورد.. خبز وسكر حقيقيان، شكلت طبقاً ورقياً كبيراً متنوعاً مما حملته، قدمته إلى الحاج "ريان" وهي تقول له بمحبة وظرف: "نحن نؤمن بعدالة التوزيع"، عادت إلى الغرفة وأخذت تعد طبقين مما لذ وطاب، وهي تقول بسعادة سارق نشوة ظريف: -"حرصت على انتقاء هذه المأكولات مما يستهلكه أعضاء قيادة الحزب ولا يعرفه الناس"، أخذ يتناولان الطعام بشهية منفتحة لم يستشعرا لذتها منذ سنوات، بدا اللقاء لحظات باهرة من السعادة، يختلسانها من وراء ظهر الحزب، سألها طارق وهو يمضغ – بمتعة – قطعة لحم "بتلو" جيدة الشواء: "هل مازلت تواصلين عملك في قسم التأليف والنشر والرقابة على المُصنفات؟".. ردت وهي تقتطع جزءاً من قرص "بيتزا" بشغف: "سؤال غريب..

هل تظن أنني أملك شجاعة الامتناع عن العمل؟.. أنت أول من يعرف أن ذلك يثير الشُبهات، ويقتضى التحرى والمُراقبة ورصد الحركات والسكنات ومرات الشهيق والزفير.. أريد كما قلت لك أن أعيش وأن أحب. أن استمتع بلذة خيانة الحب". عادت تسأله بدورها: "وأنت.. هل مازلت تواصل مهمتك في إعادة كتابة التاريخ.. في تقديم وصايا الحذف والإضافة لإعادة تشكيل العقول؟!". قال وهو يخطف من يدها قطعة "بيتزا": "مازلت أفتقد الشجاعة اللازمة.. لست على استعداد للتضحية بسحر الحب..

الاختلاف الوحيد هو أنني أقوم بعملي بمزيد من الاشمئزاز والقرف والنفور وتضاعف كراهيتي للحزب".

انتهيا من تناول الطعام، نهضت "رنده" لتُعد القهوة عادت بالصينية وقد لاحظت أن طارق بدا شارد مستغرقاً في التفكير، قدمت له القهوة وهي تسأله عن سبب شروده.

بدا مستعداً للبوح والإفصاح، لم يكن عنده ما يمكن أن يخفيه عنها قال:

– داهمني هاجس مُلح، لم أتمكن من التخلص منه.

– قل ما عندك بلا تحفظ.

– خمنت أن اقترابك مني ربما كان بسبب هروب "إيناس" واختفائها من حياتي.

صمتت "رنده" قليلاً بدا أنها سوف تتحدث باستفاضة، قالت:

– أعترف أنك كنت قريباً من نفسي منذ زمن طويل، وقبل أن تهرب "إيناس" كنت أنتظر التوقيت المناسب الذي يشعرني بأنك مُستعد للاستجابة.. أنتظر أن يفيض بك الكيل.

عاد يقول بلهجة استفسار، تستطلع تصورها لعلاقته بإيناس:

– هل اعتقدت أن الكيل فاض بي بعد هروب "إيناس"؟

– لا أظن ذلك.. لا أتصور أن علاقتك بإيناس كانت علاقة حب ولا حتى علاقة مودة.. مركز الانفصال والمشاعر كان قد توقف عندك منذ إلتحاقك بالحزب.. لا تعرف كيف تحب وكيف تسمح لنفسك بالتعبير عن مشاعرك.. إيناس ضحية لجمودك العاطفي، مثلما أنت ضحية لوحشية الحزب.. كلنا ضحايا.. ضحايا لجريمة سياسية، ترتكب في حق الإنسانية بمهارة واقتدار.. بمهارة أنبياء يمكن أن نسميهم أنبياء الخراب.. كلاهما لم يذق طعم الحب ولا نعمة السلام مع النفس والغير.

شهق طارق، سألها بدهشة وذهول:

– هل تقرأين الكف؟! كيف تستطيعين قراءة أعماق النفوس إلى هذا الحد؟

– هل نسيت أنني خريجة قسم علم نفس، وحصلت على دراسات عُليا؟

– هل تعتقدين بأن "إيناس" تصرفت بطريقة مقبولة؟

–"إيناس" مارست حقها في الحرية والتحرر بالطريقة التي تناسب تفكيرها.. تحملتك وتحملت الحزب قدر ما استطاعت.. لم تجد مفراً سوى الهرب من جحيم لا يطاق.. من نظام يتهمها بالعمالة ويلفق لها جريمة خيانة زوجية.. شغلتني قضيتها فتابعتها بكل التفاصيل.. لم يكن أمامها سوى الانتحار، أو اللجوء إلى من

يحميها.. تحول اهتمامها بحقوق الإنسان إلى نكتة سخيفة.. لم تتوقف أنت لحظة واحدة لفهم أفكارها واستقراء مشاعرها.. ما كان لمحبة مثلي أن تقول لك ذلك.. نحن الآن طلاب حقيقة.. لا نريد أن نحرّم الحقيقة مثلما يحرّمها الحزب.. الحقيقة هي رحيق أزهار الحب.. أكاذيب الحزب هي طعام العقول والقلوب.

حاول طارق أن يستجمع أفكاره بصعوبة بالغة، أمسك برأسه كأنما يريد أن يوقف دوامة أفكار ومشاعر توشك أن تطيح بتوازناته، قال كأنما يكلم نفسه:

– أحتاج لبعض الوقت لاسترجع ما سمعته واستخلص منه العبر.. أحس برنين منذر.. بهدير إرهاصات انقلاب شامل في حياتي.. لا أعرف إلى أين يقودني هذا الانقلاب.. هذا الرنين.

– هو رنين صوت الحب.. العصفور يزقزق بين ضلوعك.. بشائر النصر على الحزب.

لم تمهله طويلاً، خلعت ملابسها بهدوء، دعته إلى خلع ملابسه، تردد قليلاً.

رجاها أن تملهه بعض الوقت حتى يستعيد هدوء عقله وينوم أفكاره المتوهجة.

احتوته في صدرها، أخذت تقبله بشغف وحمية قادته إلى السرير وهي تقول بعذوبة وإغراء: "لواعج الحب تعطة العقل إجازة

إجبارية.. إجازة من عذابات العقل.. من أكاذيب إعادة كتابة التاريخ والإعـلام المُزيـف وإجـازة المؤلفـات التـي تمجـد مـا لا يـستحق التمجيـد" امتـدت يـدها لتطفـئ "الأبـاجورة"، رجاهـا ألا تفعـل، كـان يرغب في تأمل ملامح وجهها الجميل، وهو يمارس أشواقه العارمة في ظل ضوء خافت.

جرى بحث عدة موضوعات بين "جودت سليم" (كبير الأمناء) ومُستشاره الأول "طارق زيدان" الذي بدا متحفظاً بعض الشيء في وجهـات نظـره، بمـا لا يثيـر شـكوك "الأخ المُلهـم" الـذي أضـيف لأوصافه صفة "الأخ الصالح"، جمع "طارق" لأول مرة بين السياسي المُحترف والمُحب العاشق الولهان..كان عليه أن يقيم جداراً فولاذياً بين الصفتين وهو في حضرة "الأخ الصالح" حلت اللحظة المناسبة ليقـدم "طـارق" مـا يريـد أن يعرضـه، عنـدما أوشـك الاجتمـاع علـى الانتهاء وضع طارق فوق مكتب الكبير دراسة مُستفيضة عن ظاهرة الأحياء العشوائية، وتحدّث بتركيز عن خلاصة هذه الدراسة، ثم قال بعقلانية محسوبة: "أرى أنه من المناسب معالجة هذه الظاهرة قبل أن يـستفحل أمرهـا وتـسبب لنـا مـشاكل عويـصة، وأزمـات تستعـصي على الحل، لاسيما أن هـذه الأحيـاء تحيط بالعاصـمة وتجعلهـا فـي حالـة حـصار بمـا لا يحمـد عقبـاه.. المطلـوب تطـوير هـذه الأحيـاء وتقـديم الخـدمات اللازمـة وتحـسين أحـوال سُـكّانها". رمقـه الكبيـر

بحالة من الدهشة والاستغراب، قال باستخفاف: "يبدو أنك أصبحت تعطف على حال الفقراء والمساكين.. هل ترى أننا مقصرون في إرساء دعائم العدالة الاجتماعية؟". عاد يقول له بسخرية مُلفتة: "سوف يصفق لك "همام خاطر" عندما يعرف أنك تقدمت بهذا الاقتراح". توقع طارق مثل هذا الارتياب، ولكنه كان يعرف ماذا يريد أن يقول ولمن يقول، عاد يقول بكامل الثقة والاطمئنان:

- أنت تعرف أننا نضع مصلحة الحزب في المرتبة الأولى من الأولويات.. نحن نفعل كل ما يصب في مصلحة الحزب.. إزالة هذه العشوائيات مشروع قومي وإستراتيجي لا يحتمل التأخير.

قال الكبير بتوتر واستنكار:

- هل تعرف كم يكلفنا مشروعك هذا؟

(بسخرية) مشروعك هذا الذي نزل به الوحي عليك في المنام.. هذا المشروع يُكلفنا عشرات الملايين.

- ومع ذلك.. لابد من إنجازه.. المصلحة العليا للنظام تُحتم ذلك.

- هل عندك فكرة عن عجز الموازنة الذي يصل إلى عدة مليارات؟!

- ومع ذلك لابد من إنجازه.. سيكون في ظاهرة أعظم دعاية لتفاني الحزب في العطف على المحرومين.. سنكلف الإعلام بالطنطنة له

عدة سنوات مما يخرس همهمات أعوان "همام خاطر"، ويذهب بحججهم وشعاراتهم إلى بئر النسيان.

صمت الكبير لحظات، ثم قال وهو ما بين الاستجابة والتردد:

– وماذا عن باطن المشروع؟

– سُكّان هذه الأحياء هم بمثابة قنبلة زمنية موقوتة.. لا أحد يعلم متى تنفجر، ولا حجم الدمار الذي يمكن أن تلحقه.. لو أن هذه الملايين ضاقت بحياتها، فزحفت على العاصمة ونامت على أرصفتها عدة أيام، أو تهورت فنهبت المحلات و"البوتيكات" و"المولات" والمعارض ومحلات الذهب والفضة، أو جنّت فأحرقت ما تطوله أيديها لأصبحنا نواجه كارثه لا حل لها، وهكذا تنهار مصداقية الحزب وتدخل في مسلسل تنازلات لا قبل لنا بها، وربما تعاد كتابة التاريخ بما هو في غير صالحنا، ولن ينفعنا إعلام زائف ولا أمن صارم.

استغرق الكبير في تفكير عميق، ثم قال بلهجة متعقلة:

– هذا أمر يستحق المراجعة والتفكير.

– أعتقد أن بضعة ملايين جائعة من الناس تستحق بضعة ملايين من الجنيهات، ولو كزكاة أموال.

أنهى الكبير الجلسة بقوله:

– دعني أتشاور مع وزير المالية وأُبلغك بالقرار، لتحرر صيغة الإعلان عن هذا القرار الإستراتيجي.

ذهب طارق إلى "العش" في الموعد المحدد، استقبله الحاج "ريان" بكل الود والترحاب، تحولت المعرفة بين مالك ومُستأجر إلى علاقة عشم وصُحبة ودودة، قدم له "طارق" أكياس اللب والفول السوداني والحمص التي حملها معه، قال له "ريان" وهو يتقبل "الطرفة": "لم تعد لي أسنان.. أخاف على "الطقم" من هذا اللب المستورد من تركيا، استغرق في الضحك وعاد يقول: "لست جاهلا كما تتصور.. أعرف ما يجري في دنيانا"، ربت طارق على كتفه وقال له بسعادة: "أريد أن أزف إليك خبراً مُفرحاً.. قررت الحكومة نقل سكان الحي إلى مساكن شعبية، حتى يتم إعادة تجديد الحي وتطويره وإدخال الخدمات اللازمة". لم يفرح "ريان" بالخبر، قال بقلق واضح: "لن أترك بيتي الذي أملكه.. على جثتي.. هذا وطني الذي أضمن بقاءه.. هذا بيت أجدادي الذي أريد أن أتركه لأحفادى" طمأنه طارق بأنه يمكن أن يعود إليه بعد تجديده، قال ريان بصراحة قاطعة: "أنا لا أثق في كلام الحكومة".

دخل طارق إلى الغرفة، وضع ما يحمله فوق المنضدة، كان هذه المرة الذي يحمل الأطعمة الفاخرة التي جلبها من "جروبى" و"كنتاكى"، وصلت "رندة" ببشاشتها المعهودة، تلقاها طارق

بالأحضان والقبلات، تخففا من بعض ملابسهما طلب منها أن تعد له مشروب "نسكافيه" وتشاركه في نفس المشروب، أخذا يتبادلان حديث الوحشة وهما يأكلان وجبة اليوم الرئيسية، لم يشعرا بمرور الوقت، قال لها وهو يشعل سيجارة: "قمت منذ يومين بتجربة فريدة.. تجربة لم أقم بها من قبل". أصغت له بأذنيها فعاد يقول:

– قررت أن أقدم خدمة إنسانية للمهمشين القانطين في العشوائيات، تحت غطاء خدمة أمنية توافق هوى أباطرة الحزب.

قالت بمزيج من الاستغراب والفضول والقلق:

– كيف تم ذلك؟.. ألم تخش انكشاف أمرنا؟

حكى لها ما دار بينه وبين "الأخ المُلهم" بشأن العشوائيات، طمأنها بأنه حظى بإعجابه وتقديره، وأنه هكذا رضي عن نفسه نصف الرضا، عندما نجح في الجمع بين خدمة الدهماء وخدمة الحزب، وقد رأى في هذا الحل الوسط طريقاً يناسب ظروف المرحلة، عاد يقول بتمن ورجاء:

– لو أن الحزب قبل تحقيق التوازن بين المصلحة العامة ومصلحته، لضمن البقاء بأقل التكاليف وجرّد أعدائه ومعارضيه من أسلحتهم.

– أنت تحاول خداع الحزب بطريقتك.. لكنني لست مطمئنة إلى دوام السلامة..

عادت تقول بلهجة عامية:

– مش كل مرة تسلم الجرة.

– اطمئني.. أنا أعرفهم أكثر مما يعرفون أنفسهم.. نحن شركاء في الشر.. لا يعرف الشرير إلا شريراً مثله.

– هم يقرأون الأعماق ويعدون الأنفاس وسقطات اللسان، قبل أن يجمعوا القرائن والأدلة.. يراقبون أصدقاءهم أكثر مما يراقبون أعدائهم.. الكل يراقب الكل والأعداء في نعيم.

عاد يقول لها، بعد أن قبلها قبلة حارة:

– إنني مدين لك بكل ما أشعر به من سعادة ورضا.. أستلهم حبنا لاستشراف الأمل، وعدم التورط في أخطاء أو سقطات غير محسوبة.. لا تقلقي.. كوني أنت أيضاً حذرة.

قالت "رنده" وهي تلقى برأسها على صدره:

– هل تعتقد أن ما نجحنا في تحقيقه يمكن أن يدوم؟

قال وهو يساوي لها شعر رأسها، وبلهجة يقين قاطعة:

– لم يعد من الحكمة التفكير في التراجع.

توجه "طارق" نحو مكتبه في البيت، بعد أن تناول غداءه ليحتسي قهوته المُعتادة ويعيد قراءة الصحف والمجلات على مهل، ويستخرج منها ما يستحق الإهتمام والتسجيل، لاحظ خطاباً

موضوعاً فوق المكتب، تأمل الأختام فأدرك أنه وصل بالبريد، قص الخطاب ، وقرأ سطوره القليلة الموقعة باسم "زايد قطب" فانتابه شعور بالدهشة والاستغراب، زايد قطب (مرسل الخطاب) يدعوه لزيارته في بيته، الذي كتب عنوانه في الخطاب، حاول أن يتذكر صاحب هذا الاسم، ولكنه لم يفز بطائل، أخذ يحك الذاكرة بإلحاح فرجّح أنه ربما يعمل معه في وزارة الحقيقة، وضع الخطاب وأخذ يخمن مضمون الدعوة، وما إذا كان سيقبلها أو يتجاهلها، وسُرعان ما انتابه فضول جامح لمعرفة سبب الدعوة، وما يمكن أن تحمله في نوايا حسنة أو سيئة، حرص في البداية على معرفة هوية "زايد قطب"، عندما يذهب إلى الوزارة في الصباح، استدعى مدير الاستعلامات وسأله عن المدعو "زايد قطب"، طلب المدير مهملة، جاءه في اليوم التالى ليخبره أن هذا الشخص يعمل في قطاع الإعلام بالوزارة، هكذا انحل نصف اللغز وبقى النصف الثاني، لماذا يدعوه إلى بيته بعيداً عن الأنظار والأضواء والرقابة؟

لم ينجح في كبح فضوله، فقرر أن يستجيب للدعوة، فربما يعرف شيئاً يستحق المعرفة.

ذهب إلى البيت حسب العنوان، دق الجرس، فتح الباب رجل يافع في أواسط العمر، ممتلئ الجسم ممشوق القوام، تشي ملامح وجهه بذكاء ويقظة وحيوية، استقبله بترحاب يؤكد أنه يعرفه، لم يكن

"طارق" قد رأى هذا الشخص من قبل قرر أن يتمهل في الحكم حتى يتأكد أنه الداعي، تبعه إلى الصالون، سأله عما يشرب، طلب فنجاناً من القهوة، توجه الرجل نحو المطبخ، دار طارق بنظرة وأخذ يسترق السمع، لاحظ عدم وجود أي شخص آخر في البيت.

عاد الرجل حاملاً القهوة، وضعها أمام طارق وجلس في مواجهته وهو يقول:

– أعرّفك بنفسي.. زايد قطب أعمل في قطاع الإعلام.. أعمل معك في وزارة الحقيقة.. يشهد لي الجميع بكفاءتي وإخلاصي في عملي.. أعرف ما يجب عمله وأنفذه بإتقان ومهارة حرفي واع.

لم ينتظر أن يعرفه طارق بنفسه قال بذلاقة لسان:

– لا داعي لأن تعرفني بنفسك.. الكل يعرف السيد "طارق زيدان".. أنت محل تقدير واحترام الجميع.. عمود الحزب الذي لا يشق له غبار، ولا يمكن الاستغناء عنه.

ظل "طارق" في وضع المُستمع، لم يشأ أن يتفوه بكلمة قبل أن يعرف سبب الدعوة، صمت "زايد" قليلاً، ثم عاد يقول بلهجة متزنة تتصف بالتعقل:

– أنت رجل نبيل وشريف، والكل يشهد لك بذلك.. لم يسمع أحد أبداً بأنك وشيت بزميل أو صديق أو مرؤوس.. أنت تقوم بواجبك

خير قيام، وهذا لا يعيبك.. صفة الأمانة التي تتحلى بها تقتضي ذلك.. من حقك أن تكون لك رؤيتك وحساباتك العامة والخاصة.. من حقك أيضاً أن تُعيد النظر في رؤياك إذا اقتضت الأمور ذلك.

قال طارق بانضباط صارم، وهو يتعجل لب الموضوع:

– وماذا بعد؟

لم ينتظر "زايد" طويلاً وقرر أن يدخل في صلب الموضوع.

– أرجو ألا تزعجك المفاجأة.. أنا أنتمي لصفوف المعارضة منذ فترة برغم عملي في صفوف الحزب.. أرجو ألا تسيء فهمي فتنتابك الشكوك والوساوس.. ليس من طبعي أن أقوم بأعمال قذرة.. لم أعُد أحتمل ما أقوم به ببراعة شيطان، بدأ حياته ملاكماً ثم احترف الشر.. أعترف بأنني انقلبت على نفسي، فضقت ذرعاً بتعليمات الحزب وسئمت مُجمل سياساته، وأصبح لي طريق آخر.

صمت "زايد" قليلاً، فعاد طارق يقول له بمزيد من الحرص والانضباط:

– وماذا بعد؟

– بدون لف أو دوران.. أنا أُدين بالولاء لأفكار "همام خاطر".. أعرف أنه العدو الأول للحزب، ولكنه الصديق الصدوق لعامة الناس.. يلتزم بعدالة التوزيع والديمقراطية وحقوق الإنسان.. يملك

برنامجاً تفصيلياً واضحاً لمشروع وطني يتحدى به أعداءه.. لم تعد الأوضاع تسمح بالتلكؤ والانتظار.

– هل مازال "همام خاطر" حياً يرزق؟

– هذا سؤال استخباراتي.. ومع ذلك سأجيبك عليه.. "همام خاطر" موجود في كل مكان.. موجود بين الناس في بيوتهم وأعماله في قلوبهم وصحوهم ومنامهم.. موجود بأفكاره فوق الأرض وتحت الأرض، هناك من يبحثون عن جسده ليحولوه إلى جثة هامدة.. يتناسون أن المشكلة في شعاراته وبياناته وتوصياته التي لم يعد من الممكن حبسها في قمقم.. أفكاره منتشرة في دول الجوار... عاد يقول له بجرأة واندفاع:

– هل أجبتك على سؤالك؟.. هل من أسئلة أخرى؟

– لماذا قصدتني ودعوتني لتُعلن لي موقفك؟

– هذا سؤال جيد.. أثق ثقة عمياء أنك لن تشي بي بحكم شواهد لم تغب عن فطنتي.. هناك من يعملون في الحزب ويعارضونه في الخفاء، وربما تعرفهم.. ومع ذلك لم تتعرض لهم بالتوقيف أو الإدانة والمحاسبة.. هناك شواهد أخرى أوحت لي بأنك غير راض عما يجري وعما تقوم أنت به لمجاراة الواقع.. تحلم بتحقيق توازن مستحيل بين الشيء ونقيضه.. أنت في حاجة إلى قشة تُغريك

بالغضب والاحتجاج وشق عصا الطاعة.. اعتبرني هذه القشة.. لا تطلب من الآن تفاصيل كثيرة.. امنحني شرف التجاوب مع موقفي، ثم نفكر في ترتيب الخطوات.

دارت الأفكار في رأس "طارق" دوران شلال جارف يزيح الكثير من العوائق والمصدات، لم يكن وارداً في هذه اللحظة أن تبدو منه بادرة ستجابة أو حماسة أو مجرد تعليق، قبل أن يفكر طويلاً ويُعيد حساباته، حتمالات العرض كثيرة..فيها ما هو مُزعج وما هو مُبشر.

لم يستطع أن يقاوم أسئلة ألحت عليه، عاد يقول:

– هل هناك الكثير من أمثالك داخل الحزب؟

– هذا سؤال مُبكر.. دعني أجيب عليه بعد أن تتوثق الصلة بيننا، عاد يسأله بشكل مباشر:

– ألا تخشى من وجود أجهزة تنصت في بيتك؟

– هذا سؤال متوقع.. يمكنك أن تطمئن تمام الاطمئنان.. أنا بحكم عملي في الإعلام المرتبط بطبيعة الحال بأجهزة الأمن، خبير بكل أشكال التسمع والتنصت والمراقبة وأساليب جمع المعلومات من مصادرها المُعلنة والخفية.. أنت أول من يعرف ذلك.. عندي من

الأجهزة ما يؤكد نظافة البيت من الأجهزة المشبوهة.. أجهزة ضد أجهزة.

لم يعد عند "طارق" سؤال يقدمه أو كلام يقوله،قال وهو ينهض:

- أنت أول من يعرف أنني في حاجة إلى مهلة للتفكير.. دعني أفكر ثم أعاود الإتصال بك.

قال "زايد" بلهجة تحذيرية واثقة، وهو يشير إلى "ولاعة" سجائره:

- تذكر أنني واثق من عدم تسجيلك لهذا الحديث.. أنا في انتظار استجابتك.

اتجه "زايد" نحو منضدة قريبة، حمل كتاباً من فوقها، وعاد إلى طارق وهو يقدمه له بإعجاب وافتخار:

- هذه نسخة من آخر كتاب للمناضل "همام خاطر" يفسر فيه ما آل إليه الحال، ويعرض أفكاره السياسية، ومشروعاته لصُنع مستقبل واعد أرجو أن تقرأه بعناية واهتمام.. سوف يقدم لك إجابات شافية عن كل ما يدور حولنا.. ويدور في خاطرك!

أخذ "طارق" الكتاب وانصرف دونما تعليق، لم يكن مُنزعجاً من شبهة ما يمكن أن يترتب على هذا اللقاء، فهو لم يفعل شيئاً ولم

يُعلق على ما سمعه، ثم إن "زايد قطب" بدا متحسباً لكل الاحتمالات.. يعرف كيف يحمي نفسه، ويتصرف ببراعة معارض يعرف كيف يطرح أفكاره، هذا إذا لم يكن عميلاً من طراز رفيع.

لم ينجذب طارق إلى كتاب مثلما انجذب إلى كتاب "همام خاطر" (طريق المستقبل)، قرأه في ليلة واحدة بعد لقائه بـ"زايد قطب"، أعاد قراءته في الليلة التالية، أدرك أن مذكراته السرية لا تعدو أن تكون إلا محاكاة لفصل من فصول هذا الكتاب، الكتاب يتحدث عن تآزر الحزب وجهاز الأمن في إدارة شئون البلاد، بهدف الإبقاء على الهيكل الاجتماعي داخل الدولة على ما هو عليه دون تغيير، أي تكريس اللامساواة والقهر، "وهكذا تخلى الناس عن الحلم بتحقيق الفردوس على هذه الأرض، في اللحظة نفسها التي أصبح فيها تحقيق هذا الحلم ممكناً"، تحدث الكتاب أيضاً عن شغل الجماهير العريضة بالحروب المحلية والصراعات الدولية وخناقات النوادي الرياضية، وكؤوس كرة القدم المحلية والإقليمية والدولية، وأفلام الجنس والعنف وتعاطي المخدرات، وأخبار الفنانين والفنانات، والمؤلفات التي تشيد بالواقع وتتهم المعارضة بالتطرف والإلحاد والفتنة الطائفية والمذهبية، وتهديد الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي والاستقرار الذي ليس في صالح الأغلبية التي يهدف النظام – بحرفية مُحكمة – إلى تحويلها إلى أغلبية صامتة.

الكتاب يتحدث أيضاً في أحد الفصول عن مُجمل أوضاع دول الجوار، فيقول إن نظام الحكم ونمط النظام الاجتماعي وطبيعة الحياة فيها كلها تكاد تكون واحدة ومتشابهة، برغم التسميات المختلفة مثل ممالك وإمارات وجماهيريات عظمى، ويتعذر تمييز إحداها عن الأخرى، فالبناء الإجتماعي الطبقي واحد، حيث تسيطر قلة في القمة على سائر الناس، وتستأثر بالسلطة والامتيازات وتمارس نفس طقوس عبادة القائد الأوحد المُقدس، ولا مانع من الاستفادة من إشعال الحروب بين دول الدين الواحد أو القومية الواحدة، والتنافس في تمويل أطراف الصراع في حروب أهلية، وتخزين أسلحة بمليارات الدولارات واليورو، لم يسمع أحد بأنها استخدمت للدفاع عن حياة الوطن وإيداع معظم عائدات النفط في بنوك أجنبية دون استثمارها في مشروعات محلية أو إقليمية.

الكتاب يتحدث أيضاً عن الدول التي اعتمدت النظام الاشتراكي، والأخرى التي اعتمدت نظام الاقتصاد الحر الديمقراطي في الشرق العربي والإسلامي، والدول التي لا يعرف أحد كيف يصنف نظامها. الكتاب يقول إن هذه النظم المفبركة هي بمثابة نظم شائعة، هي أبعد ما تكون عن جوهر الاشتراكية أو الرأسمالية، بعض النظم تمسحت في ذيول الاقتصاد الحر وشريعة الديمقراطية، فلم تأخذ منها سوى تراكم الثروة في أيدي قلة وشيوع مؤسسات الفساد،

وحكم الحزب الواحد تحت غطاء التعددية الحزبية، وحرية الإعلام والتعبير برعاية مباركة الجهات الأمنية. بعض النظم آثرت السلامة فتجنبت ما سمّته بدع الأنظمة العلمانية الحديثة، وآثرت العودة إلى ماضي الأسلاف باسم الحاكمية وشرعية الخلافة، كل هذه النظم تربعت فوق عروشها أرستقراطية جديدة، تتكون من البيروقراطيين والسياسيين المحترفين وقادة النقابات وخبراء الإعلام والفنيين والصحفيين.

وقع طارق في حيرة شديدة من أمره، كل ما قاله "زايد قطب"وما ورد في كتاب "همام خاطر" مقنع وصحيح، ويكاد يتطابق مع أفكاره السرية ولكن !.. كيف سيتعامل من الآن مع "كبير الأمناء"، مع "زايد قطب"، مع "راندة" مع نفسه بالدرجة الأولى؟ شعر بأنه في حاجة مُلحة ليسجل انطباعاته وإرهاصات الموقف الجديد في مذكراته السرية كشهادة على عصره، قد تفيد البعض في مستقبل الأيام، ثم إن الكتابة في حد ذاتها غالباً ما ستلهمه بما سوف يستقر عليه رأيه.

هكذا أمسك بالقلم وأخذ يكتب في هدأة الليل، وفي غياب الرقيب:

"أعترف بأنني لا أختلف كثيراً مع رؤية "زايد قطب" و"همام خاطر".. الذي يحيرني الآن، هل وقع كتاب "همام خاطر" في أيدي

رجال الأمن أو رجال الحزب؟.. لو أن ذلك حدث لكنت قد عرفت من "كبير الأمناء" حيث كان سيطلب مني تنفيذ أفكار الكتاب، والرد عليه في حملة ضاربه من حملات إعادة كتابة التاريخ.. لا استطيع أن أتحرى عن هذا الموضوع من كبار المتعاونين معي، فهذه شبهة لا تحمد عواقبها.. لو أنني لم أبلّغ "الأخ المُلهم" بخبر هذا الكتاب، فهذه جريمة عقوبتها الإعدام.. ثم إن عملية الإبلاغ سوف تعني رفضي للتعاون مع "زايد قطب" إذا افترضت أنه ليس عميلاً للنظام.. إنني أجد نفسي مدفوعاً بدوافع حقيقية للتعاون مع "زايد" ما دُمت أبحث عن طريق لخلاص المجتمع بأسره.. ولو انكشف أمري فسوف أقول إنني كنت أستدرج "زايد" للإيقاع به في حبائل مصيدة.. ولو أن تعاوني أدى إلى تغيير الأوضاع، فذلك هو النصر الحاسم المؤزر.. وماذا عن رندة؟.. هل أبلغها بأمر هذا اللقاء الخطير؟ .. هي تريد أن تعيش وأن تحب.. هي تكره الحزب وتريد أن تخدعه.. ولكنها في الوقت نفسه تعتبر الثورة ضده حماقة كبيرة لا تحمد عقباها.. القلم يتوقف في يدي.. أبحث عن إجابة.. وجدتُها.. لا داعي لابلاغها الآن بأمر "زايد" وأمر الكتاب.. لست مستعداً لتدمير "عش الحب".. ذلك هو انقلابي الأول على جبروت الحزب.. سوف يأتي الوقت المناسب لابلاغها، ولكن ليس الآن.. هناك أمر غريب أصبح يحيرني ويشغلني بإلحاح.. "رندة" من الحزب

وقد انقلبت عليه بطريقتها.. "زايد" من داخل الحزب وقد انقلب عليه.. من المؤكد أن هناك غاضبين كثيراً داخل الحزب يفكرون في الانقلاب عليه.. هل يأتي الانقلاب المنتظر من داخل الحزب؟!.. أو يأتي من تحالف خفي بين الغاضبين من داخل الحزب وخارجه؟!.. هناك أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابة.. الإجابة ليست حاضرة الآن.. ربما تأتي الإجابة في مقبل الأيام.. أعترف بأنني انتظرت طويلاً.. أجد نفسي مُرغماً على التخلص من حالة ازدواج الشخصية.

وصل "طارق" إلى "عش الغرام" قبل الموعد بنصف ساعة كالعادة، يبدو أنه قد ألزم نفسه بتخصيص نصف الساعة لحديث ودود مع الحاج "ريان"، ما أحدث ألفة حميمية رفعت الكُلفة بين الإثنين رغم الفارق الاجتماعي والثقافي، طارق يسأله عن أخبار الحي، وريان ينتهز الفرصة ليبدد وحدته المزمنة بحديث لا يتوقف إلا كلما قاطعه طارق بسؤال أو غير موضوع الحديث، انتهز "ريان" لحظات صمت مؤقته ليسأل طارق بلهجة تشي بالعشم وحُسن النية: "واضح أنك أنت والست "رندة" من أكابر الناس.. اللبس والكلام والذوق والإنسانية.. ما الذي يدعوكما لقضاء وقتكما الطيب هنا في هذا البيت البسيط، وفي هذا الحي الشعبي؟.. أعتذر عن السؤال إذا كان مُحرجاً.. مجرد سؤال بحكم المودة والعشم.. أنا سعيد

بوجودكما معي.. بددتم وحشتي.. أتمنى أن تبقو معي حتى ترسلوني إلى قبري. قال طارق بنفس المودة وباقتضاب:"إنهما يفضلان البُعد عن الضجيج والزحام، ويتجنبان تعقيدات حياة البهرجة ومستلزمات المعيشة الراقية الحديثة، لم يشأ أن يقول أكثر من ذلك وقد انتابه شعور بالقلق العابر والتوجس من السؤال.

وصلت "رنده" حاملة ما لذ وطاب من طعام وشراب، تناولا طعامهما بلذة واستمتاع، وهما يتبادلان حديثاً ليناً ومشاعر متدفقة خالية من أي حرص أو مراجعة، فضّلا تناول كوبين من مشروب النسكافيه وهما يواصلان الحديث الشائق، سألها عن نشاطها في العمل، فقالت إنها تمارسه بنفور أقل بعدما نجحت في خيانة الحزب، شردت "رندة" قليلاً، ثم قالت بنعومة منحوطة:"هل يغضبك أن أسأل عن أخبار ولديك أيمن وهشام؟.. من حقك أن تمتنع عن الحديث". لم يبد عليه الضيق من السؤال، استغرق قليلاً في التفكير، شملها بابتسامة عريضة ودودة ثم قال:

– قد يدهشك أن أعترف لك بأنني لم أشعر بعاطفة الأبوة نحوهما.. عملي في الحزب وإلتزامي بتعليماته أفقدني – دون وعى مني– أي إنتماء حقيقي للزوجة والأبناء.. تعاملت معهم كأغراب، لا تربطني بهم صلة قربى.. لم أتعمد ذلك وإنما هذا ما حدث.. ليس لي

أصدقاء.. الصداقة كما تعرفين مُحرمة لأنها مصدر ريب وشُبهات.. لم أدخل في عباد الله ولم أسمح بأن يدخلوا في. تورط أيمن في التطرف وهشام في الفساد لأنني لم أرعهم الرعاية المطلوبة.. أصبح من الصعب إنقاذهما مما تورطا فيه وما لحق بهما من عقاب.

– اعترافك هذا يشي بتحول في مشاعرك.. ربما تكون قد راجعت نفسك.. قد تنبهت إلى حقائق جديدة.

– هذا بفضل حبّنا المُتبادل.. بفضل الانقلاب الصامت الذي نعيشه.. بفضل مشروع خيانتنا للحزب.

– ألا تفكر في إنقاذهما بشكل أو بآخر؟

– حاولت معهما وأنا ألتقيهما في سجنيهما ذات مرة، بدافع تبييض صورتي أمام الغير.. أبديا أنهما يعرفان ماذا فعلا، وكيف يمكن التعامل مع السلطة دون وصاية مني.. أظنك تعرفين الاتهامات والأحكام التي صدرت بحقهما.

– أعرف بالطبع.. وسائل الإعلام قامت بدورها بشكل انتقائي، لا يتعارض مع القرار المبيت سلفاً مع المعلومات التي يسمح بها الحزب بموجب ديمقراطية عرجاء.

عادت "رندة" تطلب مزيداً من التفاصيل، فسألته:

– وماذا كان موقف أيمن؟.. أعرف أنه مُتهم بالتطّرف والإرهاب.

– نبهته إلى أنه وقع ضحية غسيل مخ.. وعدني بالتوبة إذا تخلصت أنا من غسيل المخ الذي حدث لي.

قالت "رندة" بإعجاب وانبهار:

– هذا تعبير رائع.. معظم ذوي العقول النابهة من رموز الطبقة المتوسطة وقعوا ضحايا لغسيل المخ.

– أعترف لأيمن الآن أنه كان مُصيباً في فهمه لحالتي.

– وماذا كان موقف هشام.. أعرف أنه مُتهم بالانحراف والفساد.

– إعترف لي بأنه نقل "نقلة" خاطئة في دور شطرنج حساس بينه وبين الحزب.. وهو بصدد لعب دور جديد، لا يكرر فيه "النقلة" الخاطئة.

– وهل عرفت مضمون "النقلة" الخاطئة؟

– ظن أنه يستطيع – بما امتلكه من سلطة وثروة ونفوذ – أن يناطح إرادة الحزب.. كانت هذه السقطة.

عادت "رندة" تقول بانفعال هائل:

– هذا انتهازي رائع. يعرف كيف يعمل لحسابه الشخصي.. يدرك ألا مفر من حدوث بعض الأخطاء.. والألمعي النفعي يعرف كيف يتجاوز الخطأ، ويواصل اللعب.

– ربما أكون من أنصار مدرسته دون أن أدري.. أنا الآن أناطح الحزب.. ولكني أتساءل.. هل يكون خطئي قابلاً للعفو والغفران.. هل هي نقلة خاطئة أم خيانة عظمى؟!

– الحب خيانة عظمى بالتأكيد.

– أتساءل بلا انقاطع في يقظتي ومنامي.. هل ما نجحنا في تحيقيقه يمكن أن يدوم؟!

أصبحا في حاجة إلى الاسترخاء، الاسترخاء الذي يترتب عليه خلع ملابسهما، تبادلا بحنان وشبق خلع الملابس، إنهمكا في شوق عارم في تبادل الأحضان والقُبلات. شوق يجمع بين الحب والشهوة في تناغم جميل.

كان طارق قد انتهي من قراءة كتاب "همام خاطر" للمرة الثالثة، تذكر ما قاله له "زايد قطب"، من أنه يحتاج إلى قشة تغريه بشق عُصا الطاعة، وهو (زايد) يسعى للحصول على شرف تجاوبه مع العُصاه من أمثاله، وجد طارق نفسه متجاوباً – بعقله وقلبه – مع دعوة "زايد" لتغير الواقع، لم يشغل نفسه بالتفكير في المخاطر والعواقب، استبد به إحساس عارم بالتهور والاندفاع، لم يعد يملك دواعي تراجع، هكذا قرر أن يواصل لقاءاته مع "زايد"، لم يشأ أن يدعوه إلى بيته تحُسباً لاحتمالات المراقبة والتحري التي يعرفها تمام

المعرفة، فضّل أن يلتقيه في بيته هو، وقد اختزن في عقله إجابة لمُبررات الاتصال والتزاور والحوار، فالمعروف أن "زايد قطب" عضو بارز في الحزب، وهو يعمل معه في قطاع الإعلام بوزارة الحقيقة، وفي هذا غطاء كان لتبديد الشُبهات.

حدد موعداً مع "زايد" وذهب لمقابلته في بيته، رحّب به زايد بحرارة بالغة وهو يستقبله ويدعوه إلى الصالون الوثير، قال له بارتياح:"لم يخب ظني فيك.. أعدك بأنك لن تندم على هذه الاستجابة.. ربما نحتفل في الوقت المناسب بما سوف تحققه من إنجازات". بدا "طارق" متوافقاً مع ما سمع، بما يشي باستجابة ضمنية، سرعان ما تحولت إلى إعلان موقف عندما قال:"نحن نعمل لصالح الناس.. وهذا عمل مشروع إذا إلتزمنا يتجنب العُنف والفوضى وسفك الدماء والعمالة لقوي خارجية.. نحن مُلتزمون بالشرعية الدستورية في المفهوم الصحيح لبنودها، وليس في تطويعها لخدمة الحزب، شرعيتنا مُستمدة من حق التظاهر والاحتجاج والاعتصام وحرية التعبير.. حق المطالبة بحقوق الناس بموجب إرادة الناس.. هذا في رأيي هو جوهر التغيير الذي ننشده بشكل سلمي لا يخلو من تصميم".

صفّق "زايد" بحماس وإعجاب، ثم قال بارتياح:

- هذا إعلان رائع يصلح أن يكون شعاراً لما ندعو إليه.. يبدو أنك قرأت كتاب "همام خاطر" بعناية.. نحن دعاة حرية وعدالة وسلام بالطرق السلمية، وبموجب حق تداول السلطة بالطريق الديمقراطي.

أخذ يتحدثان في قضايا كثيرة وموضوعات تتعلق بالشأن الجاري، وما يمكن تنفيذه من إجراءات لكسب المزيد من المتعاطفين مع التغيير المأمول، حرص طارق على أن يكون داعية تغيير بالوسائل الديمقراطية من خلال آرائه ومقترحاته وتعليقاته، وكان هذا ما يؤمن به، وتلك كانت قناعاته، لم يكن من قناعاته أن يتخذ موقف الخائن أو المُتآمر على النظام الذي ينتمي إليه والذي يفترض أن يكون مواليا له، ولو أنه وجد هامشاً متاحاً لحق الاختلاف وتبادل وجهات النظر مع المسؤولين وأصحاب القرار، لما أصبح في حاجة إلى التعاطف مع "همام خاطر" و"زايد قطب".

عاد "زايد" يسأله بشكل مفاجئ:

- ألم تفكر مرة في الاستقالة أو طلب التنحي عن عملك؟

قال طارق بلغة رمزية لا يخفي مغزاها:

أنا أسالك نفس السؤال.. ألم تفكر أنت؟

- أعتقد أن إجابتنا ستكون واحدة.. الاستقالة جريمة يحاسب عليها القانون.. ليس من المسموح به أن تغادر القفص بما تحمله من

أسرار، يجب في هذه الحالة أن تختفي الأسرار مع حامل الأسرار.. إلا إذا كان التنحي قراراً من صاحب القرار، وبحسابات نظرية الأمن والأمان، وتوافق العازل والمعزول.

- أكتفي بإجابتك.. واضح أنك خبير بكواليس العلاقات التحتية.

عاد زايد يسأله:

- كيف تتعامل الآن مع رئيسك.. مع كبير الأمناء؟

أجاب طارق بلغة رمزية موحية، خالية من التفاصيل:

- لا أمارس معه حق الاختلاف في الرأي وتبادل وجهات النظر، مثلما أفعل معك.

عاد يقول له بظرف ومودة:

- ألست رئيساً ديمقراطياً؟

قال زايد بولاء وعرفان:

- أنا أعتز برئاستك لي.. أحمل لك كل تقدير وعرفان.. كلانا ديمقراطي.

قال طارق بحكمة بالغة، حكمة من استوعب الدرس:

- كلانا تورط في لعبة السلطة.. اكتشفنا الخسائر فقررنا القيام بنتفاضة تصحيح.

لم يكن في ذهن "طارق" ما يطرحه على السيد جودت سليم (كبير الأمناء)، من موضوعات تحتاج إلى إعادة توليف وتركيب الحقائق، بما يتناسب مع حاجات الحزب وتوجهاته، ربما لم يكن راغباً في مواصلة التوليف والبرمجة، بدا الحديث بينهما – هذه المرة – رتبا ومملا، إلى أن قال جودت، وكأنما هبط عليه الوحي:

– عندي إقتراح.. أريد أن آخذ رأيك فيه.

– تحت أمرك.

– أفكر في إنشاء فرع آخر من فروع أمن الدولة.

– أظن أن ما عندنا من فروع يكفي وزياردة.

استغرق "الأخ المُلهم" في التفكير لحظات، ثم عاد يقول:

– الظروف تتغير الآن للأسوأ.. المثقفون بدأوا يرفعون أصواتهم بشكل مُزعج.. يتناقشون دونما حذر أو ضوابط.. ينقدون بعض الأوضاع بجرأة زائدة، لم تكن موجودة من قبل.. يتحلون بشجاعة واندفاع غير محمود العواقب.. هناك حراك فكري واجتماعي، يستوجب ضبطه قبل أن يتحول إلى حراك سياسي.

– يمكننا القيام ببعض الإجراءات اللازمة لترشيد هذا الحراك بما يتناسب مع توجهات الحزب.

- الضبط والإمساك هو المطلوب، ليس الترشيد.. الترشيد هو منطق الضعيف.. أتذكر المثل الذي يقول "الإمساك بعصا غليظة في مكان ظاهر يغني عن ارتفاع الصوت"

تحكم طارق في توتره بصعوبة كبيرة، حاول أن يخفي قلقه قدر ما يستطيع، لم تكن هذه لغة "جودت سليم" التي اعتاد عليها، بدا أنه يتحدث بلغة رمزية، وتلميح بشيء، بأن ما يقوله هو كلام "مباحث" تمننى أن يشق رأس "الملهم" ليكشف عما يدور بداخله، هل وصلته تقارير عن علاقته بـ "زايد قطب" واهتمامه بأفكار "همام خاطر"؟! المسألة تحتاج بعض الوقت للتثبت من ذلك، هل عرف شيئاً عن علاقة الحب التي تربطني بالحبيبة "رندة"؟! قال في نفسه: "على أن أتلمس منتهى الحذر والحيطة في كلامي مع "الكبير"، عاد يسأل الكبير بلهجة استفسار:

- وكيف يمكن تنفيذ عملية الضبط والإمساك؟

قال الكبير بلا مقدمات:

- بإنشاء فرع جديد من فروع الأمن.. فرع الأمن الفكري.

ازداد "طارق" توتراً، وعاد يقول بمجاراة وتقبل ظاهري لفكره:

- هذا اقتراح مناسب، لتجنب التشويش وقلاقل تصادم الأفكار.

– نحن إذن في حاجة إلى تعريف وتشخيص الأفكار المسمومة وشعارات التحريض والإثارة وهوجة التذكير بأمجاد الماضي، ونبذ مكاسب وإنجازات الوضع القائم.

– نحن فعلاً في حاجة لتقنين مهام وسلطات هذا الفرع الجديد للأمن، ليكتسب شرعيته ودواعي إنشائه.

– ومن الذي يقوم بمهمة سن مشروع هذا القانون الجديد؟

فكر طارق قليلاً وعاد يقول:

– أخمن أنك تكلفني بهذه المهمة.

– ومن غيرك يمكن أن يقوم بها؟.. لا يقوم بهذه المهمة إلا أخلص خلصاء الحزب.

عاد "طارق" يفكر قليلاً، ثم قال بما ينفي أي شبهة:

– أنا لا أتأخر عن القيام بأي مهمة يكلفني بها الحزب.. أحتاج لبعض الوقت لتوفير المراجع وعمل الأبحاث وتوليف الأفكار.

عاد "جودت سليم" يقول له بلهجة صارمة:

– الأمن الفكري هو صمام أمان أي نظام.. الانقلاب والانتفاضات والثورات دائماً ما تبدأ بالأفكار.. الأفكار هي "الفيروس" الخبيث الذي لا يجدي معه علاج.. الاجتثاث هو الحل.

لم يشعر طارق بالارتياح لما سمعه من "الكبير"، أخذ رنين الكلمات يرن في رأسه كأنه صفارة إنذار، هناك ما يريد أن يقوله مُتخفياً بين سطور الكلام الذي لا يُبشر بخير. قال في نفسه:"ربما يريد أن يمتحن ولائي بتكليفي بسن مشروع قانون الأمن الفكرى". شعر بأنه كان موفقاً عندما طلب مُهلة لإعداد المشروع، فهو يحتاج لمزيد من التفكير ومزيد من الحذر.

حان موعد اللقاء السعيد، ذهب إلى العش، لاحظ أن "ريان" لم يستقبله ببشاشته المعهودة، بدا في حالة غير طبيعي.. شارداً حائراً مشغول الفكر.. يرمق طارق بنظرات هي مزيج من الحب والإشفاق، سأله طارق عما يشغل باله، قال إن ابنته تعاني من مرض عضال وهو قلق عليها، عرض عليه مبلغاً من المال، فاعتذر الحاج "ريان" عن قبوله، شعر طارق بحس داخلي مدرب بأنه لا يقول الحقيقة، ولا ينوي أن يقول شيئاً، ولا حتى يواصل الحديث.

جاءت "رندة"، استقبلها طارق بشوق جارف، جمعتهما الغرفة، فتحا معاً علب الطعام، أخذا يأكلان بشهية مراهقين، وهما يتسامران دون توقف.. حكاية من هنا.. وحكاية من هناك.. كل شيء مُباح ومُستباح، اتفقا على تناول كوبين من الشاي، بدا طارق أكثر عفوية وتلقائية في هذا اللقاء، قال لها بمزيد من العشم والصراحة:

– عندي سؤال يخُصك ولم أجد له إجابة.

رمقته بنظرة حانية، وسألته بلهجة عتاب:

– هل مازال عندك سؤال لم تسأله؟

– تحرجت من السؤال مخافة أن أُسبب لك حرجاً.

– هل مازال بيننا أي شبهة حرج؟

تشجع طارق ثم قال:

– أنت عاشقة للحياة، تتلهفين للحب.. لماذا لم تتزوجي؟.. تتزوجين وتنجبين أولاداً وبنات.. تستمتعين بمشاعر الزوجية وعاطفة الأمومة.

– وهل استمتعت أنت بمشاعر الزوجية وعاطفة الأُبوة؟

– اعترفت لك بأن هذا لم يحدث.

– هذا هو ما جمعني بك.. جمعتنا محنة واحدة.. المحنة الواحدة تكون أحياناً أكبر دافع للحب والغرام وتوحد المشاعر.. كنا أسرى لتعليمات الحزب ومستلزمات المهنة.. التعليمات تقتضي بتجميد مركز الانفعال والمشاعر في العقل والقلب.. أغرقتنا مكاسب في صورة رشاوى ثمينة، فقبلنا تجفيف المشاعر.. عندما تحررنا من غسيل القلب، ضحينا بالمكاسب وقُمنا بتدليك عضلة القلب حتى تستعيد الحياة، وها نحن قد استعدنا الحياة.

قال طارق باستغراب وذهول:

- يدهشني أن تفقد امرأة عاطفة الأمومة.. علماء النفس يقولون إنها غريزة.

- هل تصدق بأنني لم أشعر بهذه العاطفة في أي لحظة من اللحظات؟.. كيف أنجب أبناء لا أعرف كيف أعاملهم.. كيف أربيهم.. كيف أمنحهم حباً طبيعياً؟.. الإنجاب في نظري أصبح جريمة لا ذنب فيها لأبناء يحملون تعاستهم مع الصرخة الأولى بعد خروجهم من الرحم.. الحزب يبيح الإنجاب ويحرم العاطفة.. كيف يتم الإنجاب الصحي بدون عاطفة؟!.. أحن الآن إلى الإنجاب، حتى لو تم بدون عقد زواج.. هل أدركت الآن لماذا أكره الحزب ولماذا أنتشي بخيانته؟

قال طارق باستجابة وتوافق:

- يكفيني ما سمعت.

واصلا الحديث في موضوعات شتى.. أعدا معاً كوبين من مشروب "النسكافيه"، بدا طارق مشغولاً بموضوع يتردد في الإفصاح عنه، لم يكن مرتاحاً لاخفاء موضوع لقائه مع "زايد قطب" عن "رندة"، بدا راغباً في مُصارحتها بما حدث ولو باقتضاب ودون تفاصيل، مشاعره المتوقرة لا تجيز في نظره إخفاء أي شيء عن محبوبته، هكذا قرر أن يصارحها فقال بلهجة استطلاعية:

– هل يضايقك أن أتعاون مع بعض من يرغبون في تغيير الأوضاع للأفضل وبطريقة سلمية؟

– افعل ما تريد ما دمت مُقتنعاً بما تفعل.

– حتى لو تسبب ما أفعله في الإضرار بحبنا؟

– الحب يتولد وينمو ويكبر داخل رحم الحرية.. الحب يحرر ولا يقيد.. الحر هو القادر على الحب.. العبد لا يقدر على الحب.. الحزب يحرم الحب لأنه يريد عبيداً.. كيف تخون الحزب دون أن تتحرر من عبوديته؟

قال طارق بلهجة تحذير:

– راجعي نفسك يا "رندة". الخيانة عقوبتها الاعدام.. أنا أخاف عليك أكثر من نفسي.. أنت تشجعيني الآن وربما تندمين عندما تفتقدينني.

– لا تجعلني أشك في صدق خيانتك للحزب.. الخيانة متعددة الأشكال والألوان.. مارس الخيانة بطريقتك وبالشكل الذي ترضاه.. أحبك شهيداً ولا أرضى بك عبداً.. سنُعتقل معاً.. سنتعذب معاً.. سنعترف معاً.. المهم ألا يخون أحدنا الآخر.. ألا يتمنى أحدنا أن يتحول التعذيب منه إلى الآخر.

قال طارق بارتياح وعن طيب خاطر:

– فليكن إذن ما يكون.

استقظت البلاد في صباح أحد الأيام على مظاهرات عارمة، شملت المدن الكبرى والصغرى، وما يحيط بها من مراكز وكفور، وقد انطلقت هذه المظاهرات من أقصى شمال البلاد إلى أقصى جنوبها، وقد حملت اللافتات والهتافات مطالبة الناس بحق الطعام والكساء والعلاج والتعليم والعمل، وطالب المتعلمون والمثقفون بحقوقهم في حرية التعبير وإبداء الرأي وتداول السلطة والفصل بين مهام السلطات الدستورية الثلاث ومقاومة الفساد، واحتكار السلطة والثروة، وقد شاركت في هذه المظاهرات مختلف الطوائف والتيارات السياسية وقوى المجتمع المدني، شارك فيها الطلبة والعمال والنقابات الفنية والمهنية والحرفيون والعاطلون عن العمل ومنخفضو الدخول وبدا أن الشركات والمصانع والمصالح الحكومية والجامعات والمدارس قد أصبحت شبه متوقفة عن العمل.

لم تشأ قوى الأمن في البداية أن تقض على هذه المظاهرات بالعنف واطلاق النار والاعتقال والضرب المُبرح، كان حجم المُحتشدين يفوق طاقة الأمن على تفريقهم وتشتيتهم واستعادة الهدوء والاستقرار، اكتفت باعتقال الرموز وقادة التكتلات والتجمعات ومحاولة عزلها عن بعضها البعض، على أمل تفريقها في نهاية اليوم، ثم استعادة السيطرة على الشوارع والأحياء في اليوم التالى، خفت حدة التظاهر في المساء، ثم تراجعت كثيراً طوال

الليل، حيث واصلت قوى الأمن اعتقال الكثير من الرموز والقادة، وسعت بدأب ودون هوادة في البحث عن "همام خاطر" المُشتبه في تدبيره لهذه المظاهرات، والذي يعتبر في نظر السلطة "عدو الشعب رقم ١"، والساعي لخلق القلاقل ونشر الفوضى وتهديد الاستقرار، لم يتوقف البحث عن "شبح" يتعذر الوصول إليه، مثلما يتعذر القضاء على أسباب نفوذه ووجوده.

حل صباح اليوم التالى، لم تتوقف المظاهرات بل ازدادت إحتشاداً وحيوية وفاعلية، تضاعفت الأعداد والتجمعات ولم يعد في مقدور الأمن فضّها بالصبر وطول البال بالوسائل السلمية، هكذا بدأ إطلاق النار وتكسير العظام وتحطيم الأطراف واطلاق الغازات المسيلة للدموع، والغازات المشبوهة التي تسبب الشلل والإغماء وأعراض أخرى كثيرة، وما إن حل المساء حتى نجح الأمن في إحداث الخسائر المطلوبة للتشتيت والتفريق وفرض الطاعة واستعادة النظام، واعتقال الآلاف الذين امتلأت بهم السجون، كان لوسائل الإعلام دورها المشهود في مساندة ومؤازرة قوي الأمن، فقد وصفت المتظاهرين باللصوص وقطّاع الطرق والبلطجية وناهبي الأرزاق ومُشعلى الحرائق ودعاة تدمير المنشآت، ومواقع الإنتاج باسم الخائن العميل وزعيم العصابة "همام خاطر"، قامت شاشات التليفزيون بعرض المقبوض عليهم من رموز المظاهرات وتقديم

اعترافاتهم بالعمالة والاجرام ووقوعهم ضحية من غرروا بهم وهم نادمون على ما فعلوا، وجاهزون للمحاسبة ومتقبلون للعقاب، ويطلبون الرحمة والشفقة وتخفيف الأحكام.

هكذا استعادت الشوارع هدوءها، وتم فرض النظام بعد أن نجح الأمن في إحكام قبضته على شتى الأمور، وظل اللصوص وقطّاع الطرق الحقيقيون اللذين اندسوا في صفوف المتظاهرين مطلقي السراح، وسرت شائعات بأنهم كانوا يعملون لحسابهم، بتأييد وتشجيع جهات خفية كانت لها أهدافها وأغراضها، لم تتوقف الاعتقالات والمسائلات وفرض مزيد من الضوابط والاجراءات التي تتكفل بمنع حدوث مثل هذه الانحرافات والخروقات مرة أخرى.

جمد "طارق زيدان" حركته تماماً خلال يومي المظاهرات، لم يغادر بيته مثل كثيرين وكان لديه التبرير الكافي مثل غيره، فقد توقفت حركة السيارات والمواصلات العامة، وتعطلت بعض خطوط الاتصالات التليفزيونية، ومع ذلك كان واثقاً أن شبكة الاتصالات الأمنية في أحسن حالاتها، لم يغب عن باله ضرورة الاتصال بـ"كبير الأمناء" حتى يتجنب الاتهام بالتقصير وعلى سبيل إبراء الذمة، قال له "الأخ المُلهم" عبر التليفون:"الاجتماع صعب في هذا الظرف المفاجئ.. دعنا ننتظر حتى ينجلي غبار الوفضى، ويتم إعادة هذه

الفئة الضالة إلى صوابها، واستعادة الهدوء والنظام.. جهز صيغة البيان الذي ستوجهه للشعب لتفسير هذا الانحراف الخطير الذي دبّره أعداء الشعب من اللصوص وقطّاع الطرق، اللذين تمردوا على الشرعية باسم حقوق عامة المُهمشين".

لم يشأ أن يتصل "طارق" بـ"رنده" أو "زايد قطب"، أدرك أن مثل هذا الاتصال سيفضح نوايا كثيرة سابقة مبيتة وسيكون بمثابة دليل إدانه يوصل إلى حبل المشنقة، لم يتلق اتصالاً من "راندة" أو"زايد قطب"، حمد لهما ذكاءهما في عدم الاتصال وعدم ارتكاب ما يمكن أن يصبح دليل ارتكاب جريمة شنعاء، لم يكن أمامه سوى متابعة أخبار المظاهرات في وقتها، من خلال الاتصال ببعض كبار أصدقائه في جهاز الأمن، كان أيضاً يملك وقتاً كافياً لكتابة بعض الملاحظات في مذكراته السرية، كان أهم ما كتبه: "هل قامت قيامة الناس بعد ظلم مديد وصمت طويل؟.. هل تحطمت أسطورة الحزب في تغييب الوعي وإلهاء الناس وتزوير التاريخ؟.. هل يصدقني الناس إذا طلعت عليهم لأعلن نوبتي واعترف لهم بأنني خنتهم سابقاً عندما انحزت لتعليمات الحزب وتخليت عن حقوقهم المشروعة؟.. هل يغفرون لي أم يحاكمونني في ميدان عام؟.. سأقبل حكمهم على أية حال.. على أن أدفع انحرافي بشجاعة الرجال.. لن تنفعني هذه المذكرات السلبية للدفاع عن نفسي.. هي مذكرات عاجز وجبان

ومشارك في الجريمة.. صوت الضمير لا يمنح صك البراءة إذا لم يترجم إلى فعل إيجابي لا يستبعد دفع الغرمة والضريبة". كتب بعد أن تم إخماد المظاهرات في مساء تلك الليلة المُعتمة: "أثبت الحزب سطوته الهائلة التي لا تقاوم.. ماذا يمكن أن أستلهم من استيعابي لدروس وعظات التاريخ؟.. عاشت إمبراطوريات الظلم قروناً طويلة، وكانت دائماً إلى زوال.. لم تتوقف انتفاضات الشعوب، وحققت في النهاية الكثير من الانتصارات.. لا أنكر أنني شريك في جريمة الإخماد.. شريك في جريمة الانتصار الغاشم لجبروت الحزب".

كان هناك من دق جرس بيت "طارق زيدان" في منتصف تلك الليلة المُعتمة التي أعقبت إخماد المظاهرات فتح الباب فوجد نفسه في مواجهة ضابط شرطة يحمل فوق كتفيه رتبة كبيرة، وخلفه ثلاثة جنود،لم ينتظر الضابط دعوة الدخول، دخل وجلس في الأنتريه، انتشر الجنود في أنحاء البيت، وضح أنهم يقومون بعملية تفتيش دقيق، جلس طارق صامتاً في مواجهة الضابط، الذي إنشغل بإجراء عدة مكالمات تليفونية من جهاز صغير في يده، عاد أحد الجنود ووضع أمام الضابط كومة من الأوراق المكتوبة بخط اليد، فأخذ يُقلبها دون اكتراث، ثم قال بهدوء وبرود ضابط المباحث: "لدينا نسخة من كل حرف وكلمة كتبت في هذه المذكرات.. لم نشأ أن

نقطع عليك حبل أفكارك، فتركناك نواصل فحيح التداعيات.. أنت أدرى الخلصاء بقدرتنا على التسلل إلى جحور الفئران.. قررنا الآن ضبط هذه المذكرات لتكون وثيقة إدانة لا تقبل الشك أو الإنكار.

أدرك طارق أنه دخل المصيدة، أراد أن يتبين ما لدى الضباط من معلومات عن تحركاته وصلاته. قال باقتضاب: "هل هذا كل ما في الأمر؟". قال الضابط بمزيد من البرود: "عندي لك أخبار سيئة.. تم القبض على المدعوة "رنده زاهر" وهي الآن تقبع في غرفة حبس افرادي في السجن.. سجلنا كل حرف وكل كلمة تم تداولها بينكما.. كان الحاج "ريان" نموذجاً للاخلاص والتعاون.. كان أكثر منك ولاء لرسالة الحزب النضالية". تذّكر "طارق" نظرة العطف والاشفقاق التي نبعت في عين "ريان" أكثر من مرة فأدرك ما جرى وكان سأله "طارق" وهو يتحكم في قلقه واضطرابه: "هل لديك المزيد مما تريد أن تقول؟". قال الضابط وهو يمد ساقيه ويلقي برأسه على مسند "الفوتيه" ويصّوب نظره نحو السقف: "عندي خبر صادم، سجلنا كل ما دار بينك وبين "زايد قطب".. أدى الرجل الدور الذي تم تكليفه به بمنتهى الكفاءة والاقتدار.. مكننا من التعرف على أفكارك الحقيقية ونواياك الشريرة.. كشف لنا مدى تحالفك مع "عدو الشعب" مع "همام خاطر" وضحاياه من اللذين نجح في تضليلهم فقاموا بمظاهرات التخريب والتدمير ونشر

الفوضى.. تحالفك وصل إلى مرتبة التآمر والخيانة العظمى". تمثل "زايد قطب" في مُخيّلة طارق فقال في نفسه بمرارة: "الجاسوس القذر اللعين.. الحزب يواصل النجاح والضحايا تسقط تباعاً". سأل طارق الضابط عما إذا كان لديه المزيد مما يريد أن يقول، رمقه الضابط بنظرة تأنيب وهو يقول له بلهجة عتاب سادية:"ألا يكفيك كل ما أوردته في عريضة الاتهامات الموجهة إليك؟". عاد يقول له بعد أن نهض وأمسك بذراعه وقاده نحو باب البيت:"دعنا نكمل حديثنا في غرفة الحبس الإنفرادى".

لم يصدق "طارق" أن تصبح نهاية مسيرته الحياتية داخل هذه الغرفة المُظلمة (غرفة السجن) المصمتة الجدران، القليلة الأوكسجين، وأرضيتها المُغطاة بالماء المثلج في عز الشتاء، ولا يوجد سوى حصيرة صغيرة ينام عليها بلباس السجن، إذا ما واتاه النوم بمعجزة خارقة، وجردل قذر للتبول والتبرز، ولا يتم افراغه أو تغييره إلا بعد توسل ورجاء، وطعام قليل تفوح منه روائح كريهة (رغيف مقدد مُلوث – قطعة جبن حامضة – قرص طعمية غامض المكونات – فول له طعم المش – عدس متخمر – حبة طماطم فاسدة – خيار مجفف)، كان طارق يكتب مذكراته السرية داخل مركز الذاكرة في عقله.. العضو الوحيد الذي حافظ على تألقه وحيويته، لم يصدق أنه سيتمكن من مواصلة الحياة أكثر من أسبوع،

لم يكن قد بدأ بعد مسلسل عمليات التعذيب التكنولوجي المتطور، المتنامي والمتصاعد، كانت قد بدأت أعراض تصلب الشرايين وهبوط القلب وارتفاع ضغط الدم والروماتيزم، تم السماح له – بعد توصية الطبيب – أن يقضي فسحة من الوقت مع باقي المسجونين في فناء السجن، لم يكن من المطلوب تصفيته وإنهاء حياته، فتلك راحة بعيدة المنال، المطلوب هو مواصلة حياة، الموت أرحم منها وأمنية الأماني، انتظر أن يأتي مُحقق وأن يحال إلى محكمة باعتباره شخصية استثنائية، كان يعرف من خلال مدركاته الأمنية والقضائية أن المسجونين السياسيين لا يخضعون لناموس القضاء المتعارف عليه.. يقبعون في السجون حيث لا تنفعهم توبة، والافراج يتم لأسباب صحية أو بموجب صفقة سرية أو بقضاء الله.

كانت ساعات الفسحة القليلة تمثل له رحلة سياحية إلى "فينسيا" أو "الريفيرا"، هي فرصة نادرة للتعرف على عالم السجناء، كان يشعر – بيقين مدهش– بأنه حر حقيقي.. تحرر من إعادة كتابة التاريخ.. من أعباء وزارة الحقيقة.. من ازدواج الشخصية، ومع ذلك كان يشعر بغصة موجعة، فرغم أن عقله مازال ملكاً له، فهو لم يتحرر من حبه للمعشوقة "رندة"، ولا يظن أنه قادر على هذا التحرُر، وأغلب ظنه أنها تعاني الآن ما يعانيه، وعزائه أن قلبه أيضاً مازال ملكاً له، هم في نظره قادرون على تهديم جسده ولكنهم عاجزون

عن افراغه من عقله وقلبه، تساءل في نفسه: "لماذا لم يضعوه في سجن (خمس نجوم) مثل ابنه "هشام"؟ لم تطل حيرته كثيراً فقد تبين له أن هشام أخطأ في نقل قطعة في دور شطرنج حسّاس، أما هو فقد قرر تغيير الشطرنج، وما يتبع ذلك من تغيير اللاعبين.

استطاع في فترات الفسحة أن يتكيّف بسهولة مع أقرانه من تلك التشكيلة المتنوعة من السجناء فهناك المسجونون العاديون وهناك المسجونون السياسيون والذي هو منهم، كانت هذه التجربة بالنسبة له تجربة مثيرة تستحق التأمل وفيها ما يمكن معرفته على أرض الواقع ودون وسيط، لاحظ الفرق الواضح بين معاملة المجرم العادي ومعاملة المجرم السياسي، وقد أدهشه أنه نفس الفرق بين معاملة العامة خارج السجن ومعاملة أعضاء الحزب أنفسهم، المجرم السياسي في حالة ذعر دائم، ويتعرض لأنواع من التعذيب لا يتعرض لها المجرم العادي، بدا ذلك واضحاً مع من تم اعتقالهم في المظاهرات الأخيرة باعتبارهم حفنة ضالة يستوجب الأمر تحرير عقولهم من الأفكار المسمومة التي يتم استئصالها بشتى أنواع التعذيب الذي لا يتوقف إلا عندما يصرخ المجرم من أعماق عقله وقلبه:"يسقط "همام خاطر" عدو الشعب.. يسقط الخائن العميل لأعداء الشعب.. إلى الجحيم يا همام.. يحيا الأخ الصالح.. يعيش الأخ المُلهم.. يعيش.. يعيش.. يعيش".

أما المجرمون العاديون اللذين ارتكبوا جرائم القتل أو السرقة أوالإغتصاب فكانوا يبدون لطارق وكأن لا شيء يُعكر صفوهم، بل ويبدون جرأة غريبة إزاء الحراس، ويسبونهم ويهّربون الطعام من وراء ظهورهم ويدّخنون السجائر المحشوّة بالمخدرات بعيداً عن أعينهم وعندما سأل طارق أحد السجناء عن سر الحرية الواسعة التي يتمتع بها داخل السجن قال:"أنا وغيري ندفع ثمن هذه الحرية للحراس وهو يتقبلون الأجر عن طيب خاطر، وأحياناً ما يطلبون المزيد ويُهددون بفرض النظام وتنفيذ التعليمات".. عاد يسأله عن مصدر المال المدفوع للحراس فقال ببساطة: "المال يأتينا من الزوار، والحراس يأخذون نسبتهم".

تحدّث طارق مع سجين آخر وسأله عن جريمته، فقال له إنه كان يعمل مُخبراً للشرطة وعندما عرض عليه تاجر مخدرات رشوة لا يمكن مقاومتها تقاعس عن الإبلاغ عنه فوجد نفسه في السجن بتهمة ملفقة، عاد السجين يقول وهو مُستغرق في الضحك: "علمت وأنا هنا في السجن أنهم لم يقبضوا على تاجر المخدرات لأنه دفع المطلوب منه، وعندما أشفق طارق على سجين آخر من هول ما أصابه من التعذيب بسبب عناده، قال له:"لا تتأس لحالى.. وعدتهم بمراقبة معارض سياسي تربطني به صلة قرابة، فوعودني بإفراج صحى".

وعندما سأل سجيناً سياسياً عن جريمته قال له بحكمة الواعي المُستنير:

"ليست هناك بالضبط أعمال ممنوعة بحكم القانون، إذ ليس هناك في الواقع قانون.. ومع ذلك فكثير من الأعمال التي قد يخطر ببالك إتيانها عقوبتها المحققة الإعدام". عاد طارق يسأله عن العمل الذي تسبب في سجنه، فقال بحذر وحيطة: "هناك جريمة واحدة فقط.. أليس كذلك؟.. أنت تعرف ماذا أقصد.. كلانا سجين سياسي.. السجين السياسي لا يتصف بالغباء، وإلا أراح نفسه.. دعنا لا نرتكب جريمة جديدة ".

أخذ طارق يعاني من البدايات المقدور عليها حتى الآن في مسلسل الإيلام والتعذيب، آلام الجسد.. قلة النوم.. سوء الطعام.. عزلة خانقة، لم يبق له سوى عقله وقلبه، بعيداً عن التصفية وإفراغ المحتوى، لم يتعرض للتحقيق والمساءلة، برغم الاتهامات التي وجّهت إليه أثناء القبض عليه، بدا له هذا التصرف طبيعياً فهو ينطبق على معظم المسجونين السياسيين، إلا ما تدعو الحاجة إلى تصفيته، أو إخلاء سبيله من خلال مقايضة داخلية أو خارجية، كان يشعر أن لديهم المعلومات الكافية التي لا تستدعي إجراء تحقيق، وبدا واضحاً له أنهم لا يفكرون في محاكمته أمام محكمة سرية أو علنية..

مدنية أو عسكرية، المطلوب إذن هو إبقاؤه في السجن مدى الحياة، أو الموت قهراً وإذلالاً، ولم يتخيل أن هناك حلاً ثالثاً.

هكذا خطرت بباله تلك الفكرة الجريئة، طلب مقابلة مأمور القسم، فاز بالمقابلة بعد عدة أيام، وجد نفسه في حضرته بالمكتب، لم يستغرب أنه يعامله معاملة طيبة عندما دعاه للجلوس، فهو شخصية تاريخية لها وزنها واعتبارها، وكانت متعاونة قبل أن يتلبسها شيطان الضلال، ثم إن المأمور يُدرك بخبرته أن ذروة السادية في التعذيب تتمثل في المُبالغة في الاحترام والتقدير، والمُبالغة أيضاً في ممارسة أقصى صنوف التعذيب، طلب من المأمور أن يرتب له مقابلة مع "الأخ المُلهم"، مع "كبير الأمناء"، استغرب المأمور من الطلب، سأله بدهشة: "هل تتوقع أن يسمح الكبير بهذه المقابلة؟".

قال طارق بيقين مذهل:

– أنا واثق أنه سيسمح بالمقابلة.. عملت مستشاراً له زمناً طويلاً.. هو بمثابة زميل وأخ وصديق.. يتوقع دائماً أن عندي كلاماً مُفيداً يستحق الإستماع إليه، سيستمع لي ولو بدافع المصلحة.

– فهمت من التقرير المكتوب عنك أنك أبديت – في أحاديثك السرية – شدة كراهيتك له.

– "الأخ المُلهم" لا يتوقف كثيراً أمام المشاعر الشخصية.. هو لا يوصد بابه أمام معلومات – أياً كانت – يعرف كيف يوظفها لخدمة الحزب والنظام.. هذه خبرة عمر.. كل منا يعرف الآخر معرفة جيدة بحكم طوال المعاملة والتزامنا الدقيق بقواعد المهنة ومتطلبات الحرفة.

استغرق المأمور في التفكير، استبدت له الحيرة والدهشة، حسم تردده بقبول الفكرة، حيث لا ضرر يلحق به، ثم إنه يريد أن يعرف رد الفعل، ولو بدافع الفضول وإشباع نهم التوقع وصليل الإثارة، طلب من طارق أن ينتظر الرد على طلبه في الوقت المناسب.

لم يمض وقت طويل حتى وجد "طارق" نفسه في مكتب "كبير الأمناء"، بدا المشهد كأن شيئاً لم يتغير، وكأن لم تحدث انتفاضة واعتقالات، رحّب به الكبير، ودعاه – كالعادة – إلى الجلوس، جلس "طارق" هذه المرة وهو يرتدي ملابس السجن، قدم له الكبير "سيجاراً" وطلب له فنجان الـ"نسكافيه" الذي تعود أن يشربه، وقد بدا ودوداً ومُجاملاً أكثر من ذي قبل.. مستلزمات التعامل السادي، كان الذي تغير – ولم يعلن عنه بعد – هي الأفكار التي يحملها كل طرف في عقله. بدا المكتب وكأنه خشبة

مسرح يقف عليها بطلا المسرحية، وهما يتهيأن لمشهد الحوار، لم تتضح معالمه بعد.

وقبل أن يبدأ الحوار، حدثت المفاجأة التي زادت المشهد وهجاً وحيوية، فقد دخل على خشبة المسرح بطل ثالث، يحمل نفس الملف الذي كان يحمله "طارق زيدان" من قبل.

قال "الأخ المُلهم" لطارق بهودء بارد:

- أقدم لك الأستاذ "زايد قطب".

لم ينبهر "طارق"، بل توقع ما حدث. قال بواقعية مهني مُحترف:

- أعرفه تمام المعرفة.

- أصبح الآن مستشاري الأول.. وزير الحقيقة.. يواصل إعادة كتابة التاريخ.

رمقه "طارق" بنظرة محايدة، وقال بانضباط واقتضاب:

- أهنئه على هذا المنصب الرفيع.

- ألست غاضباً منه؟

- بالعكس.. قام بمهمته التي كُلّف بها نحوي خير قيام.. أشهد له بالبراعة وحُسن الأداء وتمام الولاء.

وضع "زايد" الملف أمام "الكبير"، لم ينس أن يحيي "طارق" قبل أن ينصرف.

اعتدل "الكبير" في جلسته وقال لطارق بتركيز واهتمام:

– طلبت مقابلتي.. لم أبخل عليك بالمقابلة.. أنت أخ وصديق قديم.. توقعت أن أسمع منك ما يفيدك ويفيدني لا تحرجني بطلب التوبة، فقد أصبح ذلك من الماضي.

تهيأ طارق للحديث.. استأذن "الكبير" في أن يقول ما عنده "دفعة واحدة"، ورجاء أن يأخذ الوقت الكافي، مع وعد بالتركيز في الحديث، تلقى إشارة بالقبول فأخذ يجمع أفكاره ثم قال: "لم آت إليك لطلب العفو، بل لتقديم اعتراف واضح وصريح، هو بالتأكيد ليس شهادة براءة من التهم المنسوبة إلي، وإنما هو بمثابة كشف حساب أنا واثق في أنك ستستفيد منه بشكل أو بآخر، وربما يكون الفصل الأخير في ملف إعادة كتابة التاريخ الذي تحملت مسئوليته، ويهمني أن أطمئنك بأنه ليس من المُجدي أن أنكر ذنبي، وإنني أتقبل المصير الذي آل إليه حالي".

التقط أنفاسه وأخذ رشفة من "النسكافيه" وعاد يقول:

"تذكر منذ عقود أنك كنت أحد أهم رموز انتفاضة شعبية، قضت على مظاهر الظلم والاستبداد وتقييد الحريات، وعاش الناس

أزهى عصور العدل والرخاء وحرية التعبير، وكنت أحد تلاميذك النجباء، كان الإنسان يحظى ببعض الخلوة، ولا يخضع للرقابة الدائمة، ويستمتع بمشاعر الحب والصداقة ويشعر بالأمان ويستفيد بحق العمل والمسكن والعلاج والطعام وغير ذلك.

ثم تحولت الانتفاضة الشعبية إلى دكتاتورية تحت شعار حماية حقوق الشعب من أعدائه، وبدا واضحاً أن الانتفاضة قامت من أجل اقامة الديكتاتورية وليس العكس، واتخذت صورة حذاء ثقيل يدوس على وجه الإنسان إلى الأبد، الأحوال الآن لا تسُر عدواً ولا صديقاً، ولا تحافظ على بقاء الوضع القائم الذي ينخر الظلم والفساد في عظامه، أنا لا أتطلع إلى إزاحة النظام القائم، فليس له بديل واضح الآن، وإنما أتمنى أن يزول الوجه الدكتاتوري لتعود الشرعية لأهداف الانتفاضة المجيدة، وهذا في صالح الجميع، في صالح الحزب والناس وعقلاء هذا الوطن، نريد أن ننزع من مشروع "همام خاطر" شرعية غضبه واحتجاجه ومقاومته.

أعترف لك بأنني تورطت مثل كثيرين غيري في تصديق أن الدكتاتورية قامت من أجل إقامة نظام دكتاتوري يتمثل في حزب واحد يحتكر كل السلطات والثروات، أعتقد أن التغيير السلمي أقل في خسائره من أي تغيير آخر.

هـذا مـا سـجلته فـي مـذكراتي الـسرية وفـي حـواراتي مـع "زايـد قطـب"، وهـذه هـي الجريمـة التـي أحاسـب عليهـا الآن، وربمـا تثبـت الأيـام أننـي كنـت علـى صـواب، ومـا أتمنـاه الآن هـو أن تقنـع رمـوز الحزب بأن التغيير للأفضل هو في صالح الحزب وفي صالحهم.

عاد طارق يقول في ختام حديثه:

"لم تعد لي مصالح شخصية، ولم يعد لي منصب أريد الحفاظ عليه".

أردت أن أقدم شهادتي على زمن عشته.. زمن بدأ بأحلام رائعة وانتهي بكابوس مزعج ومُخيف، أردت ألا أموت دون أن أدق جرس الإنذار، لو أنك استوعبت ما قلته لك، وراجعت ما يجب مراجعته مـع عقـلاء الحـزب، لأصبحت حكيمـاً تجنـب حـدوث الكارثـة قبـل وقوعها".

شـعر "جـودت سـليم" (كبير الأمنـاء) بـأن طـارق قـد انتهـى ممـا يريـد أن يقـول، انتظـر لحظـات حتـى يتأكـد مـن ذلـك، لـم يبـد علـى ملامـح وجهـه أي انفعـال يـشي بارتيـاح أو إعجـاب أو مجـرد تقبّـل، قلب ميت وعقل لا يكشف عما يدور بداخله، تحفّز فجأة واخترق "طارق" بنظرة مُرعبة كأنها طلقة رصاص، وقال بازدراء واستنكار:

– هذا منشور سياسي، لا أظنني في حاجة إليه.. منشور يضرك أكثر مما ينفعك.

– لا أنكر أنني مقتنع بكل كلمة قلتها في حضرتك.
– هل طلبت مقابلتي لتقول لي هذا الكلام الخطير؟
– تعّلقت بقشة نجاة.. نجاة للجميع بما فيهم الحزب.

رمقه الكبير بنظرة فاحصة لا تخلو من استغراب، وقال:
– مازلت تحتفظ بكامل العقلية!
– وماذا يضير في ذلك؟.. لم أعد أمثل خطر على النظام.
– ولكنك أصبحت تعتقد بأن ٢+٢ = ٤.. لم يكن هذا رأيك وأنت تعمل في خدمة الحزب.
– لم يعد هناك فرق بين الحسبتين، بالنسبة لسجين لا حول له ولا قوة.

ثم عاد "طارق يقول بصراحة قاطعة:

– لا يضيرني أن أموت الآن، بعد أن أدليت بشهادتي التاريخية أمامك.
– الموت يريحك، ولا ينجينا من أشباح أفكارك.. الأفكار لا تموت بموت أصحابها.

فهم "طارق" قصده، فعاد يقول بعناد وإصرار:

– الأفكار أيضاً لا تموت بالتعذيب وإنهاك الجسد.

قال "الكبير" بلهجة الواثق المُتحدي:

- دعنا نجرب ذلك.. مازلت في بداية المشوار.

ثم أخذ يدق المكتب بقبضة يده وهو يقول:

- انتهت المقابلة.

عاد يقول له، عندما سحبه الجُندي نحو باب المكتب:

- كنت أنوي نقلك إلى سجن (خمس نجوم).. ولكن أفكارك لا تستحق مثل هذا التكريم، تحتاج إلى جراحة في المخ ممتدة المفعول.

تغطى رأس طارق بغطاء أسود، وجد نفسه مسوقاً على قدميه بضعة أمتار، ثم شعر أنه دخل مصعد، ثم بعد دقيقتين تأكد أنه داخل سيارة عندما سمع صوت إغلاق بابها، وصوت حارسه الذي أمر السائق بالتوجه إلى السجن، لم يكن يصله بالحياة سوى أصوات المارة في الشوارع ونداءات الباعة وكلاكسات السيارات وأذان العشاء، وصل إلى السجن فتم رفع الغطاء عن رأسه، لاحظ أن الممر الذي يقطعه ليس هو المؤدي إلى غرفة حبسه.

سأل عن وجهته فأجابه السجّان باقتضاب: "إلى غرفة التعذيب"، وجد نفسه داخل غرفة تدلّى منها حبل سميك تم تجريده من ملابسه وتم ربط قدميه بالحبل، صدرت إشارة من السجّان فأخذ الحبل يرتفع بطريقة آلية، إلى أن التصق القدمان بالسقف وتدلّت

رأس طارق كأنها رأس ذبيحة، لا يتوقف جسدها عن التلوي والانتفاض. أخذ سجّان آخر يُغرق الجسد بجرادل من الماء المُثلج، وما إن انتهى من ذلك حتى أخذ يعبث في أجزاء حساسة من جسده بعصا غلظة مدبة مليئة بالأشواك، سمع من يقول بصوت أجش: "هذه هي الحلقة الأولى من المسلسل"، ثم سمع صفقة دوية لباب يُغلق، لم يتوقف عن الصراخ والعويل حتى أصابه الإجهاد.

كان هناك من يراقبه من ثقب الباب، كانت التعليمات الموجهة إليه هو تركه يتعذب دون أن يفارق الحياة، فإذا ما لاحت شبهة قوية فعليه أن يعيده إلى الأرض دون تردد. هكذا مرت ساعات ثقيلة مُضنية وهو يراوغ الألم والإنهاك، حتى فقد وعيه وأصابه الإغماء. سارع الحارس المراقب بفتح الباب، دخل وضغط زرا كهربياً فهبط الحبل وارتمى "طارق" على الأرض وهو مازال في حالة إغماء. اختفى الحارس لحظات ثم عاد ومعه طبيب أمر بنقل السجين إلى العيادة الطبية، حيث أخذ يعالجه بشتى أنواع الأدوية حتى لا يموت، فهو يعي أن التعليمات تقضي بحرمان السجين السياسي من نعمة الموت التي تنتشله من جحيم التعذيب، حتى يصبح عبرة لمن يعتبر.

هكذا وجد طارق نفسه – مرة أخرى – في غرفة حبسه الانفرادي وقد أخذ يتحسس أطرافه بعد أن فقد إحساسه بها. لم يُعد قادراً على التقلب أو التنفس بانتظام، وأصبح يعاني آلاماً في المعدة والظهر والمفاصل، شعر بجوع شديد، فتناول قطعة سكر سوداء على حافة طبق قذر، به بعض الأطعمة الفاسدة، الشيء الغريب الذي لفت نظره في هذه التجربة المؤلمة، هو أن عقله مازال يعمل بحيوية وتألق، ومشاعره تزداد توهجا وسمواً، حتى أنه تساءل مع نفسه عن مصدر هذه الطاقة الهائلة التي تفجرت في عقله وروحه بعد كمون وتقوقع، قال وهو يواسي نفسه: "حتى التعذيب له جانب إيجابي رائع.. العقل الإنساني يظهر مقاومة أكثر بكثير من مقاومة الجسم الإنساني الضعيف.. لست نادماً على معايشة هذه التجربة المرعبة". شعر بأنه أكثر حرية تحت وطأة التعذيب، فتذكر قول بطل مسرحية "أنتيجون" للفيلسوف "سارتر":"لقد انقضّت عليَّ حريتي انقضاض الصاعقة". غاب الوعي بعض الوقت ثم استفاق، اكتشف أنها لم تكن سكرة نوم وإنما غيبوبة جسم منهك.

حل موعد البرنامج الترفيهي الذي اتخذ شكل مشاهدة برنامج تليفزيوني في قاعة مخصصة لهذا الغرض، هكذا وجد "طارق" نفسه ضمن زمرة من السجناء تفترس الأرض في مواجهة جهاز تليفزيون أخذ يتأمل اللذين تم جمعهم للمشاهدة، فلاحظ أنهم جميعا من

المسجونين السياسيين، كان قد نجح من خلال المعايشة في التفريق بينهم وبين المجرمين العاديين، الذىن لايدعون لمشاهدة مثل هذه البرامج، التي تصيبهم بالملل والضيق، فتدفعهم للثرثرة وإطلاق النكات البذيئة والشوشرة وإثارة البلبلة والفوضى دون أن يحاسبوا على ذلك، وهم يعون أنهم فوق الحساب والمحاسبة، إذ يدركون بذكاء فطري ومن خلال أسلوب معاملتهم أن شعار السجن غير المكتوب هو:"لا مساس بحرية المجرمين العاديين والحيونات".

أُضيئت شاشة التليفزيون وبدأ العرض، ظهر "جودت سليم"، الأخ الملهم الذي أضيف لألقابه "الزعيم المفدى"، وافقا في عربة مصفحة وبجواره "زايد قطب"، وأمامه وخلفه عربات "مرسيدس" مُصفحة أيضاً وموتوسيكلات عديدة على الجانبين، وقد بدت شوارع العاصمة شبه خالية من الناس، وكذلك الشرفات والنوافذ مغلقة، وقد صدرت التحذيرات لسكان البيوت المطلة شرفاتها على الموكب من الظهور في الشرفة وإلا حدث لهم مكروه، وقد تم إغلاق مدارس وجامعات ونواد رياضية وتأجيل امتحانات. كان الأخ الملهم (الزعيم المفدى) في طريقه إلى قاعة الأحتفالات الكبرى للأحتفال بمرور أربعين عاما على الانتفاضة الكبرى التي حررت الشعب من الظلم والقهر والفساد وكبت الحريات، وقضت على آخر الطغاه المستبدين وسارقي الأقوات.

وصل الموكب إلى القاعة، اقترب الأخ الملهم من المنصة وسط تصفيق وتهليل الحاضرين، رد التحية بخيلاء وزهو خفى، مع تواضع مصطنع، نظر إلى اليمين ولوح بيده اليمنى، ثم نظر إلى اليسار ولوح بيده اليسرى أتى من الشاشة صوت يهتف بحرارة: "نحن نحبك يا "جودت" وأتى صوت آخر: "لازعيم إلا جودت" وصوت آخر:"بالروح بالدم نفديك ياجودت"، أخذ الهتافات تتعالى بلا تفكير، بل وبإخلاص شديد، بدا "جودت" بقامته الطويلة وجسمه الممشوق الذي خضع للنسب المعمول بها في طب التجميل، ولون وجهه القمحي المحبب، ونظراته الواعدة الآسرة، بدا الراجل جذّاباً جداً ووسيما للغاية ومحل إعجاب لا يقاوم من الجمهور، وقد كتب أسفل الشاشة خبر عاجل: "الأخ الملهم" يقرر صرف علاوة اجتماعية ٢٠% بدون تحديد حد أدنى، بمناسبة الاحتفال بذكرى الانتفاضة العظمى، قد حرصت كاميرا التليفزيون على اظهار صور جانبية لافتتاح مصانع لإنتاج الحلل والأطباق والمايوهات والجوارب والغيارات الداخلية وغيرها، وكذلك مزارع لمضاعفة انتاج الكوسة والفلفل والبطيخ والخيار والطماطما.

وبدأ الرجل "الكاريزما" خطابها. أخذ ينوع في درجات الصوت وفقا لمضامين الخطاب بدا فصيحا للغاية، يعرف كيف يثير مشاعر الناس، مشاعر البسطاء المبهورين بسطوة مفعول السحر الإعلامي،

وبقرار صرف العلاوة الاجتماعية بالدرجة الأولى، لم يكن الحاضرون في القاعة بحاجة لاستنهاض هممهم الاحتفالية، فهم جميعا من أعضاء الحزب الذين تم جمعهم من المدن والمحافظات بمهارات رموز الحزب المتدربة على جمع الحشود، أو تفريقها إذا اقتضى الأمر. لم ينس أن يذكر المستمعين بأنه هو الذي فجر الانتفاضة ابتداء، منذ عدة عقود، وأن الانتفاضة مازالت تواصل هم الذين ينكرون ذلك، بدافع من الحقد والكراهية والضغينة والعبث بمشاعر الشعب الطيب المسالم، الذي يقع أحيانا ضحية للخونة والمأجورين وتجار الشعارات المغرضة.

ختم الرجل خطابه وسط هدير وتهليل المصفقين، أخذ يلوح لهم بكلتا يديه لم ينس تحية الجالسين في الدور العلوي من القاعة قبل أن يختفي خلف كواليس المنصة تم إطفاء التليفزيون، وصدر الأمر بالانصراف إلى فناء السجن، لم يبد على وجوهم علامات حماس أوبهجة وهم ينصرفون تباعا بدوا كمن كانوا في حصة مدرسية يستمعون إلى درس ممل في مادة كريهة، لم يبق منه في عقولهم شيء يذكر، هم يدركون أن إدارة السجن تقلبهم ما بين عمليات التعذيب وسماع خطب الزعيم، تمشيا مع نظرية غسيل المخ التي تحرر العقول من سموم دعاة التغيير.

انتحى طه وعباس في مكان قصى من الفناء بعد دقائق من سماع الخطبة وبداية مهلة الفسحة، بدا واضحا أنهما يريدان التعليق على مضمون الخطبة، كانا ضمن الآلاف الذين تم اعتقالهم في الانتفاضة الأخيرة التي سميت انتفاضة اللصوص والحاقدين الذين يتاجرون بمصالح الشعب الأمن، كانت تجمعها صداقة قديمة وزمالة عمل وشراكة في مشروع وطني وتجمعها الآن شراكة أليمة في سجن بغيض وصراخ لا يتوقف تحت وطأة أجهزة تعذيب تم استيرادها من كبريات الدول الصناعية النووية.

صمتا قليلا وهما قابعان في ركن الفناء البعيد.. البعيد – في نظرهم – عن الجواسيس المنتشرين وسط المساجين.. والبعيد في نظرهم عن أجهزة التسمع والتصنت، التي تنتمي إلى أجيال جديدة من منجزات تكنولوجيا الاتصال، لم تكن مثل هذه الأحاديث تمثل لهما مغامرة خطرة ذات عواقب وخيمة، فهما وغيرهما يخضعان لأعلى مستويات التعذيب، ولم تعد هناك إضافة متوقعة، يستلزم الحذر تجنبها أو حمل همها.

قال "طه" مفتتحاً حديث البوح والتفريج عن الهم الثقيل:

– هل تمعنت ما قاله "الأخ البغيض" في خطابه المشؤوم؟

قال "عباس" بهلجة تلقائية تخلو من تحفظ:

– الأهم من ذلك هو صورته الجذابة وتأثيره الذي لايقاوم، وقدرته على استثمار المشاعر، والاستحواذ على العقول بالترويج لعكس الحقيقة تماما.. كان بارعا في إلباس الكذب والنفاق رداء الفضيلة.. قال كلاما منسقا تنسيقا بديعا وغاية في التشويق، رغم مخالفته التامة للتحقائق.. أنا أحسده على هذه "الكاريزما" الجبارة.. من الذي لا يتأثر – من المغبين – على هذه الأداء التمثيلي الرائع؟.. لا أتحدث عن أمثالها ممن لديهم مناعة ضد الكذب والتدليس.. هو هكذا كسب الشارع العام، ونحن نمثل نخبة قليلة محرومة من أدوات الإقناع والتأثير.. هو يستولي على أفئدة الناس بميكروفون المنصة ونحن نقبع في غياهب السجون.

بدا "طه" ميالاً للحديث عن مضمون الخطاب، قال:

– هو يحيي ذكرى الانتفاضة العظمى التي قادها مع صحبه.. الثورة الشعبية التي أعادت للشعب مكاسبه.. وهذا لا خلاف عليه بين كل قوى المجتمع.. تحدث بعد ذلك عن الكذبة الكبرى التي روج لها بخبث ودهاء منقطع النظير.. أوهم البسطاء والمستفيدين من النظام بأن الثورة تواصل مسيرتها المقدسة، وهذا كذب وتضليل.. انقلبت الثورة على نفسها وتحولت إلى نظام ديكتاتوري مستبد.. هذا ما حدث عندنا، وفي معظم الدول، حديثة العهد بالاستقلال.. ثورات شعبية عظيمة تحولت إلى أنظمة استبدادية غاشمة وعميلة.. أنظمة

استوعبت لعبة الإعلام وفن تشكيل العقول، وامتلاك أجهزة التحكم والسيطرة.

المهم أنهم نجحوا فيما فشلنا نحن فيه. أوهموا عامة الناس بأنهم أقاموا الديكتاتورية لحماية الشعب والحفاظ على مكاسبه.

– نحن لا نملك أجهزتهم ولا أدواتهم.. نجحوا في صنع طبقة من المستفيدين والانتهازيين وتجار المصالح.

– ومع ذلك قمنا بالانتفاضة الثانية لتصحيح مسار الانتفاضة الأولى.. سموها انتفاضة أعداء ولصوص ونجحوا في قمعها.

– كنا نملك شرعية الغضب، وهم امتلكوا شرعية البقاء في السلطة.. نحن امتلكنا ضمير الناس، وهم تعاملوا معهم بالبنادق والدبابات والهليوكوبتر.

قال عباس بإحباط:

– لم يبق إلا أن نموت في سجننا، ويموت معنا الحلم.

قال طه بتفاؤل:

– لقد قمنا بالخطوة الأولى.. انتفضت عامة الناس، ولم يخطر ذلك على بال.. انهزمت نظرية تغييب العقول.. لم تعد أنصاف الحقائق تكفي.. انهارت نظرية الكذب المعتمد مع الاعتقاد بصحة ما تقول.. تحول عامة الناس من مجرد حيوانات إلى إرادة بشر.

– هل مازلت تحلم بانتفاضة ثالثة؟

– بالتأكيد.. انتفاضة يدعمها هذه المرة جناح من داخل السلطة.. جناح يشك في إمكانية مواصلة الاستمرار والبقاء.. مثل هذا النظام يحمل في طياته جرثومة انهياره وتفككه.. هكذا عملنا التاريخ.. الأكاذيب لا تصمد طويلا أمام الحقائق.. الإعلام المبرمج سلاح ذو حدين.. غالبا ما يقتل صاحبه في لحظه غرور جامح.

قال عباس في لحظه وعي حاد:

– ألم تلاحظ أن الحياة داخل السجن لا تختلف كثيرا عن الحياة خارجه؟

– أنت تفرق بطيبة قلب بين سجن كبير وسجن صغير.

انتهت الفسحة، لم يذهب طه وعباس إلى غرفتي الحبس الانفرادي. تم اقتيادهما على الفور إلى غرفة التعذيب. أبلغهما المعذب بأنهما مازلا يحتفظان بكامل قواهما العقلية، فهما أنه تم التنصت على ما جرى بينهما من حديث. تعرضا لأول مرة لعملية التعذيب بالإغراق بالماء.

في ضحى اليوم التالى للخطبة العصماء، حل موعد الفسحة، اندمج طارق كعادته مع المساجين في بداية الفسحة، يستأنس بهمهماتهم وثرثرتهم وتليقاتهم التي لا تخلو من غمز ولمز. وبمرور

الوقت أصبح هناك من يستأنس الآخر، ومن تتقارب طباعهم وأمزجتهم، فأخذت تتوالد تجمعات صغيرة، ثنائية وثلاثية ورباعية، تتجاذب أطراف الحديث بحذر وحيطة، فهم واثقون أن بينهم جواسيس يعدون عليهم الأنفاس والكلمات، وملامح الوجه المريبة التي تعتبر في حد ذاتها جريمة، بل جريمة الجرائم. لم يوفق طارق في البداية في اكتساب صحبة ثنائية أو ثلاثية كان يشعر أن السجناء يتجنبونه بشكل متعمد، فكلما اقترب من أحدهم، بادله كلمة أوكلمتين ثم ينصرف. رجح بأنهم يتجنبوبه بحكم موقعه السابق في السلطة، فهم غالبا مايعرفون موقعه السابق ومركزه المرموق وشخصيته البارزة في قمة السلطة، وغالبا ما قرأوا حواراته في الصحف وشاهدوه في برامج تليفزيونية وربما يتصورون أنه يدفع ثمن خطأ جسيم، إنه عائد إلى السلطة إن عاجلا أو أجلا، وربما أيضا ينفرون منه باعتباره جزءا من النظام الذي شوه حياة الناس وأجهض مكاسب الانتفاضة. كان هذا الوضع يسبب له ألما كبيرا. تمنى أن يعرفوا الحقيقة، يعرفون أنه انقلب على النظام وهو يدفع الثمن الباهظ لانقلابه، وهم يخصونه بأشكال حديثة ومتطورة من التعذيب، تفوق ما يتعرض له الآخرون أضعافا مضاعفة.

وفي هذه الفسحة حدث مالم يتوقعه طارق. كان قد استكفى بدفء وجوده وسط السجناء، فاتحه – كما تعود – نحو ربوة

صغيرة، تربع فوقها، وأخذ يقلب نظره بين صحو السماء، وهرج ومرج السجناء، وقمم الفنادق وناطحات السحاب التي يعرف أن المقيمين فيها من السياح وكبار المسؤولين واللصوص أعضاء الحزب المبجلين.

وجد من يقترب من مجلسه بخطى متثاقلة، يعاني من الإعياء والإنهاك، ومازالت نظراته شيئا من العناد والإصرار، وقد تكشف عن ذهن مازال يفكر ويقاوم عوامل الفناء توقف الرجل أمامه وهو ينهج واستأذنه في الجلوس بجواره. استجاب طارق برضا وسعادة. أخيرا أصبح له صديق. عرفه بنفسه، بعد أن التقط أنفاسه: "دكتور خليل فرج.. سجين سياسي بالصدفة.. أفهم في السياسة ولا أعمل بها" .رمقه طارق بنظرة حائرة متوجسة لا تخلو من دهشة وذهول. شعر بأنه أمام لغز غامض مريب. أسر أن يصمت ويجمد عقله حتى يعرف ما وراء هذا ال"خليل" قال خليل ببساطة:

– قد تستغرب أنني اقتربت منك، ورغبت في صحبتك.

– لا أخفي عليك أنني مندهش.. السجناء يتجنبونني، وربما يكون لهم بعض العذر.

– أنا أعرفك تمام المعرفة.. لم أكن راضيا عن أدائك الرائع في خدمة النظام.. كنت نموذجا فذا في تغييب الحقائق.. لا أشك في أنك انقلبت على الوضع القائم.. عندما يتقرر توقيف الرجل الثاني

في الحزب، ويتم سجنه وتعذيبه، فلابد أنه خان الأمانة، وعندهم ما يثبت ذلك.. أنا أستاذ اقتصاد وعلوم سياسية.. أفهم في سياسية.. أفهم في السياسة.

قال طارق بارتياب:

- ألاحظ أنك لا تتوخى الحذر من الحديث داخل جدران سجن.. هذه شجاعة محيرة.

- فهمت قصدك.. تتوقع أنني جاسوس مدسوس عليك. لم أطمع في العمل مع الحزب قبل السجن، ولا أطمع في ذلك بعد السجن.. أتحدث مع المأمور بصراحة مطلقة، وهو يحترمني ويثق في براءتي.. يناقشني في الشأن الجاري فأجيبه بمنتهى الصراحة.. أصارحه بأنني أستاذ جامعي يتمسك بشرف المهنة حتى الموت.. أختلف مع النظام ولا أتآمر عليه.

- هل تجنبك هذه الصراحة أهوال التعذيب؟

- إطلاقا.. إدارة السجن تقوم بواجبها خير قيام.. لا تملك أن ترحم أو تتغافل عن وظيفته.

- وماذا يستفيد المأمور من صراحتك؟

- يستمع إلى حججي ثم يواصل جنونه، وكأنني لم أقل شيئا على الإطلاق.. يقدرني بضميره الإنساني ويلتزم في الوقت نفسه بقواعد

مهنتـه.. هـو ضـحية جنـون مخطـط، تـشربه جرعـة جرعـة.. يعـيش التناقض الذي يعيشه كل الأذكياء.. أشفق عليه وأنفز منه في الوقت نفسه.

عاد الدكتور خليل يقول بمنتهى الصراحة:

– ألم تعش أنت نفس التناقض؟.. ألم توازن بين دواعي المهنة ونزعة الاحتجاج حتى لا تصاب بالجنون؟! ثم أخللت بالتوازن تحت ضغط الظروف فوجدت نفسك في السجن.

عاد "طارق" يسأله بحيرة شديدة ورغبة في الاستيضاح:

– ألا يخـشى المـأمور علـى نفـسه مـن سـماع مأخـذك علـى الـشأن الجاري؟

– هو يستفيد مما أقول.. يجد ما يكتبه في تقريره الدوري.. ورئاسـته تـستفيد مـن مـضمون التقـارير.. تتعرف علـى مـا يـشغل الرأي العام، وتقـوم بواجبهـا فـي إعـادة تـشكيل العقـول.. أظـن أن لـديك الخبـرة الكافية بقواعد هذه اللعبة.. لقد لعبتها على مستوى شعب بأكمله.

قال "طارق" بمزيج من الدهشة والاعجاب:

– أنت صريح أكثر من اللازم.. هل هناك جدوى من هذه الصراحة؟

– لم يعد عندي وعندك ما نخسره.. لن يتوقف التعذيب ولن يتغير الوضع.. الصراحة لم تعد تضر.. ربما تكون لها فائدة.. نوع من التفريج عن النفس.

– ماذا تفيد صراحتك معي؟

– أطلب الصحبة والحديث مع مرتد عاد إلى صوابه.. أنت نموذج مثالى لصداقة بين اثنين تجمعهما المحنة نفسها.. بين ملتزم يرفض الردة ومرتد يدفع ضريبة ردته.

– ألا تخشى على نفسك من الجنون؟

– ربما هم يريدون ذلك... لا أستبعد حدوثه.. ومع ذلك.. جنون العقل أفضل كثيرا من الاستسلام لجنون النظام.

دق جرس انتهاء الفسحة. نهض طارق وخليل لينضما إلى طابور العودة إلى غرف الحبس الانفرادي. بدا طارق مشغول الفكر، وهو يضع ذراعه على كتفي خليل بمحبة.

– استدرجنا الحديث، فلم أسألك عن جريمتك التي قادتك إلى السجن.

قال له خليل وقد اطمأن إلى دفء الصحبة وحميمية المشاعر:

– دعني أحدثك عنها في فسحة الغد.

وصل طارق إلى باب غرفة حبسه. دفعه السجان داخل الغرفة بقوة وعنف وأغلق الباب، وجد في انتظاره ما يسمى – جوازاً – وجبة الغداء.. علبة عدس مغطاة ببقع سوداء.. قطعة جبنة مُتحجرة.. رغيف مُقدد كالح اللون.. بصلة وقطعة سكر. كان لابد أن يتناول شيئا ليواصل الحياة، أكل ما استطاعت أن تتقبله نفسه العزوف، لم يعد أمامه سوى أن يتمدد فوق الحصيرة، ويدير ماكينة عقله، ليتذكر مزيجاً من الذكريات والأفكار، على سبيل السلوى وملء الوقت الفارغ.

فوجئ بباب الغرفة ينفتح، أخرجه السجان واصطحبه عبر الممر الطويل. أدرك على الفور الوجهة المنقاد إليها، صح ما توقعه، دفعه السجان داخل غرفة التعذيب وانصرف، واستلمه المعذب، وضعه فوق طاولة صلبة ذات عجل، ثبته فوقها بأربطة أوتوماتيكية، أحاط معصميه ورسغيه بأساور متصلة بكابلات كهربائية، دفع الطاولة إلى المكان المعلوم، أدار مفتاح التشغيل، سارت الشحنة الكهربائية في جسد طارق "بالفولت" المحسوب، صرخ بهلع حتى كادت تنقطع أوتار حنجرته، ورددت الجدران هدير صراخه، أخذ جسمه يرتعد بدون توقف، توقفت الشحنة في التوقيت المحسوب. حاول أن يستعيد توازنه بصعوبة بالغة، ما إن استرد أنفاسه حتى انطلقت الشحنة التالية عاد الصراخ وارتعاش الجسد، أيقن أنه لن يقوى على

الصمود وهو حتما سيفارق الحياة، تواصلت الشحنات في أوقات متباعدة محسوبة بدقة، تواكبت الشحنة الأخيرة مع دخوله في غيبوبة عميقة.

سحب مسئول التعذيب الطاولة، فك أساور الكهرباء الصاعقة، جاء دور الطبيب. قام بفحص الجسد اطمأن إلى أنه مازال على قيد الحياة، عالجه بحقنه في العضل، تعينه على استعادة الاتزان وتمالك الأعصاب، تم وضعه على نقالة أوصلته إلى غرفة الحبس، حيث مدد السجان فوق حصيرته. لم يفق "طارق" من غيبوبته إلا مع شقشقة الفجر، حاول استعادة ما جرى بعناد مستميت، لم ينزعج لتراجع مقاومة جسمه الآخذ في الضعف والنحول كان أخطر ما يزعجه هو أن يفقد عقله، تساءل في قلق: كم يساوي حاصل جمع ٣+٣ ؟.

مرت لحظات ثقيلة قبل أن يكتشف أن حاصل الجمع هو "٦"، هكذا اطمأن إلى قدرة عقله على التماسك والصمود، لم يكن يشعر بأنه يخوض معركة خاسرة، فربما ينجحون في إذلال وتدمير جسده على مراحل، في حين أن عقله يستبسل في الصمود، وهو يعي أن جراحات التعذيب تهدف في النهاية إلى تدمير عقله، ويثق بأن سلاحه الوحيد المتبقي يكمن في إرادة المقاومة.. المقاومة من أجل المقاومة، وليس لتغيير وجه الزمان القبيح.

بدا "طارق" سعيدا عندما حل موعد الفسحة أصبح له صديق، هناك من يمكن أن يتحدث معه، سيستخدم حنجرته ولسانه وشفتيه. سيلتقي مع "خليل فرج"، جلس فوق الربوة المعهودة في جانب الفناء. أخذ يفتش بعينيه عن "خليل" وسط السجناء. ظهر خليل فجأة يقترب من "الربوة"، بدا منهمكا مهدودا، لا يقوى على مواصلة السير. جلس في منتصف المسافة، أخذ يلتقط أنفاسه ثم واصل الاقتراب حتى جلس بجوار "طارق" الذي قال له إنه عانى بالأمس من أقسى حلقة من حلقات مسلسل التعذيب. بادره خليل بالقول إنه يعرف ما حدث له تمام المعرفة، سأله بدهشة: "كيف عرفت؟". أفاده بلهجة تقريرية بأنه كان الضحية التالية، وقد رآه فوق النقالة، مغمى عليه، وهو خارج من غرفة التعذيب، قبل أن يأخذ هو دوره فوق الطاولة الفولاذية، عندها استغرب طارق من هذه المصادفة، قال له خليل بواقعية: "شيطانهم لا يعتمد على المصادفة.. من المؤكد أنهم سمعوا ما قلناه بالأمس.. هم يحولون بعبقرية رمال الفناء إلى أسلاك تسمع وتنصت". سأله طارق عما إذا كان من الممكن مواصلة الحديث بمزيد من العناد، أم من المستحسن اللوذ بالصمت لتجنب المزيد من التعذيب. قال له خليل بتوبيخ:

– يبدو أنك لم تتعلم من مهنتك السابقة الكثير.. لم تتعرف على الأصول السادية للمستبد الغاشم.. هو يجمع بين غرور السلطة

والخوف الدفين ممن يمسك بتناقضات عالمه المعقد المريض.. كتبت دراسة عميقة عن سيكولوجية المستبد، ولم أجد الناشر الذي يملك شجاعة نشرها.. لن يتوقف التعذيب سواء تكلمنا أم خرسنا.. ربما تنتظرنا الحلقات الأبشع من المسلسل.. دعنا نفرج عن النفس بالحديث، ودعهم يواصلون مسلسلهم المحتوم.

قال طارق بعد تردد وفي لحظه ضعف:

– ألا يجوز التفكير في التراجع والتظاهر بالاستسلام، لتجنب العذاب وحدوث الانهيار؟!

رمقه خليل بنظره مستخفة وساخرة:

– ما هذه السذاجة يا وزير الحقيقة السابق؟.. هل تظن أنك تستطيع خداعهم؟. هم يريدون عقلك، ولا يريحهم أن تتظاهر بأنك فقدته.

فكر طارق طويلا، وعاد يقول:

– دعنا إذن نتسلى بالحديث.. وليكن ما يكون.

– سألتني عن جريمتي التي قادتني إلى هذا السجن الصغير.

– كلي شوق وفضول.. تكلم.. كلي آذان مصغية.

أخذ "خليل" يستجمع تفكيره ويرتب ذاكرته ثم قال :

"تذكر أيام الانتفاضة الشعبية الأخيرة، التي أرادت تصحيح الوضع القائم، مستلهمة ذكرى الانتفاضة الأولى، التي فجرها الأخ

"الملهم" مع رفقائه.. دخلت الجامعة في صباح اليوم الأول من الانتفاضة.. وجدت الطلبة محتشدين في فناء الجامعة، يهتفون بشعارات معادية للنظام، ويطالبون بالحرية والعدالة، ومحاكمة الانتهازيين والفاسدين، وإلغاء الحرس الجامعي، وحق الطلبة في ممارسة النشاط السياسي.. بدأ ضباط وجنود الحرس الجامعي يحاصرون التجمعات والحشود، يحاولون تفريقهم ومنعهم من الخروج إلى الشوارع.. وما إن أخذوا يضغطون على أبواب الجامعة، حتى تصاعد العنف والضرب من الحرس تجاههم.. توقعت حدوث مجزرة بين الطرفين.. توسطت جموع الطلبة وخاطبت رموزهم وقياداتهم حتى بح صوتي.. طلبت منهم أن يعودوا إلى قاعات الدرس، على وعد بالاستجابة لمطالبهم.. توسلت إليهم ألا يخرجوا إلى الشارع.. لم أنكر عليهم حقهم في التظاهر والتعبير عن مطالبهم، داخل أسوار الجامعة وبشكل سلمي هادئ.. وعدتهم بأن أكون وسيطا محايدا لدى المسؤولين لإزالة أسباب احتجاجهم.. كان طوفان الغضب أقوى من توسلاتي.. نجحوا في فتح الأبواب، وخرجوا إلى الشارع.. لم أيأس.. خرجت معهم وأنا أواصل نصح قياداتهم دون استجابه.. وصل عنف الحرس إلى ذروته.. بدأ الضرب وإطلاق الغازات المسيلة للدموع، والمخدرة، وإطلاق الرصاص في الهواء ثم تحت الأقدام.. تضاعف اعتقال القيادات واحتجازهم في

عربات الشرطة.. أخذت أكرر وعدي لهم بالاستجابة لمطالبهم بشرط العودة إلى قاعات الدرس.. فقدت وساطتي أي أمل في التهدئة.. أدرك الحرس فشل مساعي، فتم القبض على واحتجازي مع المقبوض عليهم في عربة شرطة، بعد أن أوسعت لكماً وضرباً وركلاً وتمزيق ملابس.. وجدت نفسي أمام المحقق في قسم الشرطة.. سألته عن جريمتي.. أفادني بأنني اعترفت بصحة وعدالة مطالب الطلبة، ووعدتهم بالاستجابة لها، وكان من الطبيعي – من وجهة نظره – أن أدينهم بالعمالة والإجرام والتآمر على مصلحة الشعب الآمن.. قلت له إنني حاولت فض التظاهر ثم يكون هناك حوار..هكذا وجدت نفسي في السجن دون أن أحاول إلى نيابة أو محكمة.. طلبت أن أحال إلى القاضي الطبيعي، فقيل لي إن الوقت لم يحن بعد، وربما لا يحين في أي يوم من الأيام.. قلت له ببلاهة وعبط أستاذ جامعي أكاديمي:"إن هناك بعض المطالب المشروعة للطلبة".. قال لي بحنق وتشف:"سيتكفل السجن بتحرير عقلك من سموم مرض خبيث".. هل تريد يا سيادة وزير الحقيقة السابق أن تسمع مني أكثر من ذلك ؟".

حل موعد المحطة التالية في مسلسل التعذيب، انفتح باب غرفة الحبس، دخل السجان وقاد "طارق" عبر الممر الطويل، أدرك على الفور أنه في طريقه إلى غرفة التعذيب، أخذ يقاوم شعوره بقرب

انتهاء المقاومة وتراجع إرادة العناد، فكر في طلب مقابلة من بيده الأمر، ليعرف ماذا يريد ويفكر في حيلة لاسترضائه دون أن يفقد ملكيته لعقله، لم يكن قد توافر لديه بعد الدافع الداخلي القوى لتقديم التنازل الأخير، استسلم لبقية مقاومة تدعوه لمواصلة الصمود، سلّمه السجان لمسئول التعذيب في غرفة أخرى غير الغرفة السابقة، أيقن أنه سيشهد نوعا آخر من أنواع الإذلال والتفكيك، تم وضعه وتثبيته فيما يشبه "بانيو" حديدي عميق نسبيا، حيث تم إرقاده على ظهره، فلم يعد يري شيئا سوى سقف الغرفة الذي تدلى منه رأس "دش" واسع وبلا مصفاة أشبه بفتحة ضخمة لخرطوم مطافئ.

هكذا تحول جسده إلى كتله مادية جامدة، خلت من أي معالم الحياة لم يصدق أنه يستطيع أن يواصل التنفس، انفتح الدش فجأة. نزل سيل جارف من الماء فوق رأسه، أشبه بشلال عارم، شعر بالاختناق، لم يستطيع أن يحصل على الأكسجين الكافي لمواصلة الحياة، حاول أن يصرخ ويستغيث فلم يجد الطاقة التي تمكنه من الصراخ، أيقن أنه يجري تنفيذ حكم بإعدامه بطريقة عصرية، تراجعت أنفاسه مثلما تراجعت ضربات قلبه، وفجأة توقف سيل الماء، وبدأت تعود إليه بقايا حياة، ما إن استعاد بقايا حيوية حتى عاد الماء يهطل من جديد، ويعاني ما يعاني منه، تكررت عملية التعذيب بالإغراق عدة مرات، حتى بدا أنه يوشك على مفارقة الحياة، توقفت عملية

التعذيب بعد أن أدت مهمتها بنجاح، ودخل "طارق" في غيوبية أقرب إلى غيبوبة الموت، تم رفعه من "البانيو" ووضعه على النقالة قام الطبيب بفحصه، عالجه بالحقن والدواء اللازم، قام بتدليك قلبه وصدره، حتى اطمأن إلى أنه لم يحظ بنعمة الموت، أعيد إلى غرفة الحبس، وتم تمديده فوق حصيرته وتغذيته بسرنجة "الجلوكوز"، مرت ساعات طويلة عصيبة قبل أن يستفيق، تساءل بقلق: كم يساوي جمع ٣+٣ ؟ لم تعد الإجابة حاضرة في رأسه، أدرك أنه قد حدث تحول مهم، لم يعد من الممكن تجاهله، لم يعد عقله يعمل بنفس الكفاءة والعناد، أيقن أنه لم يعد هناك مفر من تقديم التنازل الأخير.. تنازل يمكنه من تجنب أهوال التعذيب، مع الاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من قناعاته ومعتقداته وسلامة عقله.

أخذ "طارق" يراجع تفاصيل المقرر الذي اتخذه لتجنب التعذيب، تذكر بأنه لم يقدم اعترافا شافيا للأخ الملهم (جودت سليم) عندما طلب مقابلته، سخر من نفسه عندما استرجع ما قاله له، طرح عليه أفكاراً أمينة وعاقلة – لايستوعبها مجنون سلطة – للخروج من أزمة نظام، لايرى بوادر كارثة محققة.. تذكر ضابط المباحث الذي دهمه في بيته، وواجهه بجرائمه المثبتة بالوثائق والمستندات، التي لم يعترف بها صراحة، انتظارا لمثوله أمام قاضيه الطبيعي بحكم القانون، وغفل – آنذاك – عن أنه ليس هناك في

الواقع قانون، وكأنه سياسي هاو مبتديء لم يستوعب قواميس النظام.

لم يتوان عن اتخاذ قراره وطلب مقابلة المحقق المسئول. هكذا وجد نفسه ماثلا أمامه في مكتبه يدلي باعترافاته دونما أي حذر أو تحفظات، اعترف بأنه خان الأمانة، ولم يكن أمينا على قرارات الحزب وتوجهاته، وقد سجل ذلك في مذاكرته السرية وكان ينتظر اللحظة المناسبة للانقلاب على الحزب وتغيير النظام، وقد وجد قي لقائه مع "زايد قطب" فرصة ذاهبية سانحة للتآمر على الوضع القائم، وإعلان ولائه لأفكار "همام خاطر" وتشجيع خلاياه النائمة وتحريضه لقوى المجتمع على الثورة والغضب والاحتجاج، وانه أعاد قراءة منتشورات "همام خاطر" وأخذ يروج لها باعتبارها دستور المستقبل، وهو يعترف بأنه وقع ضحية أفكاره المسمومة، التي تسببت في فقد ولائه لشرعية النظام القائم، وهو نادم على ذلك أشد الندم، ولا يعرف كيف يكفّر عن جرائمه في حق الشرعية وكيف يطلب الصفح والغفران!

أخذ المحقق يسمع ويسجل ما يسمع، لم يتوقف طارق عند حد واضح لاعترافاته، كان يدلي بالكثير مما حدث وما لم يحدث، وكأنه يكتب رواية خيالية، يختلط فيها الواقع بالتهويمات والمبالغات، يحكي ما حدث باعتبارها جرائم تورط فيها، ويخمن ما يريدون أن

يعترف به، فينسج من محض خياله جرائم لم يرتكبها لينجو بنفسه من أهوال العذاب.

لم يندهش المحقق كثيرا لما سمعه من طارق. أدرك أنه لم يعد يتحمل آلام العقاب، وأدرك بحاسة أمنية مرهفة أنه مازال يحتفظ بقواه العقلية، وهو يوظفها الآن لابتداع وقائع لم تحدث طلبا للنجاة، أراد أن يستدرجه لمزيد من الاعترافات ليتأكد من صحة جديه لما طرأ عليه من تغير، سأله بلهجة هادئة لا تخلو من تصنع الحياد:

– وماذا عن الانتفاضة الغاشمة الأخيرة؟

أجاب طارق وهو يعمل خياله بهمة ونشاط:

– تبين أنها من صنع أعداء الشعب.. تورط فيها أبرياء كثيرون، نجح أنصار "همام خاطر" في تهييجهم وتحريضهم، وبث دعاياتهم الكاذبة ضد الحزب وأعوانه.. أعترف بأنني كنت أحد المخدوعين، اللذين سلبت إرادتهم واستسلموا للغضب والتمرد والاحتجاج، وقد دفعت أنا والمخدوعون ثمن الخطيئة حيث وجب العقاب، بسبب المشاركة في المظاهرات.

– معلوماتي تقول إنك لم تشارك في المظاهرات.. كنت بعيدا عنها، تمارس منصبك الرفيع.

ارتبك طارق قليلا. أدرك أن "الكذبة" لم تخل على المحقق. عاد يقول بإصرار:

- أعترف بأنني شاركت في المظاهرات.. لم تتمكن عيون الأمن من ضبطي متلبسا بالجريمة.. أتمنى أن تحظى أمانتي بالرضا والقبول.

تأكد المحقق من نية طارق في مراضاة السلطة، بعد أن قام التعذيب بوظيفته الفعالة، قرر أن يواصل لعبة التظاهر بالتصديق والمجاواة على سبيل التسلي والاستمتاع بتداعيات الشعور بالضعف وتراجع المقاومة. سأله بمزيد من تصنع الحياد:

- وماذا عن علاقتك بـ "زايد قطب" الذي وشى بك؟

فكر طارق قليلا، كان يبحث عن الإجابة المُرضية، بصرف النظر عن الحقيقة قال:

- "زايد" أخ عزيز وصديق حميم.. هو نموذج للإنتماء النبيل والولاء المطلق.. الولاء الذي انقلبت أنا عليه بفعل الوشاه والمخربين.. زايد يضحي بمشاعره الخاصة ومصالحه، لصالح القضية التي يؤمن بها.

قال المحقق بلهجة تلميح لنزعة طارق للخلاص من محنته:

- ولكنه فاز بمنصبك السابق كمستشار أول للأخ الملهم وكوزير للحقيقة!

- زايد ضحى بالأخوة والصداقة، وانحاز للشرعية وسيادة القانون.

– تصورت أنك ستدين غدره بك.. لا أتصور أنه كان صديقا لك.

– هذا مخالف للحقيقة.. رشحته أكثر من مرة ليشغل منصبي، تقديرا لإخلاصه وكفاءته.

– معلوماتي تقول إن ذلك لم يحدث.

– ومن قال إنك تعرف كل شيء.. لاسيما ما كان يدور خلف الكواليس.

قرر المحقق مواصلة الحوار، مستسلما لمزيد من الشعور بالطرافة والإثارة قال:

– وماذا عن علاقتك بـ "رنده زاهر".. مسئولة التأليف والنشر بوزارة الحقيقة؟

صمت طارق طويلا، حرص على إخفاء مشاعره الفياضة التي لم يفقدها بعد، قال باقتضاب:

– دعنا نتحدث في هذا الموضوع في وقت آخر.

– أخذ المحقق يقرأ ملامح وجه طارق، أدرك أنه إذا كان يتظاهر بالاعتراف بجريمته وتنازله عن قناعاته الفكرية، فإنه ليس مستعدا حتى الآن للتظاهر بفقدان حبه لـ"رنده"، وخيانته لمشاعر العشق والغرام التي تجمعه بها. سأله المحقق سؤالا مباشرا:

– أي فائدة تعود عليك من تقديم هذه الاعترافات الآن؟

– أردت أن أريح ضميري وأظهر توبتي وندمي.

أنت تعرف أننا لسنا بحاجة إلى هذه الاعترافات.. عندنا ما يثبت جريتمك ويؤكد انحرافك عن جادة الصواب.

قال طارق بلهجة تلميح، تشي باستيعابه للمطلوب، وقراره بالاستجابة:

– ربما أردت الإعلان عن فقدي لما يجب أن أفقده، ليطمئن الحزب إلى نجاح مقصده.

– الحزب هو الذي يقرر ما إذا كنت قد فقدت ما يجب أن نفقده، أم مازالت هناك بقية!

– ألا تشعر أنني فقدت مبرر غضب الحزب؟

قال المحقق بتلميح واضح:

– لا أشعر أنك فقدت ما يجب أن تفقده.. مازال عندك ما يستحق الإزاحة والتغييب.

عاد المحقق يسأله وهو ينهض:

– هل لديك أقوال أخرى؟

– لدي رسالة أريد تبلغها للأخ الملهم.. إنني أتمنى له دوام الحياة والبقاء، وهو لا يمكن أن يخطيء، فهو دائما على صواب.

– هل هذا كل مضمون الرسالة؟

– قل له إن طارق اقتنع أن حاصل جمع ٣+٣ يساوي "٨".

سأله المحقق بدهشة واستغراب:

– ماذا تقصد من هذا اللغز؟

– هو من يفهم هذا اللغز.. ربما يغفر لي ويعفو عني عندما تصله هذه الرسالة.

لم يكن طارق صادقا في إقراره بحاصل الجمع الذي ذكره للمحقق، لم يكن قد فقد عقله بعد، أراد أن يناور ويداور بسذاجة عاجز منزوع السلاح، أراد أن يبلغ الملهم بأنه استعاد ولائه لما شارك في صنعه بعبقرية واقتدار، أراد أن يستعيد ازداواج شخصيته أملاً في مواصلة الاحتفاظ بحرية عقلية لا تجدي نفعا، ولكنها تقدم مبرراً مثاليا لمعنى الوجود.

لم يمر وقت طويل حتى وجد طارق نفسه مقادا من جديد إلى غرفة التعذيب، تم تمديده في وسط الغرفة على ظهره، وفتح ذراعيه وساقيه على آخرهما، وربطهما بأحبال قوية سميكة مشدودة كأنها أسياخ حديدية، بدا جسده عاريا حتى من ورقة توت، صدرت الإشارة ببدء جرعات التعذيب، تم إطفاء أعقاب سجائر في جلد رأسه ورقبته وفخذيه وفي أماكن أخرى حساسة، حتى وصل صراخه إلى عنان السماء، جاء حملة الجرادل وأخذوا يصبون فوق جسده ماء مثلجا مختلطا بقطع من الجليد، مر بعض الوقت قبل أن يأتي حملة الجرادل مرة أخرى ليصبوا فوق جسده ماء مغليا، يتصاعد منه بخار

ساخن يشل الحواس. أوصى الطبيب أنه في حاجة إلى هدنة صغيرة قبل مواصلة التعذيب. لم يتوقف صراخ طارق وتأوهاته وفحيج حنجرته كأنه كلب عاجز عن العواء، مرت الهدنة بسرعة البرق مع تزايد انتشار الالتهابات والتورمات وبقع الدم فوق جسده، ثم حل الشوط الثاني من التعذيب، أخذت الحبال تنشد ببطء شديد في البداية ثم تواصل انشدادها. شعر طارق بأن مفاصل ذراعيه وساقيه تكاد تنفك وتنفصل عن مراقدها، تقاطع صراخه الخافت مع تقطع أنفاسه تراخت الأحبال قبل أن تنفصل أطرافه، استطاع أن يستعيد علو صراخه وهو يهتف: "يحيا الأخ الملهم".. عاش الزعيم الأوحد.. لا زعيم إلا الأخ الصالح.. يسقط همام خاطر عدو الشعب.. يعيش حماة الانتفاضة الأولى.. يسقط زبانية الانتفاضة الثانية.. أقسم بالله العظيم أن ٣+٣=٨.. تساوي "٨" حقا وصدقا هذه المرة.. الأخ الملهم لا يمكن أن يخطيء.. يأتيه الإلهام من السماء.

تواصل شد وإرخاء الأحبال بحسابات دقيقة، لا تؤدي إلى مفارقة الحياة، دخل في روع "طارق" أن أطرافه قد انفصلت عن جسده، لم يعد يشعر بوجودها كأنما انقطعت أوصال أعصابها وأخيراً استطاع أن يفوز بالسكينة عندما دخل في غيبوبة عميقة، قام الطبيب بمهمته الحساسة، قام بتضميد الجراح وترطيب الالتهابات

وإعادة المفاصل إلى مراقدها وحقنه ببعض المقويات والفيتامينات، وصلت الرحلة إلى نهايتها عندما تم إلقاء الجسد فوق الحصيرة القذرة في غرفة الحبس الانفرادي.

استطاع طارق أن يستعيد بعض لياقته بعد يومين من شوط التعذيب الأخير، استفاق وقد حدثت نقلة جديدة حاسمة، بدت واضحة للعيان، ولم تكن واضحة له، تبين معالم الزنزانة بصعوبة بالغة، حاول يسترجع ما حدث، لاحظ أن مركز الذاكرة أصابه عطب، حاول أن يركز في التفكير ليعثر على السبب ويتصيد المسبب فاكتشف أنه لم يعد قادراً على التركيز، لم تكن تعنيه آلام الجسد بعد أن أدمن هذه الآلام وتكيف معها وصادقها، إنتابه فزع وإحباط عندما تبين أن عقله قد فقد القدرة على المقاومة ودخل في غيبوبة اليقظان.. عقل توقفت مراكز نشاطه، برغم استمرار سريان الدم في عروقه كأنه دخل في سبات عميق.. اقترب العقل كثيراً من حالة "الموت الإكلينكي" أخذت تطارده هواجس وهلاوس وخيالات أعداء موهومة، تتعقبه بلا رحمة ودون توقف. الأفكار تتداخل وتتصادم دون رابط أو ترتيب الحقائق تتبعثر وسط سيل من الخرافات والخزعبلات. ينطق من آن لآخر.. بجمل وعبارات لا تخلو من مغزى وتحتاج إلى طبيب نفسى يفك رموزها.. مزيج من ظلال الواقع وخليط من تهويمات غامضة مختلفة، بدا كأنه يكلم

نفسة وهو يصيح بعبارات لا يربطها ببعض رابط:"يحيا الأخ الملهم.. كـسبت المعركـة وأنـا خـسرتها.. نـار الحـزب ولا جنـة الحريـة..٣+٣=٦.. بيـان إحـصائى مـضحك وسـخيف.. أيـن التفاحـة؟.. طبـق "الباميـة".. إعـادة كتابـة التـاريخ.. الـدنيا طبـق "مـسقعة".. وزارة الحقيقـة وزارة الخيبـة.. تـداول الـسلطة جبنـة بالطماطم.. ضرب على القفا".

لـم يتوقـف عـن إطـلاق مثـل هـذه العبـارات المفككـة. احتـار الحارس في أمر طارق رجح أنه قد فقد عقله.. قد جن جنونه.. لم يعد يعرف ماذا يقول.. لا يتوقف عن الحديث مع نفسه.. يبدو في صمته أنه يعيش في عالم آخر.لم يجد مفرا من إبلاغ مأمور السجن بحالـة "الخبـل" التـي وصـل إليهـا الـسجين قـرر المـأمور إسـتدعاء الطبيب لتشخيص الحالة. وصل الطبيب إلى غرفة الحبس. أمطره طارق بسيل من العبارات المفككة المتناقضة. أخذ يشخص الحالة حتى وصل إلى قرار. ذهب إلى المأمور وقال له بيقين قاطع: "فقد السجين عقله.. دخل فى نوع من أنواع الجنون الحاد.. العلاج لن يغير كثيراً مـن حالتـه.. ربمـا يبقـى الحـال كمـا هـو عليـه.. تكـاليف العـلاج باهظـة، ولا تـؤدي إلـى التحـسن المطلـوب.. يمكـن إعطـاؤه بعض المـسكنات والمهـدئات". أبلـغ المـأمور إدارة الـسجن بالحالـة. اقترح نقله إلى المستشفى. جاء الرد بعد ثلاثة أيام "التعليمات العليا

تقتضي ببقائه في السجن.. ربما يتصنع الجنون، وهو يحمل في رأسه أخطر أسرار الحزب.. يعرف أكثر من اللازم وأخطر من اللازم.. لا ضرر من موته، ودفن أسرار الحزب معه في قبره نقله إلى المستشفى قد يسيء إلى سمعة السجون نجحنا في حرمانه أن يكون شهيداً، تعيش ذكراه في قلوب الأحياء.. مازال عنده ما يجب أن يفقده.. مازال قادرا على الح رغم غياب عقله.. مازالت هناك خطوة، يتساوى بعدها موته وحياته.. المطلوب أن ينعم بجنونه،أو أن يرحل غير مأسوف عليه.

الصعق بالكهرباء.. الإغراق بالماء.. شد المفاصل.. التجميد بالماء المثلج.. الحرق بالماء المغلي.. التجويع والأرق".

– هذا نفس ما فعلوه بي.. أنا أعرف لماذا فعلوا بي ذلك.. ولكن .. لماذا فعلوا بك ذلك؟

– أستاذ جامعي.. يدين له الطلبة بالولاء.. خافوا عليهم مني.. يحمونهم من حكمتي وصوابي.. يرون أنهم أرحم مني بهم.. أنا أفسد عقولهم.. الشيطان والملاك.. الظاهر والباطن.. اللاعب والملعوب.. الحرس والبندقية.. الزيت والباذنجان.. الملوخية والطعمية.. الطربوش والعمامة.. القبعة والطاقية.

– ماذا قلنا عندما تقابلنا من قبل؟ ما الفرق بين الحياة والموت؟.. ما معنى الموت بالحياة؟.. ما معنى الحياة بالموت؟.. تراعيني قيراطاً

أراعيك قيراطين.. تشوفني بعين أشوفك باثنين.. العدو أصبح صديقاً والصديق أصبح عدواً.

– الجنون راحة.. والراحة جنون.. كيف نكتشف ذلك رغم إدعاء الحكمة وبُعد النظر.. كم كنا أغبياء؟.

– أنا أرفع قبعتي للأخ الملهم وزمرته.. يستحقون الهتاف بحياتهم.. برشدهم وصلاحهم.. هم أذكياء بحق.. يستحقون النعيم الذي هم فيه.. يعرفون ماذا يريدون، وكيف يحققون ما يريدون.

– أنا أكرر معك الهتاف بحياتهم.. هم الأذكياء ونحن المجانين.. تأخرنا في الفوز بغنيمة الحكمة.

– عقلاء نحن أم مجانين؟

– مجانين مازالوا يحتفظون ببقايا عقل.

سأله طارق باستخفاف:

– هل تحب أن يفرج عنك؟

أطلق خليل ضحكة هستيرية وهو يقول:

– ما معنى كلمة افراج؟.. اللغة الجديدة لا تفرق بين الحبس والافراج.. هنا سجن صغير.. وفي الخارج سجن كبير.. هنا تعذيب وفي الخارج تعذيب آخر.. الحرية هي أن تختار نوع التعذيب.. أوتتركهم يختارونه لك، إذا أردت أن تريح نفسك من عناء الاختيار.

قال طارق بلهجة ساخرة تفيض بمرارة:

– نسيت أن تقول شيئاً مهماً.. هنا جنون وفي الخارج جنون آخر.

– الجنون هنا في السجن مريح.. يعطيك أجازة مفتوحة من العقل والوعي والإرادة.

– وماذا عن جنون المدينة الفاضلة في الخارج؟

– أن تكون مالكاً لحرية العقل والإرادة وتمنع من استعمال هذه الحرية.. أنت إذن تملك عقلاً ولا تستعمله.. والحزب يملك عقلاً يمنعك من استعمال عقلك.. أليس هذا جنوناً؟

– معك حق.. الجهلاء والحيوانات لا يصابون بالجنون.. ينعمون بغياب العقل.. ليسوا في حاجة لمن يُغيّب لهم عقلاً غائباً.

عاد خليل يقول بعفوية لا معقولة:

– العملية في النملية.. الحكاية في الكباية.. إحنا دهنا الهوا "دوكو".. إحنا اللي دهنا الشجر أخضر.. مسا التماسي يا أبو كعب حافي.. إحنا اللي زرعنا "المريخ" كوسة وباذنجان.. إحنا اللي خرقنا "الأوزون.. شيّلني وأشيّلك.. اديني عقلك وخد عقلي.. يحيى الزعيم الأوحد.. لا زعيم إلا الزعيم الأوحد.. يعيش الأخ المنهك.. أقصد الأخ الملهم.. فلتبق الدكتاتورية من أجل حماية مكاسب الثورة.. سلم لي على الثورة.. إحنا اللي فتتنا الذرة.. لاقيني ولا تغديني..

إحنا اللي طبخنا البانجو، آدي الكلام.. أحلي كلام.. وسلم لي على "التُك تُك".

سأله طارق باستغراب وتشكك:

– هل جننت أن تتصنع الجنون؟

– فرق بين الاثنين.. دعهم يطمئنون إلى جنوننا.

– أرجوك.. دعنا نحتفظ ببقايا عقل.. نحتفظ بها ولو خلسة.

– هذا سيدعوهم لمواصلة التعذيب، ليسحقوا البقية الباقية.

عاد طارق يقول:

– مازلت قادراً على الحب والكراهية.

– أنت إذن تملك بقايا قلب.

فكر طارق قليلاً، وعاد يقول بلهجة استرجاع:

– ربما هذا ما قصد إليه المحقق وهو يستجوبني.. قال لي إنه مازال هناك ما يجب أن أفقده.

– هذا يعني أن مشوار التعذيب لن يتوقف.. لم يصل إلى نهايته بعد.

– هل يمكن خداعهم؟

– هم الأذكياء ونحن الأغبياء.. نحن مرضى بأوهام الحرية والعدل.. وهو أصحّاء يوظفون مواهبهم لامتلاك أدوات القوة والتسلط والاستبداد.. هم أحق منا بالبقاء ومواصلة الإذلال.

عاد طارق يقول وقد تراجعت بقايا تركيز وإدراك:

– الفاصوليا في النابوليا السيكا هي المزيكا، شيش جهار.. كش ملك.. أنا اللي اشتريت الترماي.. الولولة ولا البهدلة.. يا حلاوة المول والبوتيك والسوبر ماركت.. الحقني برقاصة.. أسعفني بشريط "كليب".. التجميل بالسليكون آخر صيحة.. تاريخ إيه وهباب إيه.. الجغرافيا في المغرافيا.. سهيني واضربني على قفايا.. آل إيه تنمية ومضاعفة دخل ومقاومة البطالة ووقف التضخم وتخفيض العجز في الميزانية وتوازن الأسعار والأجور.. كلام هبل ومجانين.. آي والله.. إحنا المجانين مش همه.. اعقل يا راجل وحط لسانك جوه بقك.. نهق زي الحمار.. وهبهب زي الكلب.. وجعر زي عجل بيدبحوه.. وسلم لي على العدالة والتنمية.

كتب مأمور السجن في تقريره الدوري، ما يؤكد أن "طارق زيدان" قد فقد عقله، ولا يكف عن ترديد حسبة: ٣+٣ = ٨ أو"٩" إذا اقتضى الأمر، وردد بانتظام: كلمة "صالح" لا تعني غير وصف ما يقوم به "الزعيم الأوحد" من أعمال، وإنه قد أصبح يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة شعارات الحزب الثلاث: "الحرب هي السلام"، "الحرية هي العبودية"، "الجهل هو القوة"، وقد أوصى المأمور بإيقاف التعذيب، أو تخفيفه على أقل تقدير، وقد جاءه الرد بأن طارق يحتاج إلى اختبار أخير، وأن على المأمور أن يقوم بهذا الاختبار، وفق خطة مدروسة، تم ترتيب تفاصيلها مع المأمور، هكذا

لم يتوقف التعذيب، وإنما تم تخفيضه، حتى لا يشعر طارق بالأمان ويفكر في استعادة وعيه.

حل موعد الفسحة التالية، وجد طارق نفسه هائماً على وجهه وسط المساجين في قلب الفناء، تذكر أن له صديقاً يلتقي به أثناء الفسحة، أخذ يبحث عنه وهو يجتهد في تذكر ملامح وجه، لم يجده هذه المرة، ضمن أنه ربما فارق الحياة أو نُقل إلى المستشفى، أو إلى سجن آخر، وربما تم حرمانه من الفسحة كعقاب، وربما أصبح عاجزاً عن الحركة، لم يشأ أن يسأل أو يتقصّى، حتى لا يثير الريب والشكوك.

اقترب منه سجين لم يره من قبل، وقد اتصفت ملامح وجهه باليقظة والحيوية والذكاء، بدا أنه يريد أن يتعرف على طارق، قال له إن معظم السجناء يعرفونه، ويقولون إنه شخصية مهمة ومعروفة، قاده سوء الحظ أو الوشاية أو التهور إلى غياهب السجن، لم يشأ "طارق" أن يبادله الحديث قبل أن يتعرف على هويته، دعاه السجين إلى جلسة هادئة في ركن الفناء، وهو يقول له بإغراء: "دعنا نتسامر قليلاً.. لم نعد نملك سوى الثرثرة وتشغيل اللسان". لم يجد طارق ضرراً من المُسامرة واستهلاك وقت ممل ورتيب، إنتحيا مكاناً قصياً، حيث بدأ السجين في التحدث.

– اعرفك بنفسي.. شعبان عليش.. صبي تاجر مخدرات.. أقضي عقوبة جريمة لم أُضبط متلبساً بها.. اعترفت بجريمتي المُلفقة عن طيب خاطر.. قبلت تنفيذ العقوبة، بدلاً من التاجر الكبير الذي أعمل معه ويأجرني.. سبع سنوات بسجن لا أكثر ولا أقل.. مدة معقولة.

سأله طارق بدهشة:

– لماذا اعترفت بجريمة لم ترتكبها؟.. هل من باب الشهامة والولاء لمعلمك؟

– لا توجد شهامة في دنيا تجارة المخدارت.. حصلت على العائد المجزي.. سبعة ملايين جنيهاً، مقابل سبع سنوات في السجن، دفعها "معلمى" الكريم السخي.. أليس هذا عائداً مجزياً؟.. من أين لي بهذا المبلغ، الذي يحتاج إلى عشرين سنة من العمل المحفوف بالمخاطر؟.. حصلت على عمولتي مقدماً.

عاد طارق يسأله بفضول زائد:

– كيف نجح "معلمك في عقد هذه الصفقة مع الطرف الثالث؟

– يبدو أنك طيب القلب.. تستحق ما جرى لك.. دنيا السياسة لا تختلف كثيراً عن دنيا المخدرات.. هناك دائماً الصفقات والاتفاقات الخفية والمعلنة.. والعقد شريعة المتعاقدين، وبين الشاري والبائع يفتح الله.. "معلمى" يفهم في السياسة أكثر مما تفهم أنت.. اشتري

حريته بالثمن المطلوب.. وهو يواصل تحقيق أرباح لا يحققها مصنع حديد وصلب.. تجارتنا مفيدة لكل الأطراف.. المدمن يحتاج المخدر.. وهناك من يريد مضاعفة عدد التائهين المخدرين المغيبين.. هناك الوسيط الذي يطلب ثمن سكوته.. وهناك من يقدر على الدفع ويشتري السكوت.. أنا أمتهن سياسة المخدرات.. وأنت تمتهن مخدرات السياسة.. كلانا في الهم شرق.. لا أظن أن التوبة تنفعنا.. قطعنا طريق اللاعودة.

سأله طارق وهو يتحكم في اعجابه بعقليته:

- من أين أتيت بكل هذه الفصاحة؟

- "محسوبك" خريج كلية التجارة.. البطالة حرمتني من الحصول على عمل مُجز وشريف رغم أنني من أوائل دفعتي في التخرج.. تلقفني "معلمى" تاجر المخدرات الموهوب، قدر فطنتي وذكائي فحقق لي أحلامي بيسر وسهولة.. لم أفقد قدرتي على فهم ما يدور في مطبخ السياسة، ومضاربات المنافسة الفردية الاقتصادية المتوحشة.

سأله طارق بمزيج من الذهول والفضول الجامح:

- ألا تتعرض للتعذيب؟

– لا أعرف شيئاً اسمه التعذيب.. أشتري ضمير مُعذبي.. أختار سجني وسجاني.. أختار طعامي وشرابي.. كل شيء له ثمن مدفوع.. يمكنني أن أقدم لك كل ما تريد من باب الواجب والأصول والزمالة.. واضح أنك فقير معوز تحتاج إلى مساعدة، تستحقها من باب الشهامة.. وهذا استثناء.

قال طارق بإحباط:

– واضح أنهم يعاملونك بأفضل مما يعاملونني!

– هذا طبيعي.. مهنتي تجعلني أعمل في خدمة الحزب بشكل غير مباشر.. ثم إن معاملة المجرم العادي تختلف عن معاملة المجرم السياسي.. كالفرق تماماً بين معاملة العامة خارج السجن ومعاملة أعضاء الحزب.. أنا أعامل بمستوى"خمس نجوم" وأنت تعامل بمستوى ناقص خمس نجوم.

شعر طارق أنه أمام شخصية مليئة بالمتناقضات، سأله بوازع إنساني عام:

– ألا يوجد ما يكدر صفوك، وينغّص عليك عيشتك البائسة هذه؟

فكر السجين قليلاً، بدا أنه ارتاح للسؤال بشكل غامض، غشته حالة من الإحباط والاكتئاب، لم يستطع طارق أن يميز مدى صدقها، هل هو إحباط حقيقي أو مصطنع؟ .. قال السجين بصوت مختنق:

– دعنا نتحدث في ذلك في الفسحة القادمة.

وجد طارق نفسه وحيداً داخل زنزانته وسط ظلمة حالكة وروائح كريهة تنبعث من الأرض الرطبة الملوثة، لم يمض وقت طويل حتى دهمته نوبة الاضطرابات العقلية، التي أصبحت تنتابه من وقت لآخر، وتثير تداعيات متخبطة من الوساوس والهلاوس والتهيؤات التي لا يربطها رابط، بل تقوده إلى حالة هياج عصبي، تدفعه إلى الصراخ والعويل ونداءات استغاثة لم يكن يعرف ما إذا كانت هذه الحالة هي شوط من أشواط مسلسل التعذيب، أم أنها أحد توابعه؟.

تفككت ضوابط عقله، تدفقت التداعيات كشلال جارف وهو يرغي ويزيد ويلّوح بذراعيه: "السياسة في المخدرات، والمخدرات في السياسة.. عبقري هذا الـ"شعبان عليش".. العربة أمام الحمار.. أم الحمار أمام العربة.. شعبان صبي شاطر.. يفهم أصول اللعبة.. أنا صبي خائب.. خرجت على قواعد اللعبة.. تحديت ألوهية الأخ.. الملهم.. الطشت قال لي قومي استحمي.. الطبلية فوقها ناموسية.. الدبانة في درب التلبانة.. لا..لا .. لست خائناً.. أنا صاحب قضية.. عندي وجهة نظر.. شاطر يا فالح.. يا ولد يا عنتيل.. جاتك خيبة.. خيبة لما تخيبك.. أمال فين التفاحة.. فين المهلبية.. شعبان صبي جدع.. حط الحمار قدام العربية.. أنا حطيت العربية قدام الحمار.. شعبان حسب حسبته صح.. أنا حسبتها غلط.. شعبان يقدر يعمل أي حاجة وهو في السجن.. طب يقدر يرجع لي حريتي؟

.. حاسأله المرة الجاية.. بس أنا ماعنديش الثمن اللي أدفعه.. طب يقدر يخدمني جدعنة؟ .. هو قال لي إن مفيش شهامة في السياسة والمخدرات.. مش يمكن عايز يشغلني في تجارة المخدرات؟ .. طب الأخ الملهم يوافق؟.. يرضى يفرج عني إذا اشتغلت في المخدرات؟.. حلوة اللعبة دي.. حاوريني يا طيطة.. بس شعبان قال لي إنه يقدر يبقى شهم معايا.. طب يقدر يعمل لي إيه؟.. والنبي يا حنطور حنطرني.. باحبك يا ابن الكلب.. إن شاء الله ما أعدمك".

لم يكن بمقدور طارق أن يعرف: كم الساعة! ،عندما انفتح باب الزنزانة، لم يكن بيده ساعة، الظلمة تساوي بين الليل والنهار، استدفأ بضوء الممر الخافت، عندما قاده الحارس إلى جهة غير معلومة، مع ثلاثة سجناء آخرين من الزنازين المجاورة، رجح أنه مقبل على شوط جديد من التعذيب، كان قائد الحرس يتقدم هذا الموكب البائس الصغير.

أراد طارق أن يبدد قلقه، فسأل الحارس:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- إلى زنازين جديدة.

- خير اللهم اجعله خير.

– مات أربعة مساجين قبل أذان الفجر.. تقرر نقلكم إلى زنازينهم.. يتم تجميع الساجين في عنبر واحد بعد زيادة عدد الموتى منهم.. حظكم سعيد.. الزنازين هناك أحسن حالاً.

– ألاحظ أنك ودود معي، على غير العادة.

قال له الحارس بتلميح لم يستوعبه طارق:

– ربما أكون أكثر وداً في مقبل الأيام.

دخل طارق زنزانته الجديدة، نفس الاتساع، تربو على مترين مربعين، بها مصطبة تكفي بالكاد لرقدة جسد بشري، بها فتحة صغيرة جداً ينفذ منها ضوء الشمس، إضاءة خافتة خالية من الدفئ، الأرض جافة ونظيفة ولا يمنع ذلك من وجود بعض الصراصير والحشرات الصغيرة، يوجد جردل للتبول والتبرز، مع وعد بتغييره كل ٢٤ ساعة، الهواء قليل الأوكسجين ولا يخلو من رائحة كريهة، بدت الزنزانة مع ذلك مريحة عن سابقتها بدرجة ما.

بدأ يتعرف على الصباح عندما تظهر بقعة ضوء الشمس الصغيرة من الفتحة، استيقظ وهو يشعر بسعادة غامرة، وهو يقرب خده بصعوبة من بقعة الضوء، أراد أن يؤكد لنفسه أنه مازال حياً، فتحسس شعر ذقنه الكثيف، وأخذ يتلمس أظافر أصابع كفيه وقدميه ويقسم أنا ليست لكائن بشري، تمنى أن يفوز بحمام، مخافة الأمراض الجلدية.

انفتح باب الزنزانة في الصباح، دخل الحارس ومعه طبق الفول المليء بالحشرات، وقطعة الحلوى المخززة والرغيف المُتعفن ومعه أيضاً كيس بلاستيك به أشياء وضعه بجوار طارق فوق المصطبة، فتحته طارق بسرعة، تبين أن به تفاحة وحبة كمثرى وثمرة مانجو، نظر إلى الحارس بعجب وذهول:

لم يقوا لسانه على النطق، سأله بنظرة مستطلعة، قال له الحارس قبل أن يغلق عليه الباب:

– شعبان عليش يسلم عليك.. لا تنسى أن تضع الفضلات في جردل البراز.

سارع بسؤال الحارس:

– كان لي – هنا – صديق سجين، اسمه خليل فرج.. اختفى في ظروف غامضة.. هل تعرف شيئاً عنه؟

– أنت طماع.. أصبحت تطلب ما ليس من حقك.. سأجيبك على سؤالك في الغد.

انغلق الباب.. شعر طارق ببادرة ضوء في نفق مظلم، بادرة أمل ضئيل تخفف عنه بعض آلامه وعذاباته، ومع ذلك أصبح شعبان – بالنسبة له – يمثل لغزاً غامضاً، أو صدفة مدهشة.

حل موعد الفسحة التالية، بدا السجناء وكأنهم خرجوا من قبور معتمة إلى دنيا الحياة الرحبة الفسيحة.. أخذ طارق يتخلل الفجوات الضيقة بين كتل السجناء، بحثاً عن "شعبان عليش". عثر عليه دون مشقة تذّكر، بدا سعيداً برؤيته، يوشك أن يعانقه، في حين بدا شعبان هادئاً مسترخياً قليل الانفعال، حين أشار بيده إلى الركن البعيد الهادئ، جلسا هناك في الركن، حيث واصل شعبان صمته وهو يرقب البشاشة البادية على وجه طارق، الذي قال بامتنان:

- أشكرك على هديتك الثمينة كأنني لم أذق الفاكهة دهراً بأكمله.. هجرت الإفطار الفاسد بإباء وشمم.

- هذه بداية .. أرجو ألا ينجح الوشاه بيننا في حرمانك من هذا الرزق المحرم.

- بدا الحارس يعاملني معاملة طيبة.

- هو – أولاً – موظف يقوم بعمل مهني بحت ويلتزم بدواعي المهنة والوظيفة.

- وثانياً؟!

- هو إنسان يملك مشاعر إنسانية يصعب اجتثاثها من جذورها.. ثم إنه يتلقى الشكر والواجب.

عاد شعبان يقول له بمودة تخلو من شبهة تأنيب:

– ألم تكن أنت كذلك؟.. موظف مرموق في الحزب.. تقوم بما لا يرضى عنه ضميرك.. ومع ذلك تحتفظ بإنسانيتك.

عاد يقول لطارق، وهو يتحسس أطراف شعر رأسه وذقنه:

– من الممكن جز شعر رأسك وذقنك.. لولا أن ذلك يفضح أمر تعاوننا.. سأوصي بقص أظافرك.

– واضح أنك مازلت تحتفظ بقواك العقلية.. بتصالحك مع نفسك ومع سجانك.

– سجن أمثالى أرحم من سجنك.. نقضي سجننا على شكل مجموعات في عنابر نسبياً، أو في سجون ذات قضبان حديدية، يدخلها الهواء والضوء بدرجة ما.

قال طارق بلهجة استيضاح واستطلاع:

– أتصور أنني يجب أن أدفع شيئاً مقابل خدماتك.

– ليس عندك ما تدفعها.. لا تريد أن تصدق أنني مازلت أحتفظ بإنسانيتيا.. موظف قطاع خاص التزم بدواعي مهنتيا، وأعطف على المطحونين أمثالك.

ظننت أنك تريد أن توظفني "صبي تاجر المخدرات"، إذا حدث الإفراج عني بمعجزة.

– أنت لا تصلح لهذه المهنة.. عندنا كثير من العاطلين ينتظرون دورهم في كشوف انتظار.

شرد طارق قليلاً، بدا أنه تذّكر شيئاً قال لشعبان بمودة صديق لصديق:

– سألتك في المرة السابقة عما يمكن أن يعكر صفوك أو ينغّص عليك مزاجك.

تنهد شعبان بحرقة وألم، صمت قليلاً ثم قال:

– زوجتي.. زوجتي هي الإنسانة الوحيدة التي أحتفظ لها بكل مشاعري.. لم أرها منذ دخلت السجن.. الزيارات ممنوعة حتى الآن.

– الزيارات مستحيلة لمثل حالتي.

– أنا أنتمى لفصيلة السجناء المدللين.. ومع ذلك أتحرق شوقاً لرؤية زوجتي.. حاولت أن أفوز بزيارة منها، لم أنجح في ذلك.. أقصى ما نجحت فيه هو أنني أرسل إليها رسائل خاصة من وقت لآخر.

سأله طارق بدهشة وذهول:

– وكيف ضمنت أن رسائلك تصل إليها؟

– يأتيني ردها مع حامل رسائلي.. تأتيني أيضاً صور أولادي.

علّق طارق بابنهار واستيشار:

- هذا إنجاز رائع.. معجزة بكل المقاييس.

- واضح أنك تريد أن تبعث برسالة إلى زوجتك.

- ليست زوجة الآن.. لي حبيبة عمر.. هي من تبقت لي في رحلة الحياة.

قال له شعبان بثقة وطُمأنينة:

- يمكن أن تصلها رسائلك بانتظام.. وتحصل أيضاً على ردها.

قال طارق بإحباط وبأس، لا يخلو من بصيص نور:

- للأسف..هي سجينة مثلي تعاني نفس التعذيب والعذاب في سجن النساء.

- وما المشكلة؟

- هل هذا ممكن؟

- هذا أسهل.. سهلت مهمتي دون أن تدري.

قال طارق بشوق ولهفة:

- وكيف يتم ذلك؟

فكر شعبان قليلاً ثم قال:

- سيدخل لك الحارس باكو "بسكويت" وقلم صغير.. عليك أن تأكل "البسكويت"، ثم تفرد الغلاف الفارغ على صفحته البيضاء، وتكتب عليه الرسالة وتعطيها للحارس.. لا تحمل هم الباقي..

سأتكفل أنا بتوصيل الرسالة.. لا تنس أن تكتب اسم حبيبتك الغندورة.

– لا أصدق ما أسمع.. أنت هكذا تعيد إلى الحياة.. تعيد خلق معنى لحياتي.

– لا تضيع الوقت في كلام إنشائي.

فوجئ "طارق بانفتاح باب الزنزانة في جوف الليل، قدم له الحارس باكو "بسكويت" وقلماً صغيراً، قال له قبل أن يغلق الباب:

– سألتني عن صديقك "خليل فرج".

سأله طارق بلهفة وقلق:

– ما أخباره؟

– فارق الحياة منذ أيام.. لم يتحمل التعذيب.. تم دفنه في حفرة دفن الموتى.. أنت الآن تقيم في الزنزانة التي كان يقيم فيها، بعد أن تم نقلك إليها بعد وفاته.. زنزانة مريحة.. أليس كذلك؟

قال طارق في نفسه وهويسمع صوت انغلاق الباب:

– عجبي.. مصائب قوم عند قوم فوائد.

اقترب طارق من فتحة الضوء الخافت الآتي من سقف الزنزانة، وضع الصفحة البيضاء للغلاف تحت بقعة الضوء، أخذ يستجمع مشاعره، ثم بدأ يكتب:

"حبيبتي رندة.. أشتاق إليك كعطشان يبحث عن بقعة ماء.. أتمنى أن أراك ولو في لحظة خاطفة.. أن أسمع تردد أنفاسك مازلت على قيد الحياة.. أتمنى أن تكوني أيضاً على قيد الحياة.. مازلت أعيش على ذكرى حبنا الصافي في زمن القحط.. أتصور أنهم عذبوك بنفس قدر ما نلت من تعذيب.. عذبوني بالصلب والشد والكهرباء والإغراق بالمياه.. ومع ذلك مازال قلبي صامداً.. ربما نجحوا في غسيل جزء كبير من مخي حتى الآن.. ولكنهم لم ينجحوا في غسل قلبي.. لم يبق لي أمل في النجاة سوى الاحتفاظ بحُبك لي.. أتمنى أن تصلني منك – مع حامل هذه الرسالة – بضع كلمات، تطمئني على حياتك، وعلى دوام حبنا.. سأظل أحبك لآخر يوم في حياتي.. من حبيبك طارق زيدان إلى "رنده زاهر".

قدم طارق الرسالة إلى الحارس في الصباح، وهو يضع أمامه طعام الإفطار، كانت يد طارق ترتعش عندما تسلم الحارس الرسالة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، لم يصدق طارق هذا الذي حدث، تعالت هواجسه وشكوكه، لماذا لا يكون "شعبان عليش" مثل "زايد قطب"، يشي به مثل ما وشى به "زايد"، لم يكترث بشكوكه عندما استوعب غياب الأمل في أي نجاة، وقال في نفسه: "لا مانع من أمل مستحيل، يكون بديلاً ليأس مطلق".

لم يستطع طارق أن يعرف "كم الساعة" عندما استيقظ من نومه على صوت سجين يصرخ ويسب ويلعن. وصله الصوت من خلال الثقوب الصغيرة المنتشرة فى باب الزنزانة لتمرير هواء قليل وتبادل بعض الكلمات بين السجناء والحراس، خمن من صدى الصوت أن السجين الهائج غالباً هو في الزنزانة المجاورة أو المقابلة. لم يستمع إلى حارس، يزجره، أو ينهره ويهدده، أو يسمع إلى شكواه، فأيقن أن الحراس الآن مجتمعون في غرفة إقامتهم –في وسط الممر– يتسامرون وهم يشربون الشاي، ولا يعبأون بشكوى أو صراخ، وربما تعودوا على هذا الضجيج المزعج الذي لا يقدم ولا يؤخر، ويتكرر من آن لآخر أثناء لعب "الطاولة" أو "الدومينو".

بدا السجين متمادياً في هياجه، وليست عنده نية للتراجع، أخذ يوجه سبابه بضمير المخاطب الجمعي، وهو يعي كنه الجماعة التي يوجه إليها لعناته، وهو يوجه صراخه إلى الفضاء بعد أن يئس من الوقوف أمام قاضية الطبيعي (المحكمة)، هكذا توالت موجات السباب والتفريغ.

"يا ظلمة.. يا كفرة.. لابد أن يكون هناك من يوقفكم عند حدكم.. الاستبداد له نهاية.. سمحتم بالتعددية الحزبية التي تجيز تداول السلطة.. صدقتكم مع غيري من الشرفاء.. قمت بتشكيل

حزب حقيقي توليت زعامته.. تقدمت ببرنامج يلبي حاجات الناس.. اعتبرتم أنني خرجت على النص.. النص الذي يتيح بقاءكم في السلطة إلى الآن.. لفقتم لي تهمة كاذبة بشهود زور.. تهمة تزوير في أوراق رسمية.. كنت ساذجاً عندما انتظرت مثولي أمام محكمة.. لم تكن هناك محكمة ولا قضاء عادل.. تم توقيفي وجسني وتعذيني.. هكذا فقدت حقي في شرعية تداول السلطة.. أخرجتموني من الملعب بعد أن فزت بثقة الملايين.. أين هذه التعددية يا محتالين؟.. نصوص على ورق وسلخانة في الواقع.. ما ذنب كل هؤلاء السجناء السياسيين اللذين يتعذبون معي داخل زنازينهم؟.. هل تسمعونني أيها السجناء؟.. أريد أن أوصل صوتي إليكم.. لابد أن نفعل شيئاً لإيقاف هذه المهزلة.. هناك منكم من هم أعضاء حزبي الذي تم تفكيكه وتمزيقه.. تعددية حزبية يا عصابة!.. تنتقمون من أخلص خلصائكم إذا اختلفوا معكم.. مأساة "طارق زيدان" شاهدة على نذالتكم.. ليس لكم خل ولا صديق.. أيها السجناء.. لماذا تصمتون؟.. أريد أن أسمع صوتكم.. كلموني.. حاوروني.. مما تخافون؟.. لم يعد الخوف نفعاً.. جربوا فينا كل تكنولوجيا التعذيب.. لم يعد عندهم ما هو أشد عذاباً وتنكيلا.. اكتسبنا مناعة إلاهية ضد آلام التعذيب.. دعونا نقوم بثورة داخل السجن.. لن يفعلوا بنا أكثر مما فعلوا.. هم لا يريدون لنا الموت.. يريدون محو

عقولنا.. يدفعوننا للجنون.. تحديناهم فجن جنونهم.. فضحناهم ومع ذلك لا يخجلون.. أنت يا من تقيم في الزنزانة المجاورة لزنزانتي.. من أنت؟.. لماذا لا ترد علي؟.. لماذا لا تتكلم؟.. كن شجاعاً وتكلم.. تحداهم وأعلن غضبك وتمردك.. ماذا بقي منك حتى تخاف!".

صمت السجين، تأثر طارق بما سمع.. منشور ثوري من سجين أعزل، لا يسمعه سوى بعض سجناء عزّل، لم يعودوا يمكلون من أمر أنفسهم شيئاً، شعر برغبة لا تقاوم في مواساة السجين ببعض عبارات تخفف عنه آلامه.. تذكر أنه كان شريكاً آثماً، تسبب في كل ما جرى لأحرار كثيرين، دفعوا ثمن حريتهم، قال في نفسه بسخرية لاذعة:"لا يفصل الآن بين المجرم التائب والضحية سوى جدار يفصل بين زنزانتين".

قرر أن يتكلم على سبيل جبر الخاطر، ودون أن يضحي بهامش مكاسبه القليلة الخفية.

– أنت أيها السجين الذي كنت تتكلم.. أنا جارك في الزنزانة المجاورة.. سمعت كل ما قلت عبر الثقوب الصغيرة في البابين.. خفف عن نفسك.. لا داعي لهذا الغضب الذي لا يرجى منه فائدة، بل يجلب التشفي والعقاب.. لا يسمعك سوى بعض من يعانون نفس محنتك.. لا يردد صدى صوتك سوى جدران خرساء صماء،

تشي بك لجلاديك.. دعنا نتذكر بقايا ماض جميل على سبيل السلوى والعزاء.

قال السجين بلهجة تشي بالرضا والإرتياح:

– أنا سعيد بأنك سمعتني ورددت على.. سعيد بمواساتك ورغبتك في التخفف عني.. لكنني لست سعيداً بيأسك وإحباطك.. تشجع يا رجل.. لا يأس مع الحياة.. أنا أدعوك إلى الانضمام إلى حزبي – حزب الفجر – بعد أن نستعيد حريتنا، ونزيح حزب الأخ المنهك الذي يسمونه الأخ الملهم.

عاد السجين يقول:

– والآن.. قل لي من أنت؟ .. حدثني عن مأساتك.

لم يشأ طارق أن يكشف عن هويته، حتى لا تتأجج مشاعر السجين، وتتقد الأمور بما لا تحسب عقباه من غضب وتوتر وهياج، فتفقد الصحبة الوليدة من خلال الثقوب الصغيرة.

– أنا سجين سياسي مثلك.. دفعت ثمن غضب مكتوم، شاءت له الظروف أن يفتضح أمره.

– حدثني عن نفسك أكثر.. سياسي متهور!.. صحفي مندفع!.. معارض من أنصار "همام خاطر"! (بُعبُع النظام).. قاض يطالب باستقلام القضاء! .. مهووس يطالب بإلغاء حكم العائلة والسلطة!

– دعك من التفاصيل.. أمثالنا عاجزون من مواصلة الاحتفاظ بقواهم العقلية..عامة الناس هم وحدهم القادرون على تحقيق الخلاص.. حياتنا أصبحت بلا معنى، ومع ذلك يلزم أن تعاش.. أليست تلك هي فلسفة اللا معقول؟

– أمراضي كثيرة.. أحتاج إلى العلاج المناسب والدواء الشافي.. مستشفى السجن حظيرة مواشي.

– دعنا إذن نفكر في إمكان بقائك على قيد الحياة.. بلا إفراج ودون التفكير في الانتحار.

مر أكثر من أسبوع قبل أن يفتح الحارس باب الزنزانة، في وقت متأخر من الليل، ليسلم طارق رسالة وشمعة وولاعة صغيرة.

إرتعدت كفاه وهو يتحسس الرسالة، أضاء الشمعة، نظر بسرعة إلى آخر سطر في الرسالة اسم "رنده زاهر" شهق بذهول، قال بصوت هامس: "حلم أم علم؟.. حقيقة أم خيال؟".. وأخذ يقرأ سطور الرسالة.

"حبيبي طارق.. استعدت الأمل عندما وصلتني رسالتك.. صدقت أنك مازلت حياً.. أتخيل كم قاسيت من هوان وتعذيب.. تعذبت مثلك بنفس أشكال وأدوات التعذيب.. أحببتك ومازلت أحبك وسأظل أحبك إلى آخر قطرة من دمي وآخر شهقة في حياتي.. سيظل حبي هو الأمل الوحيد المتبقي الذي أعيش عليه..

نجحوا في تدمير الكثير من خلايا عقلي.. لم ينجحوا في زرع كراهيتي لك والتبرؤ من حبك.. ربما نجحوا في غسل عقلي بالتعذيب.. ولكنهم فشلوا في غسل قلبي من حبك.. مازلت أخونهم بإرتكاب جريمة عشق الحياة والحب.. جريمة لا أنكرها ولا أخفيها، ولو تحت وطأة الصعق المجنون بالكهرباء.. دعنا نواصل الصمود حتى نموت عشّاقاً وأحباباً..أعيش على ذكرى أيامنا الحلوة الجميلة.. دعنا نعيش الآن بسحر كلمات، نتبادلها على قصاصات ورق، كأنها قربان مُقدس على مذبح إلهة الحب.. حبيبتك "رنده زاهر".

انتهى طارق من قراءة الرسالة.. شعر بأنه يملك الدنيا.. ما عليها ومن عليها، بدا أنه قد اكتسب مناعة أسطورية لمقاومة كل أشكال التعذيب، شعر بأنه مدين لـ"شعبان والحارس" بكل الجميل والعرفان.. رمق الحارس بنظرة حب وامتنان، وهو يقدم له طعام الإفطار الفاسد، مضافاً إليه بيضة مسلوقة وقطعة جبن طازجة ورغيف "فينو" قال للحارس بعرفان:

– لا أعرف كيف أرد لك الجميل.. سأحاول إذا كتب لي البقاء ونلت حريتي.

– كفاك ما عانيته وتعانيه.. لا أعرف كيف تتحمل كل هذا العذاب.

– ألا يوجد من يدفع حياته ثمناً للدفاع عن شرفه؟

- عن أي شرف تتكلم؟.. امش جنب الحائط يحتار عدوك فيك.. يظهر أنك متعلم.. هذا كلام متعلمين.
- ماذا لو اكتشفوا أمرك، وقرروا عقابك؟
- تكون أنت الخاسر.
- ألم تشعر بالندم؟
- أنا مؤمن بالله.. أفعل ما يرضي الله ويرضي ضميري.. الإيمان يجعلك راضياً عما يرضي الله.

لم يكن النوم قد داهم عيني طارق المؤرقتين منذ ساعات طويلة، عندما سمع صوت دقات متوالية على باب زنزانة مصحوبة بصياح هائج، أخذ يدقق السمع، فرجّح أن السجين الهائج يقطن في الزنزانة المقابلة له على الصف الآخر من الممر، رجح أيضاً أن الحراس ينعمون بصحبة هادئة في غرفة إقامتهم، وقد تعودوا على صراخ وصياح بعض السجناء، باعتبارهم كلابا تعوي في فراغ، ولا تمثل خطراً حقيقياً ولا تستحق الزعر أو الترهيب أو انشغال البال.

هكذا واصل السجين إفراغ شحنة غضبه المكبوت بلا توقف، ليحظى بسكينة مستحيلة، ويبدد طاقة محبوسة، لا تتبدد إلا بدق الباب والصياح واطلاق موجات السباب وصب اللعنات، أخذ طارق يسمع ما يقول على سبيل التسلي وتزجية وقت فارغ ليس له نهاية، ولا معنى.

"حرية تعبير يا ظلمة!.. أين هي حرية التعبير؟.. تسمحون بحرية الصراخ وتفعلون أنت ما تريدون!.. ها أنا أصرخ ولا تحاسبونني على صراخي.. ما الفرق بين هذا السجن وسجنكم الكبير في طول البلاد وعرضها؟.. هل الصحافة حقاً هي السلطة الرابعة؟.. هذه نكتة تستحق الضحك حتى تدمع العيون .. أصبحت أخجل من مهنتي كصحفي.. لم أعد أصدق أنني صاحب سلطة.. كتبت عن الانتهازية والفساد واستغلال النفوذ فأخرجتم لي لسانكم.. تكافئون المنحرفين كلما كشفنا فضائحهم.. هذه مهزلة السلطة الرابعة.. مثلها مثل مهزلة السلطة الأولى والثانية والثالثة.. ومع ذلك لم يخطر على خاطركم أن تواصلوا منحي حرية الصراخ والصياح، عندما رجوت "الأخ الملهم" في مقالى المنكود ، وبأدب جم، أن يسمح للجيل الجديد أن يشارك في صنع القرار.. هل هذه جريمة؟.. هل هذه خطيئة؟.. هل يجب أن يظل صاحب القرار فوق كرسيه حتى يلفظ النفس الأخير؟.. وجهت إلي تهمة التعريض بالذات العليا، وكأنها الذات الإلهية.. طلبت أن نحتكم إلى انتخابات نزيهة.. وجهت إلي تهمة ترويع المواطنين الآمنين.. وتتحدثون عن حرية صحافة!.. حرية النباح لافتعال شرعية ملفقة، ترضي الأسياد، وتطيل زمن البقاء.. هناك من ينبحون لصالحكم ويفوزون بالامتيازات.. لن أكون واحداً منهم.. كنت واهماً عندما

قررت أن أصبح شهيداً.. تم حرماني من حق الإستشهاد.. لا أحد يسمع بي الآن.. ليس هناك من يحميني.. كلب أنهكه التعذيب، ينتظر نهايته في ظلام دامس.. هل هناك من يسمعني؟.. لماذا الصمت؟.. سوف نموت جميعاً ميتة القطط الضالة، وسوف ندفن في مقبرة جماعية مجهولة، لا يدري بنا أحد، ولن يسمع عنّا أحد.. أي جحيم هذا؟ .. الجحيم في الأرض وليس في السماء مازل أثق في العدل الإلهي.. أنتظر بشائره قبل أن أموت".

أثارت شحنة غضب السجين مكنون ضمير طارق، ضميره الأعزل المشلول، شعر بأنه بطل مسرحية مأساوية من مسرحيات "شكسبير"، لم يطف بخياله لحظة أن يكون شاهد عيان وعضواً فعالاً في الشريحتين اللاتين تمثلان ذلك الصراع غير المُتكافئ في نسيج المجتمع، كان الذراع الطويلة لهيمنة السلطة المطلقة، وهو الآن ضحية ضحايا السلطة، ينتمي إلى كتيبة المتمردين القابعين في غياهب السجون، وقد اختاروا تعذيب الذات على الاستكانة والخنوع، قال في نفسه بحيرة وشك:"ترى لو عاد الزمن بأمثالنا إلى الوراء.. هل كنا سنقوم بهذه المغامرة المجنونة؟!.. ما الدافع الإنساني الذي يدفع الغاضب إلى خوض معركة خاسرة مع غريم مستبد غاشم، لا قبل له بأسلحته الفتاكة؟.. هل لأننا نحمل "فيروس" الحرية ورفض القهر ونحن في رحم أمهاتنا؟.. أم أننا نعاني

شكلا من أشكال الجنون والحُمق، لا نقوى على التخلص منه؟ عاد طارق يقول وهو مُستغرق في ضحكة ساخرة:" يبدو أنني تحولت من ناشط سياسي إلى كاتب مسرحي.. لو قدّرت لي النجاة فسوف أستهلك بقية عمري في كتابة هذه المسرحية التراجيدية التي لا تخلو من جانب كوميدي.. الجلاد يصبح الضحية.. السّجان يتحول إلى سجين.. أي معنى تشير إليه هذه الحياة الإنسانية غير المعقولة؟.. أي معنى قدمه لنا الفلاسفة عبر العصور؟.. تفسيرات عرجاء وحلول خيالية مبتورة.. الأنبياء قدموا لنا السلوى والعزاء حتى يفرقوا بيننا وبين الوحوش، ويمنحوننا حلماً بحياة أخرى، تعوضنا عن هول عذاب الحياة الدنيا.

واصل السجين هياجه، وصب عدوانه الشفاهي على عدو لا يسمعه ولا يكترث به عدو يعيش داخل أماكن مكيفة، ويركب سيارات فارهة مصفحة، ويقتني القصور والفيلات والشاليهات. رغب طارق أن يخفف عنه ويهدئ من ثورته اللا مجدية، ربما أراد بطريقة غير مباشرة أن يعيش مشهداً مسرحياً من مسرحية تعبيرية، استحضرت في وجدانه خيالاً فنياً، هو بديل هزيمة ساحقة في الواقع نادى على السجين الذي استراح لسماع صوت بشري عبر ثقوب الأبواب، قال له بعطف وإشفاق:

– ألم تكن في غنى عن كل ذلك الذي جرى لك؟

تضاعف غضب السجين.. قال لطارق بازدراء:

- يبدو أنك متمرد جبان رعديد.. ما الفرق بين سجن كبير وآخر صغير؟.. قدرنا أننا نولد أحراراً قبل قطع الحبل السُري.. نصرخ صرخة الحرية عندما نستنشق هواءها خارج الرحم.

- يبدو أنك سجين مستجد.. حديث العهد لم تفقد عقلك بعد.. مازلت تحتفظ بعنادك.

- لم يوجد بعد من يفرض على الاستسلام.. لن يجدي معي التعذيب.

- هل جربوا معك صواعق الكهرباء والإغراق بالماء وتمزيق المفاصل؟

- لا تحاول إرهابي يا جبان.. يبدو أنك عميل للسلطة.

- كنت عميلاً ثم تمردت.. وقد نجحوا في سحق إرادتي.. نجحوا بدرجة إمتياز مع مرتبة الشرف.

صمت السجين قليلاً وعاد يقول بتردد:

- ماذا كنت تطلب مني لو كنت مكاني؟.. هل أساوم على حرية، قيل لي إنني صاحب حق فيها؟

- يبدو أنك مازلت صغير السن.. لا تفرق بين مرسوم قانوني وتطبيق القانون.

– ٢٥ عاماً تكفي للغضب والاحتجاج.. الضحايا هم وقود الغضب والتغيير.

– لا أملك إلا أن أحييك، وأشهد لك بالشجاعة والاستبسال.

– ألا يكفي التمرد الرافض لتحقيق الحلم بالتغيير؟

– هذه هي سقطتك القاتلة.. أعداؤك يمارسون فن تدمير العقول بأسلحة حديثة، وبمهارة منقطعة النظير.. بإعلام كاذب.. بأنصاف حقائق.. بتزوير التاريخ.. بغسيل العقول والقلوب.. غضبك وحده لا يكفي.. المقاومة تحتاج إلى ابتكار أسلحة مقاومة جديدة تقاوم مفعول أسلحتهم.

صمت السجين قليلاً، وعاد يقول:

– هذا كلام يستحق التفكير فيه.. يبدو أنك متفهم لقواعد لعبتهم.

– شاركت في لعبتهم، وها أنا الآن أشارك ضحاياهم.

– ربما نلتقي بعد إفراج مشكوك فيه.

– ربما أيضاً نسمع عن متمردين فهموا قواعد اللعبة، قبل أن نفارق الحياة بمقصلة التعذيب.

كان طارق يعيش حالة من الرضا النادر الحدوث في مثل حالته، برغم التفكك المتسارع لصواميل عقله، كان قد حسم علاقته المرتبكة بين ولائه للسلطة والتزامه بتمييع الحقائق، ومشاعره

الرافضة والغاضبة، التي تحولت من مذكرات سرية إلى مشروع تغيير، لم يعد الذراع الشيطانية لنظام مجنون، ولم يعد قادراً – أيضاً – على إحداث تغيير مأمول، هكذا استراح وأراح، وفاز بشعور كاذب من راحة الضمير.

كان أيضاً يشعر بحالة من الرضا والسعادة، بفضل الرسائل المتبادلة بينه وبين "رندة"، التي حوّلت حياته من جحيم إلى نعيم، اطمأن إلى أنه مازال يملك قلباً، ينبض بالحب والمشاعر الدافئة، وأنه مازال يتمسك بقلبه، ولم يفقده تحت وطأة مختلف صنوف التعذيب، مازال يكره الأخ الملهم والحزب، ومازال يحب "رندة" مازال يشعر بأن قلب الإنسان هو أيضاً أكثر بسالة من جسمه المتهاوي الهزيل.

وبرغم اطمئنانه إلى دفء مشاعره وتواصل هدير قلبه، فقد انتابته لحظة شك أصابته بالقلق والانزعاج، كان قد اعترف بأشياء لم تحدث أثناء التحقيق معه، لإسترضاء المحقق الذي يمثل الحزب، وذلك تحت وطأة التعذيب الجسماني والإهانة ولكن عقله ظل ملكا له، يحتفظ بالحقائق، ويظهر مقاومة أكثر بكثير من مقاومة الجسم الإنساني الضعيف، ولكنهم كسبوا هذه الجولة، بعد أن تهاوى عقله، وأصبح يعترف حقاً وصدقاً بأن ٢+٢ يمكن أن تساوي خمسة أوعشرة.

هو الآن يتساءل في شك وريبة: ماذا لو نجحوا في استلاب قلبه، وتمكنوا من نزع ملكيته له، ولم يعد ينبض بمثل هذه المشاعر الفياضة؟.. ماذا لو إنفضح أمر الرسائل المتبادلة مع "رندة" فإنقطعت الرسائل وحل العقاب، وتكفّل التعذيب بإستصال فعل الحب؟.. ماذا لو؟ ماذا لو؟.. الراحة مستحيلة في ظل خطر يعشش داخل العقول والنفوس، واسى طارق نفسه بأن يقنع بهامش حرية مسروقة حتى تحين لحظة التلبس بجريمة حب.. هي جريمة الجرائم.

لم يتوقف يوما واحداً سباب وشتائم ولعنات سجناء الزنازين المجاورة لزنزانة طارق، كان يصعب تحديد مواقيت الغضب، النهار مثل الليل كلاهما مظلم، السجين في مكانه شبه منعزل عن الأحياء، تحيط به الجبال والوهاد والصحاري، والحراس لا يكترثون لصيحات الغضب وسيول الشتائم العاجزة عن كسر الأقفال أو تخفيف الأحكام أوشق أنفاق للهرب، صيحات يتردد صداها عندما تصطدم بالجدران وسرعان ما يمتصها الهواء الراكد الثقيل، ثم يعيدها إلى الصدور.

لم يكن الحراس في حاجة إلى إصدار تعليمات تهديد ووعيد وتحذير من عواقب الشغب، فهم مطمئنون لعدم وجود خطر حقيقي من استخدام أوتار الحناجر، وهم يتسامحون مع شحنات الغضب

المهووس بدافع إنساني طبيعي لا يتعارض مع مستلزمات الوظيفة وحسن الأداء، كان السجناء يواصلون إفراغ شحنات الغضب خلال ساعات الفسحة القليلة، ولكن دون ضجيج ودون صياح وتهور واندفاع، سوف يحرمهم بالتأكيد من نعمة رؤية الشمس واستنشاق الهواء النقي وتلاقي الوجوه البشرية، برغم ما يعتريها من حزن وكآبة، هي نعمة على أية حال لايجوز التفريط فيها، حتى لو كانت فسحة صغيرة من زمن ثقيل.

لم يكن طارق شديد الضيق بهذا المجتمع المغلق الصغير الذي أصبح بديلاً للمجتمع الواسع الكبير، شعر بأن صورة الواقع المعاش لم تكن لتكتمل إلا بهذا المشهد الكئيب، المشهد الذي يمثل مرآة فاضحة ناصعة السواد، هي الصورة الخلفية غير المرئية للسواد الأعظم من الناس التي تعكس الخلل الرهيب في البنية الفوقية المزيفة للمفاهيم والأفكار المبرمجة والإعلام الكاذب من خلال تمييع العقول وتكفير المشاعر والأحاسيس.

لم يشعر طارق – في لحظة وعي شاهقة – بالندم على ما آل إليه مصيره، بل إنه قال في نفسه في شبه يقين:" لو أن الزمن عاد إلى الوراء ما ترددت في الانقلاب على ما تورطت فيه من خلق أكاذيب محبوكة الصنع بذكاء خارق، لابتداع ذات أسطورية متضخمة

تحظى بإعجاب الشركاء وامتنان المنتفعين.. التعذيب يدمي الجسد ويستنطق ينبوع الحكمة والإدراك.. التعذيب في نظري الآن ليس عقابا على ذنب تلفق حيثياته جهة أمنية مشكوك في ذمتها، وإنما هو تكفير عن ذنب وجب التطهر منه ليتحقق السلام مع النفس.. تلك هي ضريبة حرية، لم تشأ الظروف أن تؤتي ثمارها.. الجلاد أكثر ذكاء من ضحاياه".

بدا طارق منتشيا بسباب وشتائم السجناء، بدت له كأناشيد وطنية متوهجة الألحان، يعيبها أنها تصرخ في خلال بعيدا عن أسماع من يعنيهم الأمر من الحالمين بقارب نجاة، سجناء يتمتعون بفضيلة الشرف والنزاهة.. لا يدفعون ضريبة ذنب ارتكبوه، وإنما يدفعون ضريبة غضب ورفض واحتجاج، ولا يستكفون أن يتحولوا إلى ركام من عظام نخرة داخل مقبرة مجهولة، ربما تتحول في مقبل الأيام إلى قبر "للمحتج المجهول" يضع المنتصرون فوقة – فيما بعد– باقة ورد، ويرفعون فوق سمائه علم النصر، ويرددون نشيد حرية مستعادة.

استطاع طارق بمرور الوقت الكسيح أن يتعرف على معظم سجناء العنبر الأشقياء الذين تجمعهم نوعية واحدة.. سجناء خطرون على الأمن القومي، صمموا على التمسك بعقولهم وقلوبهم، ولم تنجح مغسلة الحزب في ترويضهم وتحويلهم إلى كلاب صيد أوقطيع

أغنام أو أبواق دعاية، تعي الأكاذيب وترددها في الوقت نفسه وتفوز بالمقابل.

كان ضمن مسجوني العنبر، قاض أدان فاسدا كبيراً محسوبا على الحزب، ونقض أحكاماً بتعديلات دستورية وقانونية، تشي بهامش حرية وتبقي الوضع على ماهو عليه، كان هناك قاض آخر حكم بعدم دستورية مشاريع وقوانين تتنافي مع مصالح عامة الناس، وتصب في صالح بعض المنتفعين من رموز الحزب، كان هناك محامٍ أصر – بالمستندات الصحيحة– على براءة رجل أعمال شريف، لم يقدم فروض الولاء للحزب، واصبح منافساً خطيراً لغيره من الموالين، كان هناك صحفي مغمور، أغوته سلامة وخطورة المستندات التي حصل عليها فكشف تحقيقاته الصحفية عن مخالفات جسيمة تشكك في شرعية النظام، كان هناك رئيس جمعية حقوق الإنسان، كشف عن آلاف المسجونين التي لم تصدر ضدهم أحكام قضائية ولم يقفوا أمام قاضيهم الطبيعي، كان هناك صاحب البرنامج التليفزيوني الذي ألمح – دون تصريح مباشر – بأساليب التعذيب الحديثة المستوردة للحصول على اعترافات ملفقة من المتهمين، كان هناك الأستاذ الجامعي الذي كشف عن فساد التعليم وعدم جدواه لإحداث نهضة، وعن "مافيا" الدروس الخصوصية وعدم تكافؤ الفرص، ورفض التراجع عن تقريره المزعج الذي تداولته

النشرات والصحف العالمية وتقارير التنمية، كان هناك العديد من الكتّاب والمفكرين اللذين فضحوا أنصاف الحقائق الواردة في برنامج الحزب، وقدموا بشجاعة نادرة منظومة حقائق كاملة بديلاً لمنظومة فضائح عارية، وهكذا تم تصفيتهم باعتبارهم عملاء للناشر"همام الخاطر" (عدو الشعب)، كان هناك من اتهموا بالعمالة لجهات أجنبية، لمجرد أنها معادية للسلطة والنظام، ليصبحوا رهينة لمساومات سياسية، كان هناك خلف الجدران العتيدة كثيرون، امتلكوا أجهزة مناعية باسلة لمقاومة مغسلة العقول.

كان طارق يعي أن هناك حفنة أخرى من السجناء، يمثلون رموزاً فاضحة لمؤسسة الفساد، ويقضون عقوباتهم في سجن آخر من طراز "خمسة نجوم" كان يعي أن هذه الحفنة تمثل وجوها بارزة في تنظيمات الحزب وقد جرى تأديبهم بشكل مؤقت ولحسابات حزبية، على أن يتم إعادتهم إلى صفوف الحزب، بعد أن يستعيدوا صوابهم ويسددوا الحصة المطلوبة من المال المنهوب، كان طارق يعي أن ابنه "هشام" هو النموذج الأمثل لهذه الحفنة.

لم يكن طارق أقل إنشغالاً أو أقل إهتماماً، بالحفنة الثالثة من طبقات السجناء، اللذين يمثلون المجرمين العاديين من القتلة واللصوص ومغتصبي الأعراض وتجار المخدرات وتجار الأعضاء

البشرية وغيرهم، اللذين لا يتعرضون للتعذيب وغسيل العقول والقلوب، بل يمتلكون حريات واسعة، ويحصلون على ما يرغبون من طعام وشراب وأموال ومخدرات ومسكرات وأحياناً يسبّون الحراس ويتحرشون بهم، ويكلفونهم بمهام سرية تتعلق بنشاطهم الإجرامي، كان من بينهم تاجر الأعضاء البشرية، الذي تعرف عليه طارق، وعلم أنه يورد القلوب والأكباد والكلى لبعض أعضاء الحزب بأثمان تافهة، مقابل التستر على نشاطه، كان من بينهم تاجر المخدرات الذي يعمل مخبراً محترماً، لا يقل كفاءة عن أذكي عتاة المخبرين، وكثيراً ما يشي بزملاء المهنة، وأحياناً ما يحذرهم من الكبسات المفاجئة، وغالباً ما يكلف بمهام خاصة من قبيل التحري وجمع المعلومات والتطوع بتقديم بلاغات، كان من بينهم من يتاجرون في الجنس وعمالة الأطفال واستغلالهم بشكل بشع ويجمعون ثروات طائلة، يقومون بتبييضها بشراء محلات ملابس وأجهزة تليفون محمول و"بوتيكات" تمثل غطاء لنشاطهم ولا تحقق أرباحاً، لم تكن هذه النماذج تمثل خطراً على الأمن العام من وجهة نظر الأجهزة التي تستنير بتوجيهات الأخ الملهم، ومع ذلك فهم يسقطون في يد العدالة لأسباب قهرية هي أبعد ماتكون عن مفهوم العدالة ومبدأ الثواب والعقاب.. يسقطون لدواعي المنافسة والمكائد وتصفية الحسابات وتجاوز الخطوط الحمراء، ثم يجري التخفيف عنهم بعد

ذلك بصدور قرارات عفو أو تخفيف أحكام أو لأسباب صحية مزيفة أو إعادة النظر في مدى صحة أحكام القضاء، وهكذا يصبحون عملاء متميزين يتفانون في خدمة الأسياد، ولا مانع لديهم من الوشاية بضحايا مظلومين تجرأوا على شق عصا الطاعة.

كان طارق مبهورا بالتركيبة العجيبة لمجتمع السجناء لم يشعر أنه يبالغ عندما أطلق عليه صفة مجتمع فهو في نظره تجمُع إنساني متعدد الطبقات، لكل طبقة خصائصها وأوضاعها، ولكل منها أهدافها ومراميها، هناك طبقة مجرمين عاديين، يلعبون لعبتهم ويتحملون المخاطر ويجنون الثمار، هناك طبقة المتمردين يدفعون ثمن تمردهم ويحلمون بمستقبل غامض، هناك طبقة تمسك العصا من المنتصف فتُجاري السلطة وتعمل لحسابها الشخصي وتلقي للمستهلكين بالفُتات، وتجمع بين السلطة والثروة وتجيد فن عقد الصفقات ولعبة المساومات والمقايضات وتبادل المصالح، تمنى طارق أن يطول به الزمن ويفوز بهُدنة لا تبدو ممكنة، ليستكمل مذاكرته الخاصة، فيكتب عن عشرته لمجتمع المسجونين الذين نال شرف عضويته، فتكتمل فصول مسرحية واقعية معيشة، تخلو من شُبهة الخيال.

برغم كل صنوف القهر التي كان طارق يُعانيها، فقد أدرك أنه يعيش أزهى فترات سجنه بفضل الرسائل المتبادلة بينه وبين "رندة"،

كانت تعتريه مظاهر الدهشة والانبهار كلما لاحظ أنه هو بنفسه الذي يسطر هذه العبارات الرقيقة الجميلة، المليئة بالتشبيهات والاستعارات والكنايات، وكأنه شاعر موهوب وعاشق بالفطرة، بدا لنفسه كأنه ضل طريقه إلى السياسة، وكان الأولى به أن يصبح أديباً رومانسياً في زمن حضارة السوق وتوحش الاستهلاك وإعلام الفضائيات المُغيب للمشاعر والعقول، اطمأن إلى أن التعذيب لم يتمكن من غسل قلبه حتى الآن، مازال قلبه يرتجف بمشاعر الوحشة والشوق والحنين للقرب من محبوبته، مازال يحلم بالحضن الدافئ والقُبلة التي تعصب بكيانه، مازال ينعي آلام الفراق والبعاد ويقاوم اليأس والإحباط، مازال قلبه أكثر بسالة وعناداً من جسمه المتهاوي الذي اقترب كثيراً من حالة الضعف والهزال، كرر لها في خطاباته بأنه مدين لها باستعادة إنسانيته، كانت أكثر جرأة وشجاعة عندما بادرته بحبها في لحظة أسطورية تتغير بها المقادير والأقدار، اعترف لها بأنه لم يكن يملك مثل هذه الجرأة وتلك الشجاعة.

كانت ترد عليه في خطاباتها بأنها مازالت صامدة صمود الأبطال، ولم يوجد من ينزع قلبها من أحشائها، نزعوا أظافرها وأسنانها وقطعا من لحمها واستباحوا عرضها، ولكنهم لم ينجحوا في إسكات هدير قلبها، ذكّرته بقولها له إنها تريد أن تعيش وأن تحب، ولا تسمح حتى للشيطان بتعطيل قدرتها على الحياة والحب، رجته

أن يصمد ويقاوم، فلم يعد النصر هو استعادة الحرية، قالت له في رسالة: "لم يعد هذا النصر نصراً لنا بعد أن بئسنا منه واستبعدناه، أصبح نصرهم هو إسكات نبض القلب، وأصبح نصرنا هو الاستمساك بوهج القلب ولواعج الحب".

لم يتوقف طارق لحظة عن الدعاء لتاجر المجدرات "شعبان عليش"، الدعاء له بالتوفيق والسداد، واليمن والبركات، لم ينس أن يدعو لحارسه الشهم الطيب الذي كسر أغلال العُزلة والحصار وخالف قواعد مهنته، وتمنى له أن يفلت من العقاب، لم يكن يقض مضجعه سوى أن تشرق الشمس ذات صباح فتتحول هذه المؤامرة الجميلة إلى سراب.

لم يستطيع طارق أن يتحكم في دهشته – أثناء الفسحة المبتغاة – عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام القطب البارز في الحزب "فهمي راشد" لم يشاركه "فهمى" نفس الدهشة والاستغراب، فهو يعرف أن "طارق زيدان" قد سبقه منذ زمن إلى هذا السجن العتيد، لم يندهش طارق لسقوط "فهمي راشد" وحلول الدور عليه، فتلك هي طبيعة لعبة الكبار في حلبة المصارعة الحرة التي تتصف بالوحشية والعنف المُقنن بقواعد الصراع، كان محل الدهشة هو إيداع "فهمى" في سجن الأشقياء الخطرين على أمن النظام، ولم يتم

إيداعـه مـع الخلـصاء المقـربين ذوي المكانـة الخاصـة، فـي سـجن "الخمس نجوم".

تكلم الأثنان طويلاً بلغة العيون، وكأنما يـستعيدان شريطاً طويلاً يحوي رصيداً هائلاً عما يجرى داخل كواليس الحزب والنظام، لـم يكن اللقاء في حاجة إلى مقدمات ونواميس تعارف.. اللعبة واحدة والتـاريخ مـشترك وهمـا شـريكان بـارزان فـي صـنعة التـأليف والإخـراج لتابوهـات ضـمان الـسيطرة والبقـاء، دعـاه طـارق للانتمـاء جانبـاً بعيـداً عن العيون والآذان، استقرا فوق التل الصغير الذي كان يجمع طارق مع المرحوم "خليل فرج".

قال له "فهمي" بلا مقدمات:

– ألم يأت ابنك هشام لزيارتك؟

رد طارق باستغراب، وعدم فهم لمغزى السؤال.

– أظنك تعرف أنه نزيل سجن الأكابر.

– تم الإفراج عنه.. أصبح يملك نفوذاً أوسع.. تم تعويضه عن تقييد حريتـه بعـض الوقـت بـآلاف الأفدنـة مـن أراضـي الدولـة بـثمن رمـزي بخس.

– تمكن إذن من عقد صفقة مصالحة.

– أخلى لغريمة الذي وشى به سوق الحديد والأسمنت.. دفع الضرائب والعمولات المستحقة عليه.

– توقعت أن يحدث ذلك.. ليس هناك جديد في الأمر.. أشياء طبيعية تعودنا عليها.

– غريب أنك لم تعرف بخبر الإفراج.

– نحن هنا منقطعوا الصلة تماماً بالعالم الخارجي.

– هذا خبر سيئ.. تصورت أنه يمكن فتح قناة سرية للاتصال بالعالم الخارجي.

– هذا سجن الأشقياء الخونة، وليس سجن الأكابر.. سجن الخمس نجوم.

– ألست غاضباً من عدم زيارة هشام لك؟

– لم نتعود تضييع وقتنا في تبادل المشاعر الأسُرية.. مثل هذه المشاعر –كما تعرف– محرمة في الملاحق السرية لتعليمات الحزب.. كلانا شق طريقه دون أن يعطل أحدنا الآخر، ودون أن يرهن أحدنا مصيره بمصير الآخر.

– تصورت أنه سيسعى لاستصدار قرار سيادي بالإفراج عنك.

– لم أفكر في استصدار قرار بالإفراج عنه عندما كان مسجونا.. من حقه ألا يشغل نفسه بمسألة الإفراج عني.. ثم إن جريمته تختلف

عن جريمتي.. جريمتي هي الخيانة العظمى.. أصبحت عدوا للشعب مثل "همام خاطر"، وربما أصبحت أشد خطراً منه.

استغرق طارق في ضحكة ساخرة وعاد يقول:

– تشعرني بأنني لا أتحدث مع قطب بارز في الحزب، يعرف قواعد اللعبة.. أو ربما جعلك العزل والإبعاد تفكر بطريقة مختلفة.

عاد طارق يقول له بابتسامة ممرورة.

– سوف يتكفل التعذيب بإعادتك إلى جادة صواب الحزب، أو إلى تسييح عقلك.

دق جرس انتهاء الفسحة، نهض الاثنان وهما مشغولا البال، قال فهمي بعجلة:

– سوف يصيبك العجب عندما تسمع حكايتي.

– دعني أسمعها في الفسحة القادمة.

حل موعد الفسحة التالية، تربع طارق وفهمي فوق الكومة الصغيرة بعيداً عن هرج ومرج السجناء، لاحظا بعض العيون التي ترقبهما، لم يشعرا بأي قلق أو اضطراب، فليس هناك ماهو أسوأ من ذلك، ولم يعد الأثنان يمثلان خطراً على الأمن القومي، أو الإضرار بمصالح الشعب الآمن الوديع لم يكن فهمي في أحسن أحواله،

كان يتوجع ويتألم ويتحسس بعض أجزاء جسمه، سأله طارق عما يعاني منه، وهو يتوقع ماجرى له ، فقال فهمي:

– بدأت الجرعة الأولى من التعذيب باستعمال المثقاب الكهربائي.. لا أعرف إن كنت قادراً على الأحتمال أم أن مقاومتي ستنهار.

علق طارق بواقعية باردة، لم يتخيلها فهمي:

– لا تنزعج.. سيتكفل التعذيب بلجم جهازك العصبي، وابتكار مناعة خارقة ليدافع الجسم عن بقائه ووجوده.. لا أضمن لك أن تحتفظ بسلامة عقلك وسواء مشاعرك.

عاد يقول له بتشجيع:

– المهم أن تتحامل على نفسك وتحكي لي ما جرى لك.. كلي آذان مصغية.. دعنا نتسلى بالكلام.

صمت فهمي قليلاً، أخذ يهيئ نفسه لحديث طويل، ثم قال:

– تعرف أن "زايد قطب" حل محلك وأصبح مستشاراً للأخ الملهم (كبير الأمناء) ، وهكذا أصبح الرجل الثاني في الحزب.. وتولى – بدلاً منك – وزارة الحقيقة ولجنة إعادة كتابة التاريخ.

– هذا معروف لي قبل سجني.

– كنت أقرب الناس إليه ومستودع أسراره.. منحني شرف تولي وزارة الحقيقة ولجنة إعادة كتابة التاريخ.. كان في حاجة لمن يقوم بهذه المهمة ببراعة لا تقل عن براعتك ودهائك.

– غالباً هو غير موهوب لأداء هذه المهمة التي تحتاج إلى استعداد خاص.

– شعرت بالملل والفتور.. لم أعد قادراً على مواصلة الكذب والإدعاء.. لم أكن راغباً في الخيانة والانقلاب.. وإنما أدركت أن النظام في طريقه إلى التحلل والإنهيار.. ولم يعد الوضع قابلاً لاستمرار التجميد تحت شعار الإستقرار إلى ما لا نهاية.. بدأت أفكر في مخرج لإنقاذ النظام من نفسه، لإصلاح الأوضاع لصالح النظام.. صارحت "زايد قطب" بما أفكر فيه دون شبهة إنقلاب، وإنما بتقديم مشروع إنقاذ يضمن السلامة للجميع، دونما تصادم مباشر وحاد مع المنتفعين مما هو قائم.

– نفس أمانتي وسذاجتي.. هل تصورت أن "زايد قطب "يمكن أن يقتنع بمشروع إنقاذ؟

– استوعب "زايد قطب" ما فكرت فيه.. أبدى إعجاباً منقطع النظير.. قرر مجاراتي حتى النهاية.. قدم لي تفاصيل ومفردات مشروع إنقاذ، لا يقل براعة وإحكاماً عن مفردات مشروع "همام

خاطر" أبديت إعجابي بلا تحفظات.. قلت له إننا هكذا نسحب من "همام" كل دواعي شرعيته في الغضب والاحتجاج.

وهكذا دخلت مصيدة "زايد قطب" أكلت الطعم مثلما أكلته قبلك.

– كان يشعر بإعجاب "الأخ الملهم" بأدائي.. لاحظ تحول الإعجاب إلى صلة حميمة أزالت الكُلفة واستبعدت التحفظات.. أخذ يلمح لي بأن أقطاب الحزب بدأوا يضيقون ذرعاً بتسلط "الأخ الملهم" وانفراده بالقرارت.. أبديت تحفظاً يتصف بالحذر.. صارحني بأن حديث البعض بدأ يهمس بأرصدته السرية في بنوك "سويسرا" والاتفاقات التحتية التي أعقدها دون تمريرها على البرلمان. سألني إن كان لدي علم بذلك.. قلت له – ببراءة– إن هذا معروف ولسنا بصدد قطع الرأس الآن.. صارحتي بأن مشروع الإنقاذ يستلتزم قطع الرأس لإعادة ترتيب البيت.. فهم من صمتي أنني مستجيب.. قام بتسجيل حواراتي معه ومع بعض المقربين.. استطاع أن يحصل على بعض أوراقي ومستنداتي من أدراج مكتبي في البيت.. لم يكن في كل ذلك ما يثبت بالقطع جريمة الخيانة والانقلاب.. كان من السهل –كما تعرف– فبركة الكلام والأوراق لإلصاق التهمة بشخص.. جاء زائر الفجر، ووضع الحديد في

معصمي، وتمت المحاكمة السرية الشكلية بعيداً عن الأنظار والعيون والإعلام، ووجدت نفسي في صحبتك غير السعيدة.

- وضح الدرس.. المتورط في اللعبة يورط نفسه إذا تلبسه وهم الإنقاذ.. نجح زايد قطب في تصفيتك.. ونجح "الأخ الملهم" في إطالة فترة بقائه بعض الوقت.

وأخيراً حانت إسدال الستار على المشهد الحاسم في مسيرة طارق زيدان، بدأت المسرحية "بإعادة كتابة التاريخ" كمهنة، ثم حدثت الأزمة مع النفس، ثم الصراع الذي ترتب على الأزمة، ثم الحل الغافل عن حقائق الصراع، ثم لحظة التنوير، التنوير بوهم النصر، وبحيثيات سقوط البطل المأساوي في فخ خطيئة تزوير التاريخ، ثم محاولته إعادة كتابته تحت شعار التصحيح.

أفاق طارق في لحظة تجل لذروة المهزلة المتدحرجة على اختفاء حارسه المخلص الأمين، وظهور حارس جديد متفان في الالتزام بمهام وظيفته، انتظر موعد الفسحة بفارغ الصبر، أخذ يهرول وسط السجناء بحثاً عن "شعبان عليش"، اختفي "شعبان عليش" كأنه فص ملح وذاب، تمنى أن يكون تغيير الحارس مسألة إدارية وظيفية بحتة ولكن اختفاء "شعبان عليش" ضاعف قلقه ويأسه، وغلب شكوكه في إنكشاف السر، انتظر الفسحة الثانية والثالثة

والرابعة، لعل شعبان يظهر بمعجزة وعلى غير توقع وسرعان ما تحول أمله إلى سراب.

هكذا وجد نفسه يدخل في حلقة جديدة من حلقات مسلسل التعذيب سمع صوت طلقات رصاص آتية من الزنزانة المجاورة وسط صرخات السجين التي أخذت تخفت وتتحشرج بما يوحي بأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، سأل الحارس بانزعاج وإلحاح عما يحدث، فقال له الحارس بقلب جامد.. تم إعدام سجين متمرد داخل زنزانته، لم يستطع أن يقاوم رهبة الموت تحت وطأة واقع إنساني غريزي، لم يشهد مثل هذا الحادث طوال فترة سجنه رجّح بأن يكون ذلك بمثابة تمثيلية من قبيل الإرهاب النفسي لسحق إرادة المقاومة لدى السجناء، (كان ذلك وسيلة من وسائل التعذيب المعروفة، يتم إجراؤها بجهاز تسجيل عالي الصوت).

ثم حل الشوط الثاني من أشواط التعذيب، ظهر من قاده من سجنه إلى غرفة التعذيب، ثم تثبيته فوق ما يشبه الصليب، قام المعذب بوخز جسده في أكثر من وضع بالمثقاب الكهربائي، لم يتم تجاهل الأماكن الحساسة في جسده، لم يصرخ طارق من قبل مثلما علا صراخة هذه المرة، كان يتوقف قلبه من شدة الصراخ، وقد أخذ الدم ينزف من جسده الذي تغطى تماماً بلون الدم الأحمر القاني، كان مدير السجن يراقب عملية التعذيب بقلب بارد، قال له بهدوء

قاتل: "إكتشفنا أنك مازلت تتمسك بقلبك.. مازال ينبض بالدفء.. مازلت تكره الإخ المُلهم.. مازلت تحب رنده وتبادلها – في رسائلك – تلك النزعات السياسية ضده.. لم نكن غافلين عما يحدث.. تم الاحتفاظ بنسخة من رسائلكم على سبيل الإدانة وإثبات الحالة.. عزاؤك أنك تمر بالمرحلة الأخيرة من مراحل إفناء إرادتك".

قال طارق وهو يئن من الألم المُبرح:

– أوقف التعذيب.. دعني أراجع نفسي .. سوف أستجيب لمطالبكم.

– عوّدتنا أنك لا تستجيب بسهولة.. استهلكت وقتاً طويلاً قبل أن تفقد عقلك وتعترف بأن ٣ + ٣ تساوي عشرة.. لم يعد أمامك نفس الوقت حتى تعترف بحبك للأخ المُلهم وكراهيتك لـ "رندة".. المهم الآن أن تقنعني بأنك أصبحت تكره "رنده".

قال طارق باستجداء وتوسل، بهدف التخلص من العذاب والأوجاع:

– اعتبر أنني أصبحت أكرهها الآن.. دعني أثبت ذلك بالطريقة التي تقنعك.

– ليس أن تقول ذلك بلسانك.. نحن أدرى بعناد قلبك.. لا تتعامل بعُملة النفاق الرخيص..

أخذ يدلي باعتراف تلو اعتراف، بما يوهم بأنه أصبح يكره "رنده"، استهلك دقائق عديدة، ساق خلالها اعترافات كثيرة ضد حبيبته "رنده" توحي بأنه توقف عن حبها، لم يبد مدير السجن مقتنعاً بموات قلبه، قال لطارق بنفس البرود وموات القلب.

– لم تنجح في إقناعي بموت قلبك.. لم أشعر بأنك توقفت بالفعل عن حبها.. تريد أن تتمسك بقلبك وتنجو من العذاب.. أنا الذي أحدد أنك توقفت بالفعل عن حبها.. عندي ميزان حساس يفرق بين الصدق والكذب.. أنت لم تخنها في الواقع.. مازلت تسكن قلبك.

– لا أعرف كيف أقنعك.. لا أملك سوى لغة اللسان.. لم أعد أتحمل ضريبة الحب المُكلّفة.

– دعني أريحك من حيرتك.. أنا الذي سأقرر براءتك من حبها.. سأكتشف بحاسة التحري داخل سراديب قلبك أنك تخلصت فعلا من رذيلة الحب.. هنا سأقرر التوقيت المناسب لإيقاف التعذيب.. مازلت في حاجة إلى مزيد من التطهر والخلاص من شرور الحب.

انصرف مدير السجن، دخل الطبيب لمداواة الجراح، لضمان حياة جسد هزيل، تم إفراغة من محتوى العقل والقلب، قال طارق وهو يتلوى من عذاب الجسد ونزيف الجراح:

- إن الحرية هي أن تموت كارها لهم.

أدرك مدير السجن بأنه لم يبق الكثير ليصل طارق إلى محطة الوصول.. محطة الوصول التي تستوجب شطبه من سجل الأحياء دون تصفيته جسدياً، هكذا أمر بمواصلة التعذيب لحين صدور إشعار آخر، ودارت العجلة، وقع طارق فريسة لأساليب التعذيب العصرية التي لم تعد غريبة عليه، من شد الأطراف إلى الصعق بالكهرباء إلى الإغراق بالماء إلى غير ذلك من الأساليب المستحدثة، مع مراعاة الفواصل الزمنية التي تتناسب مع إحتمال الجسد وقدرته على الصمود، لم يمر وقت طويل حتى إنهارت مقاومة طارق إنهياراً تاماً، لم يعد قادر على إيقاف التعذيب بسبب التشكك في اعترافاته، ولم يكن وارداً أن يسمح له بالانتحار، شعر في لحظة فارقة بأنه قد أصيب بالفعل بحالة شلل تام في المشاعر والأحاسيس، توسل في طلب "مدير السجن" لم يتوقف عن استجداء المقابلة ليدلي باعتراف هام، قال إن "المدير" يتلهف لسماعه بفارغ الصبر.

ستدعاه المدير في مكتبه، بدا ودوداً وظريفاً على غير العادة، قدم له كوب الليمون الذي يقدم في مثل هذه المناسبة، دعاه إلى الحديث بكامل حريته دون تخفظ، وقول ما يريد أن يقوله بعفوية وتلقائية، مع وعد بالتساهل والعفو عما سبق.

وأخذ طارق يدلي باعترافه، بلهجة تشي بمنتهى الأمانة والصدق والصراحة.

"اسمع يا سيدي.. إليك حقيقة ما حدث.. لست مسئولاً عن العلاقة التي تمت بيني وبين "رنده".. هي التي طاردتني واستدرجتني.. دست في يدي ورقة مكتوب فيها "أحبك".. أخذتني في سيارتها وستأجرت لنا شقة نتبادل فيها الحب.. قالت لي إنها تكره الحزب وأمينه العام مثلما تعرف أنني أكرههما.. هكذا تورطت في حبها ولم أستطع المقاومة.. هي المسؤولة عن كل العذاب الذي لحق بي.. هي المسؤولة عن ضياع مركزي في الحزب.. مسؤولة عن انقلابي على الأخ الملهم.. أصبحت أكرهها الآن كراهية التحريم.. تآمرت على حياتي ومستقبلي.. لم أغفر لها هذه المؤامرة.. هي التي تستحق التعذيب حتى الموت.. عذبوها حتى تنال عقابها.. انتقموا لي منها وسوف أحمل لكم الجميل.. لم أعد أطيق رؤيتها أو سماع صوتها.. أفقدتني حكمتي وصوابي.. سلبتني إرادتي.. يمكنني أن أثبت كراهيتي لها بالطريقة التي تختارها.. أنا مستعد أن أحكي

تفاصيل التفاصيل إن كان عندك وقت.. "الحزب على حق عندما جرّم مشاعر الحب.. الحب أسوء جريمة في تاريخ الإنسانية".

سمع المدير ما سمع بمنتهى الرضا والارتياح، أدرك بما لا يقبل شك أن طارق قد تخلص تماماً من حبه لـ "رنده".. تخلص تماماً من رذيلة الحب وأصبح ممسوح العقل والقلب، ولم يعد عنده ما يستحق التعذيب والتنكيل، قال له بعطف وإشفاق:

– يكفيني ما سمعت.. أنا أصدقك الآن.. تطهرت من ذنبك.. لم نذنب في حقك.. "رندة" هي المُذنبة، وقد تسببت لك في كل هذا العذاب.. من حقك ألا تسامحها.. قُمنا بعقابها نيابة عنك.. نالت تصيبها من التعذيب.. والبقية تأتي.

لن أسامحها أبداً.. سأصفي حسابي معها بنفسي، إذا بقى لي عمر، لأكفر عن غفلتي.

قال المدير وهو ينهي اللقاء:

– دعنا نقوم بما تريد أن تقوم به.. إمنحني بضعة أيام حتى استصدر قراراً بإطلاق سراحك.

شعر مدير السجن بحاسته السادسة أن طارق قد توقف بالفعل عن حب "رندة"، ولم تعد تسكن قلبه، بل طالب بتعذيبها بدلاً منه، وأبدى إستعداده لقتلها بإعتبارها حاكت مؤامرة خسيسة لتحطيم

حياته، ومع ذلك لم يستسلم تماماً لوحى حاسته السادسة، فهو بحكم مهنته لا يستند في أحكامه إلا لدليل مادي ملموس.

وحان موعد اللقاء الحاسم، عندما أمر باستدعاء طارق من سجنه إلى مكتبه، قطع طارق الممر الطويل مع حارسه، وقد أصبح إنساناً آخر، بل ربما شبه إنسان، بدا شارداً مُغيباً، مستسلماً لحالة من الذهول، تتساوى الأشياء أمام ناظريه دون تمييز، توحي ملامحه بأن عقله قد توقف عن التفكير، وأنه يعاني من بلادة الحس والانفعال، لم يسأل حارسه عن الجهة التي يقوده إليها، وقد بدا أنه لا يكترث بضجيج السجناء في زنازينهم مثلما كان يحدث من قبل، ولم تعد شكاواهم تجد أذاناً مصغية، حاول الحارس أن يوقظ وعيه بعدة هزات، وينبهه إلى أنه مدعو لمقابلة المدير، فلم يحصل على أي استجابة تُذكر، لم يعد طارق الذي كان يهدر بإعترافاته لمدير السجن منذ أيام ويطلق العنان لمشاعر وأفكار تشي بأنه مازال يحمل بقايا حياة، أصبح الآن طارق الشارد المذهول المشكوك في سلامة ذاكرته.

دخل مكتب المدير، أجلسه الحارس على المقعد المواجه للمكتب.. لم توح ملامحه بأنه تعّرف على المدير، لم يتعّرف على السيدة الجالسة في مواجهته، رمقها بنظرة عابرة غير مقصودة، لم

تتكرر نظرته إليها. أخذ يوزع نظراته بين أرجاء الحُجرة وسقفها دون أن ينطق بكلمة واحدة.

تفّحص المدير هيئته، استغرق في التفكير لحظات، قال له وهو يشير إلى السيدة:

– هذه "رنده".. جاءت لزيارتك.. ألا تُرحب بها؟.. بدت شغوفة لرؤيتك.

رمقها بنظرة ذاهلة، تشي بأنه لم يتعّرف عليها، حاولت أن تذكره بإبتسامتها الرقيقة، فلم تحدث استجابة، قالت له بأمل ورجاء:

– أنا "رنده" يا طارق.. ألا تذكرني؟.. ماذا جرى لك؟.. حاول أن تتذّكر.

عاد طارق ينظر إليها باستغراب، صمت قليلاً ثم قال:

– ربما سمعت بهذا الاسم من قبل.. ربما..من أنت؟.. ماذا تريدين؟

عادت "رنده" تستجدي ذاكرته:

– أنا حبيبتك "رنده".. هل نسيت أيامنا الحلوة؟! ذكريتنا الجميلة.. حاول أن تتذكر.

صمت طارق قليلاً، بدا أنه يحاول التذكر، قال بلهجة مفككة وبأفكار أقرب إلى الهواجس والهلاوس:

– آه.. تذكرت.. عرفت.. العميلة المأجورة للأخ الملهم.. أهنئك على نجاح خطتك.. قُمت بأداء مهمتك بمنتهى الإحكام والإتقان.. دفعت ثمن غبائي وغفلتي.. كم ضحية سقطت في شباكك حتى الآن؟.. شفاه جميلة غضة.. قوام ممشوق.. صدر نافر.. قمت بنفس المهمة التي قام بها "زايد قطب".. الخيانة.. الخيان.. فتات النعمة.. ذهب العرش.

انهمرت دموع "رنده" استغرقت في بكاء ممرور، اندفعت نحوه احتضنته في مقعده بعطف وإشفاق، تدخلت الكلمات فوق لسانها، بدا طارق متيبساً بارداً جامد الوجه، عادت إلى مقعدها وهي تواصل الانخراط في البكاء، سمعته يكلم نفسه أو يتحدث في خلاء:

– عميلة مأجورة.. هل تحاول تكرار لعبتها القذرة مرة أخرى؟.. هيهات.. هيهات.. الجريمة ترتكب مرة واحدة.. لا تتكرر.. الحاج. الحاج مروان.. عميل آخر مأجور.. ما أخباره الآن؟

وصل اللقاء المُدبر إلى نهايته المأمولة.. بدا المدير مرتاحاً لما سمعه ورآه.

قالت "رنده" وهي ترمق طارق بحزن ورثاء، وقد استوعبت ما وصل إليه حاله:

– ليس هذا طارق الذي أعرفه.. مات طارق.. يرحمه الله .

أخرج المدير ورقة من درج مكتبه.. لوح بها أمام عيني طارق.. قال بسعادة وارتياح:

– هذا قرار الإفراج عنك يا طارق.. أنت الآن مطلق السراح ألف ألف مبروك.

سألته "رنده" عن مصيرها، أجابها بمزيد من الارتياح:

– ألم تقولي إن طارق قد مات؟

– لم يعد له وجود.

– انتظر إذن قرار الإفراج.

طلب مدير مستشفى السجن مقابلة عاجلة لمدير السجن، الذي سأله عن سبب المقابلة، قال مدير المستشفى باستفسار:

– ماذا عن مصير طارق زيدان؟

قال مدير السجن باستغراب:

– سؤال غريب.. هو الآن مُطلق السراح.. من حقه أن يعود إلى بيته.

– طارق لم يعد الآن صالحاً لحياة طبيعية.. فحصه الطبيب النفسي وقدم لي تقريره.

– وماذا عن حالته؟

– يعاني من حالة فصام نفسي حاد.. شيزوفرينيا.. مريض يحتاج لعلاج مُكثف.. أصبح ضحية لأعراض الهواجس والهلاوس والضلالات.. الشفاء غير مضمون ويحتاج لوقت طويل.

– وما قرارك؟

– لا مفر من إيداعه في مستشفى الأمراض العقلية.

– لم يعد يشغلني أمره.. هذه مهمتك.. قم بواجبك حسب ما يقتضيه شرف المهنة.

قال الطبيب بوازع من إثبات ولائه وحكمته الأمنية:

– عودته إلى الحياة العامة وهو على هذا الحال سوف يسيء إلى سمعة السجن ورسالته النبيلة.

هكذا أصبح طارق ينتمي إلى شريحة جديدة من شرائح المجتمع، أصبح عضواً بلا هوية وسط مجموعة من المجانين ومرضى العقول والنفوس، هكذا تم إعفاؤه من التعذيب، وإعفاؤه من الشعور بأدنى قدر من المسؤولية، بعد أن أصبح فريسة لاضطراب العقل والمشاعر، كانت تلك أقصى مرحلة من مراحل حياته، كان عليه أن يتعامل مع أناس يفتقدون أي منطق أو أي شعور بالالتزام، أناس يمتلكون حريات واسعة مُطلقة دون أي شعور بالمسؤولية ويجدون في ذلك ذروة النشوى ومنتهى السعادة والانشراح، حرية لم يتحصّل عليها وهو عضو في الحزب أو سجين في الزنزانة، لم يخف

انبهاره بهذه الصحبة الجديدة، حتى أنه ابتدع مصطلحاً جديداً لمفهوم الحرية، قال في نفسه:"إن الحرية هي أن تفوز بنعمة الجنون". لم يكن أقل انبهاراً وانتشاء بعقله المُختل الجديد عندما يحلق في آفاق الخيال المرضي الجامح، فيطلق العنان لشكوكه وهواجسه التي تفتقد الأدلة والحيثيات ويبتكر ضلالات ليس لها أي نصيب من الصحة، كان يعتبر بعض من حوله في ماضي الأيام وحاضرها، أعداء يتربصون به ليلحقوا به الأذى والإضرار، لم يعد هناك واقع سعيد أو أليم، تحول العقل من نعمة إلى نقمة، تحول من النقيض إلى النقيض، من صفة النظام إلى تيه الفوضى.

كان عليه أن يتعاطى أدوية كثيرة، أشكالاً وألواناً، يخضع لجلسات أشعة بشكل دوري منتظم، كان عليه أن يمتثل لجلسات نفسية دورية في حضرة الطبيب المختص، كانت هذه الجلسات من أمتع الأوقات التي يقضيها في معسكر اعتقاله الجديد، لم يجد بأساً في صحبة العاقل الوحيد في معسكر الجنون، برغم أن طارق يتمتع بعقلين في جسد واحد.. عقل مازال يحمل بقايا تفكير منتظم.. وعقل يهوم في ضباب الهلاوس والشكوك، كان الطبيب يستمتع هو الآخر بحديثه وحواراته معه، كان يرى فيه مريضاً متميزاً يستحق التأمل والدراسة، مريضاً يمثل مرآة ناصعة الدلالات لظروف وملابسات الواقع المُعاش.

تتابعت الجلسات النفسية بحمية وحماس من كلا الطرفين، تمكن الطبيب من جمع ملاحظات مهمة ومؤشرات لافتة، أغرته بمواصلة الحوار لتكوين صورة مكتملة تجمع بين حالة المريض والواقع المُعاش، كان يُدرك أن الطبيب يتعلم من المريض أكثر مما يتعلمه من الدراسات والأبحاث والتقارير المتخصصة، وحان موعد تلك الجلسة المُثيرة التي تعامل فيها الطبيب مع عقلي طارق بكل ما يحملانة من تضاربات وتناقضات من واقع أن المجنون أحياناً يصبح أعقل الناس وأقدرهم على اكتشاف حقائق موضوعية مُبهرة.

تم الاجتماع كالعادة حول منضدة مستديرة وسط حديقة منسقة، تختلط فيها خضرة أوراق الشجر بألوان زهور الفل والياسمين والورد البلدي القاني الحمرة، فوق بُساط سُندسي من النجيل يانع الخضرة.

لم يقطع الطبيب انشغال طارق بتأمل الزهور وفروع الأشجار، وهو في حالة استرخاء وانسجام مع الطبيعة بعيداً عن نكد البشر، نظر إلى الطبيب وقال بسخرية:

– مستشفى "خمس نجوم".. هل مازالت هناك حدائق؟

قال الطبيب وهو يستدرجه للحديث عما يدور بداخله:

– مستشفى يليق بصاحب مقام رفيع.. مقام رفيع سابق.

استغرق طارق في ضحك لا يخلو من تربص وتشكك:

– يبدو أنهم أطلعوك على ملف حياتي.. أعفوك من مشقة التحري.. يسّهلون لك مهمتك.

– لست معادياً لك.. اعتبرني صديقاً.. مجرد صديق يتسامر معك.

– كلكم تقولون ذلك، ثم ينكشف أمركم فيما بعد.. لماذا كل هذا العداء نحوي؟

– المهم.. هل تشعر بتحسن بمرور الوقت؟

– لا أخفي أنني سعيد بمُعاشرة المجانين.. أُناس طيبون.. لا يضرون ولا ينفعون.

– ولكنهم أحياناً يثيرون الصخب والضجيج، ويحدثون هياجاً.

– هل تريد أن تحرمهم من هامش حرية، يؤكدون به وجودهم؟

– يبدو أنك تنوي أن تصبح شاعراً.

صمت طارق قليلاً، ثم عاد يقول باسترسال خيالى نشط:

– هل تسخر منى؟.. أنت تتحدث مع من تعّرف على أشكال كثيرة من الجنون.. لا أكثر ولا أقل.

فكر الطبيب لحظات، ثم قال باستدراج ومجاراة:

– يبدو أن لديك فكرة عن حكاية الجنون هذه.. قل لي ما تعرفه.

ارتاح طارق لهذا الاستجواب، كان يستشعر متعة خاصة في الحديث.. في إطلاق العنان لخياله، قال:

- سوف أحدثك عما أعرفه من أشكال الجنون التي رأيتها في حياتي.. هناك مثلا الجنون المنظم المرتب بإحكام، والذي شاركت فيه داخل سراديب الحزب.. يتم استخدام وظائف العقل لصنع عالم وهمي كاذب، يرفع شعاراً برّاقاً مثل "إعادة كتابة وصُنع التاريخ"، ولا تختلف تركيبته عما يدور في عقول المرضى المجانين.

تحّكم الطبيب في دهشته وانبهاره، لم يشأ أن يُعطّل استرساله في الحديث، سأله وهو يتحكم في فضوله.

- مازلت تحتفظ بنشاط عقلي لا بأس به.. والآن..حدثني عن الشكل الثاني للجنون.

- هناك جنون التعذيب في السجون.. المُعذب يقوم بمهمته بمنتهى الكفاءة، وليست له أدنى مصلحة فيما يلحق بالمُعذبين، سوى قبض راتبه والترقي والشهادة له بحسن الأداء.. أما عن الضحية فالمطلوب إفراغها من محتوي العقل والقلب، حتى تصل إلى مرتبة أخرى من مراتب الجنون.

عاد الطبيب يتحكم في انبهاره، سارع بسؤاله قبل أن ينقطع استرساله:

- هل هناك نوع آخر؟

- هناك جنون الحب.. أن تصدق في لحظة غيبوبة أن لك قلباً يستطيع أن يرتعش بسحر التواصل مع المحبوب تحت سقف جنون

الحزب الممسك بالأعناق.. جنون يعاني صاحبه من أعراض السذاجة والبلاهة.

– هل هناك نوع آخر؟

– هناك جنون التحرر من أسباب الحياة.. هذا الذي أعيشه هنا مع أصدقائي المجانين.. هم في نظري أشرف أنواع المجانين.. نزعوا قناع المفاهيم والأفكار، بما تحمله من حقائق وأكاذيب، واستمرأوا أفيون اللامعنى واللامعقول.. فقدوا العقل ولم يفوزوا بفرصة إشباع الغرائز.

طال صمت الطبيب، كأنما يراجع ما سمع، فسأله طارق:

– هل وجدت شيئاً ذا قيمة فيما قلت؟

قال الطبيب بتقرير لا يتعارض مع التشخيص المهني:

– هذا كلام يمتزج فيه العقل بخيال واعٍ.. ربما تصبح مشروع شاعر أوكاتب.. هذا وارد بالنسبة لحالتك.

– أشكرك على هذه المجاملة الرقيقة.

– ليست مجاملة.. ربما تكون قد تجاوزت مرضك.. بعض مرضى الفصام تحولوا إلى شعراء وأدباء ومفكرين.. وظفوا خيالهم الجامح لاستبطان حقائق إنسانية عميقة، لا يقوى على استظهارها سوى أصحاب خيال محلق.. كتّاب الأساطير تجاوزوا الحقائق التقليدية المعروفة، ولم تخل أساطيرهم من مغزى إنساني عميق.

قال له طارق برجاء:
- أرجوك.. أتوسل إليك.. لا تحاول أن تعيدني إلى الحياة.. لست راغباً في تكرار رحلة خائبة.. الوثنية الجديدة ترفرف بأجنحتها بلا معوقات.. تحطيم أصنام السوق يحتاج إلى ملخص يضفي بعداً إنسانياً لثورة العلوم والتكنولوجيا.

قال الطبيب بحفز وتشجيع:
- هذه نبوءة تلهم المخلص القادم.. لا تخش شيئاً.. لا أحد يحاسب من تم تشخيصهم كمجانين.. لم تعد مراقباً.. ثم إن أجهزة الأمن لا تهتم بمثل ما تقوله الآن.. أنت مسجل عندي بصفة مجنون.. جرب أن تصبح شاعراً أو كاتباً.. ربما تقع أعمالك في يد المجهول القادم.. مهمتي أن أعيدك إلى حالة من الاتزان.

- ألا تخشى على نفسك من هذا التحريض؟
- أنت في نظر الجميع مجنون.. ولا تثريب عليك.. أقوم معك بعمل مهني بحت، لا يضعني تحت طائلة القانون..حواري معك يندرج تحت بند العلاج وتشخيص دواء الشفاء.

قال طارق بسلبية معاندة، وقد تحركت هواجسه وشكوكه:
- لا تحاول إدخالي المصيدة من جديد.. ربما تكون أخطر عميل للحزب.. تستدرجني إلى مزيد من التعذيب.. وتنال المكافأة التي

يستجديها كل عميل.. دع الأجيال الجديدة تستولد مخلصها، وتستدعي بنيها.. دعها تستبدل وحدانية السوق، ومنظومة الإعلام المُكرس لخدماتها، برسالة تستلهم أحلام المستضعفين وحقهم في حياة كريمة، بعيداً عن مطرقة السوق و"بنج" الإعلام.

سارت حياة طارق في المستشفى بلا متاعب، لم يكن رافضاً للمكان، ولم يكن طامحاً لأي مكسب أو إنجاز، اللافت أنه لم يكن يشعر بأي قيد من القيود على حريته، كان يشعر بأنه يستمتع بحرية من نوعٍ غريب، لم يتوقع أن يفوز بها، تحولت علاقته بالطبيب إلى صداقة لم تكن تخطر له على بال، كان الطبيب يستشعر نفس الحماس لهذه الصداقة الوليدة، كلاهما يتعجل اللقاءات المنتظمة بينهما وسط أوراق الشجر وروائح الزهور، كان الطبيب يسجل ما يدور بينهما من حديث بعناية فائقة، توحي بأنه يعد لبحث علمي هام، وقد بدا سعيداً بتحسن حالة طارق مع مرور الوقت، عندما أخذ يتحول الخيال المرضي المرتبك إلى خيال فني خلاق.

لم تقتصر علاقة طارق على علاقته بطبيبه، نشأت بينه وبين المرضى علاقات حميمة متنوعة، فهم يتحمسون للبحث عنه ولقائه، ولا يتوقفون عن الحديث معه، بدا وكأنه هو الآخر يقوم ببحث عفوي تلقائي ليفهم هذه الشريحة العجيبة من الناس، قال للطبيب ذات

لقاء وبخيال فني:"كأنما هؤلاء اللذين يسمون مرض قد نزعوا – بدافع خفي– إلى الخلاص من سجن الخارج الكبير، ليفوزوا بحرية غامضة، تخلصوا بفضلها من أعباء ثقيلة تنوء بها الجبال، ولا يقوى على تحمُلها أشقى الأشقياء، كان بينهم مرضى بسطاء، وقعوا ضحية خلل جيني أو تناقضات نفسية واجتماعية، كان بينهم أيضاً مسؤولون وموظفون ومثقفون وغاضبون معارضون للسلطة أو عاجزون عن التواؤم معها ومُجاراتها، كانت بينهم من مازالوا يحتفظون بهامش عقل كان بينهم ذلك المريض الغامض "يسري غانم" الذي تحيّر طارق في فهم حالته، هو الذي تقرّب من طارق وحرص على التودد إليه.

تعددت اللقاءات حتى انتظمت واتخذت موعداً يومياً، بدا طارق حذراً في معاملته بدافع شكوكه، بعد أن ضمن أنه يحتفظ بكامل قواه العقلية ويتظاهر بالجنون، لم يستمر التحفّظ طويلاً، فكلاهما يريد أن يفتح قلبه، ولكنهما يستسلمان لما يعتمل بداخلهما من هواجس وشكوك، برغم التقارب النفسي الذي لا يريد أن يفصح عن هويته، وأخيراً قرر طارق أن يكسر حاجز التحفّظ وحالة الارتياب القهري، فانتهز فرصة لقاء هادئ مُسترخ يتخلله شعور مُتنام بالارتياح المتبادل، فقال له بلا مقدمات:

– أعترف لك بأنك تحيّرني.. أحياناً تشعرني بأنك عاقل.. وأحياناً تشعرني بأنك مريض نفسي.

ارتاح "يسرى" لما سمع، فقال هو الآخر بلا مقدمات:

– ينتابني نفس الشعور نحوك.. أشعر في حديثك أنك تفهم الكثير.. وقليلاً ما أشعر بأنك تعاني من مرض أدى إلى إدخالك إلى هذا المستودع.. مستودع الخبل.

حدثه طارق عن مُجمل ظروفه باقتضاب وحذر، ودون أن يتعرض لاتهامات الغير ، وانتقاد الأوضاع قبل أن يتبين نوايا "يسري" وطبيعة تفكيره، رجاه "يسري" أن يقول المزيد، ويزوده بتفاصيل أحداث حياته حتى يطمئن إليه ويفتح له قلبه ويُطلعه على مكنون أسرار حياته وما جرى له، حرص على تذّكيره بأن جواسيس الحزب موجودون في كل مكان، ويختفون داخل ملابس الجميع، وربما داخل عقولهم وقلوبهم، بأجهزتهم الالكترونية الحساسة والدقيقة، وهو لا يريد مزيداً من المتاعب والمُحاصرة والمُطاردة، تخلى طارق عن تحفظه وأخذ يحكي له دونما شك أو حرج، شعر يسري بارتياح بالغ وأخذ يتكلم:

"تستطيع أن تعتبرني كاتباً ومُفكراً، إذا كان يوجد في بلادنا من يتصفون بهذه الصفة.. أنا كاتب معطّل الإرادة لأسباب كثيرة..

لست مُقتنعاً بأجندة الحزب غير القابلة للتصديق.. أنا أفهم كيف أصيب الناس بالسلبية والصمت وبشلل الإرادة رغم ما يُصيبهم من أضرار.. لم يكن من حقي أن أشرح وأوضح وأُشير إلى الأسباب.. الكتّاب في نظر السُلطة هو دعاة ومؤيدون لسياتها ومُبررون لأخطائها وتجاوزاتها.. ومن يتعد الخط الأحمر يكن مصيره السجن والتعذيب.. استخدمت أسلوب التلميح بدلاً من التوضيح.. أعطيت مُهلة لا بأس بها لتوريطي والقبض على نواياي.. ضاقت بي أجهزة الأمن.. جاءني فاعل خير وأبلغني بالترتيبات التي تجرى لاعتقالي والزج بي في السجن.. لم أشعر بأنني سأصبح شهيداً، أُحفّز الناس على الغضب والتمرد والاحتجاج.. لم أشعر بأي عائد طبيعي ومنطقي لتحميل التعذيب ودفع ثمن غضب محكوم عليه بلا جدوى.. هكذا قررت أن أصطنع الجنون.. ذهبت إلى طبيب نفسي زودني بأعراض الجنون، ودربني على التظاهر بها بمهارة وإحكام.. ذكّرني بأن أي خطأ قد يكشف أمري.. هكذا تمثلت شخصية المجنون ببراعة فائقة، نلت بها شرف إيداعي هنا في المستشفى".

صمت يسري قليلاً ، فسأله طارق بفضول:

– هل يعرف الطبيب النفسي حقيقة حالتك؟

– أغلب الظن أن يعرف وشفق على حالي.. هناك من يضيقون بالأوضاع ويفعلون الممكن الذي لا يضعهم تحت طائلة العقاب.

عاد طارق يقول بارتياح:

– يبدو أنني– أنا وأنت – مازلنا نحتفظ بقدر لا بأس به من التعقُّل.

– تعقّل لا فائدة تُرجى من ورائه.

قال طارق بحيرة، وكأنما يُكّلم نفسه بصوت عال:

– أشعر أحياناً بأنني قادر على فهم الوضع القائم، بصرف النظر عن إمكانية إصلاحه.. وأحياناً أشعر بأنني عاجز عن الفهم وتشخيص الحال.. إذا كانت سُنة الحياة هي التغيير والتطور بلا ثبات.. فأي قوة شيطانية تلك التي تقوم بتجميد الأوضاع باسم الاستقرار؟

– تشخيص الدافع ورصد أبعاده هو مُهمة الكتّاب والمُفكّرين من أمثالى.. نحن نفهم أكثر مما نكتبه ونُعبّر عنه، ولكننا لا نقول كل ما نفهمه بحُكم الحصار والتضييق.. نحن نعرف بوسائلنا الكثير مما يدور خلف الكواليس، ولا تجرؤ على التصريح به.

– حدثني عما تعرفه مما يوضح الصورة.

– دعنا لا ندخل في المحظور.. لم نعد عقلاء في نظرهم.. ربما يشي بنا جاسوسهم داخل عقولنا.

أراد "يسرى" أن يرضي صديقه، فعاد يقول:

– يمكنني أن أعطيك عناوين تساعدك على استيضاح الصورة.

– أسعفني أرجوك.

– الحاضر لا يريد أن يمضي والمستقبل لا يريد أن يولد.

– ولماذا يحدث ذلك؟

نحـن نعـيش فـي الـزمن المـشبوه: تزييـف الماضـي.. تكبيـل الحاضر.. مصادرة المستقبل.

– هذا توصيف رائع.. أنا أعرف الكثير عن تزييف الماضي.

– الماضي نواة الحاضر.. والحاضر خميرة المستقبل.

– هم بالتأكيد يستبعدون هذه الحقائق.

– لأنها ليست في صالحهم.. هم عاجزون أيضاً عن فهمها، رافضون لنتائجها.

– هذا عين الجنون.

– المستبد كائن بلا ذاكرة.. بلا قضية تهم الجميع.. بلا انتماء.

قال طارق بإحباط:

– كأننا نبحث عن ماض غائب، وبطل لا يريد أن يحضر.

– لم نعد نحتاج إلى مُخلص.. هذه فكرة رجعية.. المُخلص الآن هو الإرادة الشعبية الحيّة التي تفرض التغيير.

ظهـر الطبيـب عنـد مـدخل الحديقـة، دار بنظراتـه فـي وجـوه المرضـى، كأنمـا يبحـث عـن وجـه بعينـه، اتخـذ سـبيله نحـو مجلـس طـارق بمـا يـوحي أنـه يقـصده، كـان طـارق يتـسامر مـع أصـدقائه

المرضى، وقد تعودوا أن يلتفوا حوله ويتبادلون حديثاً عفوياً تلقائياً، يلتمسون فيه أسباب التسلية والراحة، بدا طارق وكأنه قد تحول إلى رمز مرموق، يحرص المرضى على المثول في حضرته والائتناس بصُحبيته.

انضم الطبيب إلى المجتمعين، تحدث معهم بعض الوقت، دعا طارق للتمشي قليلاً وسط الشجيرات والزهور، سرى بينهما حديث هادئ، حتى استشعر طارق أن الطبيب يريد أن يقول له شيئاً ما، فقال بلماحية مُبادرة:

– أخمن أنك تريد أن تقول شيئاً.

قال الطبيب بود ومحبة:

– أشعر أنك قد تحسنت كثيراً.. اقتربت من أن تصبح شخصاً عادياً.

– وما دليلك على ذلك؟

قال الطبيب بظُرف وتشجيع:

– أصبحت زعيماً للمرضى.. تنصحهم وتوجههم وتساعدني في مهمتي.. هذه ظاهرة صحية.

– وما نتيجتها في نظرك؟

صمت الطبيب قليلاً وعاد يقول:

– أفكر في استخراج شهادة بشفائك، يترتب عليها توصية بخروجك من المستشفى.

بدا الانزعاج على ملامح طارق، قال بلهجة احتجاج واضح:

– ومن الذي قال لك إنني أريد أن أغادر المستشفى؟

– هذا وضع طبيعي عندما يشفى المريض.

– أنا سعيد ببقائي هنا مع أصدقائي.. أنا مُصر على بقائي.. اعتبرني لم أشف بعد.

قال الطبيب باستغراب.

– ألا تريد أن تستعيد حياتك الطبيعية؟

– مكاني هنا.. وليس لي مكان آخر غيره.. لم يعد لي في الخارج لا أهل ولا أصدقاء ولا عمل.

– عليك أن تجتهد في خلق حياة طبيعية.

– وهل هناك حياة طبيعية خارج هذه الجدران؟

– حاول أن تتكيف مع الواقع دون صدام.

– أنت تطلب المستحيل.. كيف تتواءم مع واقع مُزيف؟.. مع نظام يناصبك العداء.

– استثمر خيالك الفني في إفراغ شحنات غضبك.. أفرغ غضبك بالكتابة، ولو لنفسك.

صمت طارق طويلاً، بدا أنه يتهيأ لحديث قاطع وحاسم لا رجعة فيه قال:

"اسمع يا صديقي الطبيب.. أنت صاحب فضل وجميل لا يُنسى.. ومع ذلك أشعر أنك طيب مهني رائع، ولكنك لا تستوعب حجم الكارثة.. الحزب هو مجموعة من المجانين تدير البلاد.. ولا يجدي معهم حديث العقل والحكمة.. لا تجدي معهم نصائح الكتّاب والمُفكّرين.. يتعامون عن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية المحدّقة بالبلاد والتي تطرق الأبواب.. نجحوا في إخماد ثورة "همام خاطر" التي وعدت بالأمل والخلاص، ولم يعد الرجل قادراً على تغيير شيء.. أي شيء".

تحكّم الطبيب في قلقه، وعاد يقول بصبر وطول بال:

– ما دام ذلك كذلك.. فهل لديك شيء تفعله؟

قال طارق بيقين عجيب مُنقطع النظير:

"نعم عندي ما أفعله.. مجانين الحزب لا يردعهم إلا مجانين من نوعٍ آخر.. المرضى هنا يتضامنون معي.. يلتّفون حولي.. أصبحت زعيمهم بلا مُنازِع.. يأتمرون بأمري.. أصبحت أملك قوة أخطر من قوة "همام خاطر".. أصبحت أملك حزباً قادراً على تحقيق النصر.. مجانين في مواجهة مجانين.. هذه هي المُعادلة الوحيدة الصحيحة.. لا يفل الحديد إلا الحديد.. الصدام قادم والنصر

أكيد.. عثرت على ضالتي المنشودة.. امتلكت سلاح النصر بعد عناء طويل.. الثورة قادمة.. والنصر فيها بمجانين أشد بأساً من مجانين الحزب".

بدا الطبيب مُحبطاً مهموماً، قال بحزن اليائس:

– استبدلت خيالك الفني، بخيال مرضي يتعذّر قبوله والتعامل معه.. أنت الآن مريض بحق.

– ومن الذي يُعالج خيال الحزب المرضي؟.. لو أنك نجحت في علاجه لشفيت شعباً بأكمله.

أنهى الطبيب اللقاء، وقد ارتسم في خياله نوع التوصية المطلوبة.

– يعاني المريض "طارق زيدان" من حالة جنون حاد تحتاج لعلاج طويل غير مضمون النتائج.. يتم عزل المريض وإخضاعه لعلاج مُكثف لمنع المضاعفات وتسكين الهياج.

لم ينقطع الطبيب المتابع لحالة "طارق" عن مراقبته "عن بعد"، لدراسة ما يمكن أن تتطور إليه حالته الصحية.. كان يعتبره حالة خاصة تستحق البحث والدراسة، كان قد استلم منذ أيام خطاباً مُلفتاً، وصل إلى المستشفى من أمريكا، وتبين أن المرسل هو سيدة تحمل اسمها "إيناس حافظ"، كان الخطاب عبارة عن ظرف كبير

يحمل مجموعة من المقالات المتقطعة من صحف ومجلات أمريكية وأوروبية، تتعلق بوضع طارق وما آل إليه حاله، ورسالة خاصة موجهة من السيدة المرسلة "إيناس حافظ" إلى السيد "طارق زيدان" فهم الطبيب من الرسالة أو المراسلة هي زوجة "طارق" وهي تعمل في مجال الصحافة والإعلام وحقوق الإنسان، ومُقيمة في أمريكا، وتحرص على مساندة طارق في محنته، من خلال متابعتها لما مر به من مصاعب وعذابات.

لم يخف الطبيب انبهاره ودهشته من مضمون الرسالة ومغزاها، توقع أن يحدث هذه المضمون أثراً لا شك فيه في نفسية طارق عندما يعرف بأمر الرسالة، بالغ في توقعه، ورجّح أنه يستعيد إتزانه وصوابه، وتخف أعراض حالته المرضية المستعصية.

هكذا استقر قراره على مقابلة "طارق" في ذاك اليوم الموعود، وهو يحمل المظروف المدهش، اجتمع الاثنان حول المنضدة المعتادة في حديقة المستشفى، بدا طارق مذهولاً شارداً وشبه غائب عن الوعي، وضع الطبيب المظروف أمام طارق، وهو يشير إليه بما يوحي أنه خطاب خاص مرسل إليه، لم ينتبه طارق للإشارة، اضطر الطبيب لاستخدام اللغة المباشرة:

– هذا خطاب مرسل إليك من زوجتك.

انقض طارق على الخطاب وقال بسعادة وفرحة:

- من رنده؟

انقطعت خطاباتها عني بعد خروجي من السجن.

سأله الطبيب باستغراب:

- هل لك زوجة أخرى غير "إيناس"؟

قال طارق بدهشة وهو يجتهد في استنهاض ذاكرته.

- إيناس!.. هل تذكرتني بعد هذا الغياب الطويل؟.. انقطعت صلتي بها منذ سنين.

- أرسلت لك هذا الخطاب من أمريكا.

قلب الظرف دون اكتراث، ثم قال:

- ماذا يحوي هذا الظرف؟

- خطاب شخصي ومجموعة مقالات مكتوبة عنك.

فتح الظرف، أخذ يقرأ الخطاب بشعور جامد ومحايد وخال من الحماس.. وضع الخطاب دون أن يبدو عليه بادرة انفعال، لم يتحمس لقراءة المقالات، قال للطبيب باستخفاف وهو يُشير للخطاب:

- ماذا تقول هذه المقالات؟

- ألا ترغب في قراءتها؟

- أُفضّل أن أستمع إليك.

- المقالات تتحدث عن انقلابك على السُلطة.. ومُناداتك بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان.. تتحدث عن سيرتك الذاتية وما عانيته في السجن.. وتطالب بإعادة فتح ملفك أمام جهة مُحايدة.. هناك أيضاً مقالات كتبتها "رنده زاهر" كشفت عن تفاصيل مُثيرة منها حكاية مذكّراتك السرية، التي تُفيد بأنك كنت مُعارضاً للنظام، رغم أنك كنت صانع أفكاره.

صمت طارق قليلاً، ثم قال ببلادة وبرود زائد:

- وفيم يفيد مثل هذا الكلام؟

- أصبحت شخصية عالمية.. يمكنك أن تخرج من هنا وتمارس حياتك الطبيعية.. يمكنك أن تقوم بدور إيجابي يتماشى مع الظروف لخدمة المجتمع.. هذا جزء من العلاج، يعجّل بشفائك.

قال طارق بغضب:

- افترضت أنني مريض.. هذا يؤكد عدم كفاءتك المهنية.. ثم إنك تطالبني بدور إيجابي لخدمة المجتمع.. أي دور إيجابي؟.. هل تعيش معنا أم أنك في غيبوبة ؟!.. هل أنت واع ما يجري أم أنك ضيف علينا ؟!..

أدرك الطبيب أن "طارق" قد ابتعد كثيراً عن دائرة الوعي، ولم يحقق مضمون الرسالة ما تمنى أن يتحقق، هيأ نفسه للانصراف، فسمع "طارق" يقول:

- إنني مشغول الآن بثورة مخملية.. ثورة يقودها أصدقائي المجانين هنا لمواجهة مجانين الحزب والسُلطة.

تأكد الطبيب أن "طارق" ربما خرج تماماً عن دائرة الوعي والإدراك، نهض وهو يشير إلى الظرف:

- هل تحتاج للاحتفاظ بهذه الأوراق؟

استغرق طارق في الضحك، وقال باستخفاف، وهو يزيح الظرف من أمامه:

- لم تعد تهمني في شيء، خذها معك.. أرسلها لهم ليحتفظوا بها داخل أرشيف "إعادة كتابة التاريخ".

أدار الطبيب ظهره لطارق، كان يُفكّر في التوصية المطلوبة بعد هذا اللقاء المُثير، قال في نفسه:

- بقى الحال على ما هو عليه.. يستمر العلاج لحالة ميئوس من شفائها.

بطاقة توثيق

- محمد الجمل
- من مواليد الفيوم عام ١٩٣٥
- حاصل على ليسانس الآداب.. وبكالوريوس العلوم العسكرية
- عميد سابق بالقوات المسلحة.
- عضو اتحاد الكتاب وعضو نادي القصة.. إضافة إلى العديد من الجمعيات والهيئات الثقافية بالقاهرة والإسكندرية.
- صدر له العديد من المجموعات القصصية والأعمال الروائية.. إضافة إلى مساهمته في مجال كتابة الدراما التليفزونية.
- أبرز – رواياته: المسافة الصغيرة – من كفر الأكرم إلى بارليف – القصور تتصدع فوق الرمال – جواز المرور – حدث ذات مساء – أمازيس – غيبوبة بدون جنان.